



لا يكون الرضيع رجل المستقبل او امرأته الا اذا كان على
صدر أمّ متهدّبة وفاضلة •
عفيفه كرم

Fatimah, the Bedman woman
by Affie Karam

☆ فاطمة البدوية ☆

رواية وطنية

تأليف

عفيفه كرم



طُبعت في مطبعة جريدة الهدى اليومية في نيويورك

Press of the AL-HODA Co.

81 WEST STREET,

NEW YORK.

PJ7842
A66 F37
1900z

UNRECORDED
UNRECORDED
UNRECORDED

اهداء الرواية

حضرة العالم العامل والوطني الحرّ والاديب الفاضل نعم
افقدي مكرزل المحترم

سيدي الكريم

ان مقدار اعتبار الفضل يقاس على درجة معرفة النفس
لذلك الفضل ورغبتها فيه وانا ذات نفس تقدر فضلك الادبي
حق قدره وترى بان نتيجة هذا الفضل هي شريفة جداً لديها .
انت ياسيدي وجدت في نفس هذه الكاتبة قوّة على الخدمة
الوطنية تكاد تضمحلّ قشطتها وناراً من محبة العلم تكاد تنطفئ
فاعدت ضرامها وتربة جيدة ولكنها مهملة فهدتها بمساعدتك الادبية
وتشيطك وزرعت فيها من بذور افكارك الادبية البليغة فمت
في حقل هداك الاغرّ لخدمة الشعب السوري المحبوب

انت زرعت بذور حب كسر القيود التقليدية وربط النفس
برباط العلم والتمدين والتبذير الحقيقي في قلوب السيدات
المهاجرات بكل قواك وانا احدي اولئك النساء اقدم لحضرتك

الان روايتي هذه كشمرة من احدى شجرات تلك البذور
الشريفة وهي وان تكن غير ناضجة تمام النضج فارجوك
التكرم بقبولها برهاناً اكدًا على حبي للعلم الشريف حباً يحملني
على اعتبار تلك اليد التي غرست بزرتة في نفسي ومتى عزت
الشيء عظم قدره

ادامك الله للآداب نصيراً وللسوريات مساعداً وظهيراً

بشكر واخلاص

عفيفه كرم



مقدمة

بعد حمد الله تعالى الحمد الذي يمليه قلبي ويسطره قلبي كاشرف
استهلال لهذه الرواية اقول

انني اعتقد ان مقدمة الكتاب انما هي اعتراف الكاتب
لجمهور القراء وبما ان جوهر الاعتراف هو الصدق المجرد فيجب
ان يعتبر حضرات قراء روايتي هذه الحقيقة في نفسي وعنهما
فيعذروني اذا جاء ,, صدقي “ هذا في عرض الكلام ,, ناشفاً “
او خشناً لان الذي يعترف باعتقاداته هو كالذي يعترف
بخطاياها يجب ان يخبرها للمعترف له كما هي بدون ان يلبسها من
زخرف الكلام حلة ومن مجازة حل

انني لما كتبت رواية ,, بديعة وفؤاد “ وارسلتها الى ادارة الهدى
لتطبع عدت فطلبتها اعتقاداً مني بانها من سقط المتاع ولا
تصلح للطبع ولكن صاحب الهدى الفاضل ابى ارجاعها الي
وطبعها .

فلما قرأت تقرير الجرائد والكتاب لها في امريكا الشمالية
والجنوبية ومصر وسوريا خجلت جداً وقلت في نفسي الممتلئة
شعوراً من اطرائهم اما ان اكون انا المخطئة في ظني واما ان
جمهور الادباء هو المخطئ فاي منا هو المصيب ؟

ارى بعد اعمال الفكرة ان كلينا مصيب

فهم مصيبون لانهم وضعوا امام عيونهم انهم انما يقرضون
رواية هي باكورة الروايات او الكتب لامرأة سورية مهاجرة وان
ضعف النساء في صناعة الكتابة والانشاء معروف وهو لم يزل في
عهد الطفولية وما يأتيه الطفل مهما كان صغيراً يطرأ عليه حباً
بالتشجيع وبانماء مادة في نفسه تحتاج الى ماء التساهل وتربة
التنشيط وهواء الاطراء الذي يساعد على اظهارها فان كانت
جيدة دفعها بنشاط الى الامام وان كانت غير جيدة ارجعها الى
الوراء وهذه احسن نتيجة لاظهار ما ينطوي عليه قلب الانسان
وتعبه نفسه

ولهذا فانا اتقدم هنا بالشكر لمقرضي ١١ بديعة وفؤاد
ومنتقديها فالفرقتين الفضل الواحد عليّ اذا لم اقل ان للفريق
الثاني الفضل الاكبر لان الانتقاد تعليم والتقريط ١١ تستير "لولا
ان الامرين صادران عن قلوب شريفة تحب تنشيط الادب
النسائي وانما هـ

واشكر بالاخص لجمهور اخواني السيدات الكريمات اللواتي وقعت
من نفوسهن ١١ بديعة وفؤاد "موقع الرضى والحب فشجعني بكتاباتهن
العمومية والخصوصية الكثيرة على مثابة الجهاد بقلب أكثر قوة
لان غاية الخادم ارضاء المخدم ومكافأته الثمينة هي اعتباره
لصدق تلك الخدمة وليس لاهميتها لان الامور بمقاصدها

ومن السادات والسيدات ارجو الان امراً واحداً وهو انني
اطرح بين ايديهم ثانية روايتي هذه ليس لي لانتقدها او يقرظوها“
قياماً بواجب نحو الادب بل ليحللونها تحليلاً عقلياً ويبدوا اعتقادهم
بكل حرية وصراحة في كل مبدأ من مبادئها
فانني في هذه الرواية قد رسمت لهم سبعة رسوم : خمسة حبية
واثنين دينيين

ففي حب حسن يتمثل امام بصائرهم ذلك الحب الطبيعي
الثابت الذي يتكون مع النفس وينمو بنموها الى ان يصبح
جزءاً منها لا يقبل الانفصال حتى اذا انفصلت تلك عن المادة
الترايبية رافقها هذا الحب الى الابدية
وكيف انه متى دخل قلب الانسان يطرد من امامه منه
شدة تأثير الغيرة وحب الذات وتضحية عواطف النفس لاجل
عواطف المحبوب ويحلّ هو مكانه فيمحو من نظر الانسان رسم
نفسه ويبعد عنه الفكر بمصلحتها فلا يعود يرسم الا رسم حبيبه
ولا يفكر بغير مصلحته وكما انه يعيش وعلى ثغره ابتسامة الحب
للحبيب هكذا يموت وعليه ابتسامة الصفح عن كل ذنبه ولو مهما
كانت عظيمة — كأن هذا الحب ينسي المرء ذاته بالكلية ولا
يريه الا من يحب

وفي حب فاطمة لسليم يرى القارئ تأثير الرجل العالم على
المرأة الجاهلة ويتجلى له الوفاء النسائي باجمل مظاهره فيرى ان

قلب المرأة كجبل راسخ اذا ثبت على امر لا ترعزعه العواصف
وكيف ان المرأة الفاضلة تبادل البغض بالحب والجفاء بالوفاء
والقسوة بالحنو

وكيف انها من اجل حبيبها تذبل يدها زهرة قلبها حيث
بوسعها انعاشها بينما ذلك الحبيب يحاول ان ينساها ويتنعم
بمحبة غيرها في اكثر الاحيان

واهم شيء في حب فاطمة هو تلك العظمة النسائية التي تحمل
المرأة الشريفة على تضحية لذاتها في سبيل الواجب اذ تظن انها
مذنبة بها لانها تكدر غيرها كما ظنت فاطمة اذ اردت التنازل عن حب
سليم وتضحية نفسها لاجل حسن لانه يحبها وان تكن هي
لا تحبه

وفي حب سليم يحتاج القارئ التفكير في كيف ان الرجل
حين يرى امرأة جميلة هي زهرة نضيرة في بستان الحياة لا يقف
في سبيل اقتطافه لها شيء ولا يكلف نفسه الافتكار في امر
مستقبلها ولو كان هو مكانها — او لو كان هو يحاسب مثلها —
لتبحر في المسألة كثيراً قبل الاقدام على عمله ولكن ما ترى
بيمه وهو يعلم بانه اي وقت ذبلت يرميها عن صدره لتداس
بالاقدام وهو يبق كما هو — ” الرجل “

وكيف انه عند اشتداد رغبته في الحصول عليها وهي جان حبه
لها لا يبالي بترك كل شيء لاجلها ولكن عند فتور تلك الرغبة

وخود تلك المحبة يصبح جباناً لا يقوى على المحاماة عن شرفها
الذي كان قبلاً شجاعاً به بحسبانه انه غير ممسوس .

كيف انه يحسب الدنيا كلها ،، هو “ فهو يريد تخلص
شرفه من العار الموهوم بوضع قسمه هذا على منكبي المرأة
الضعيفة . ويريد تبريد قلوب والديه او أهله باضرار قلب التي
قال لها ،، ما جمعه الله لا يفرقه انسان “ وقطع السنة الناس
عنه بتحويلها نحوها — ومع ذلك يكون قلبه لم يزل ينبض بحبها
وهو لو سأله لا جابه ،، لست ارضى عنها بديلاً “

✓ فهل هذا غير غدر من الرجال لحسبانهم ان النساء انما هن آلات
تدار لاجل سرورهم وملذاتهم ؟ وان كل ما في الدنيا من شرف
وسعادة وهناء يجب ان يكون لهم وحدهم

✓ واما في حب آليس فانك ترى الوجهة الثانية من الحب
النسائي . ترى امرأة عالمة مهذبة شريفة تعرف مقدار نفسها وتحب
حبا حقيقياً قوياً وواحدًا ولكن حينما ترى ان هذا الحب ليس
بالنوع المحلل تبقى عليه ولكن روحياً — لا تعترض عنه بسواه
لأنها لا تقدر على ذلك وهو جزء من روحها وقلبها ولكنها
تعيش على ذكره وسعادتها قائمة في انها محبة ومحبوبة وشرفها
صحيح سالم .

وهذا مثال لذلك الحب الالهي النادر الذي يضحي المحبوب
منه الجسد ويعيش بروحه التي هي ،، الواجب “ سعيداً مرتاحاً

وكذلك في حب الكونت جيوفاني فانك ترى اشرف
عواطف الرجولة وهي عاطفة احترام شرف المرأة ومساعدتها
على حفظ طهارتها " فهذه العاطفة كثيراً ما يترك الانسان
لأجلها اللذة والسعادة حتى والحياة ويكون بذلك سعيداً لانه اعتبر
شخص المحبوب مقدساً فلم يندسه

ففي هذا النوع من الحب يظهر الرجل بمظهر النصير للمرأة
المساعد لها على صيانة نفسها وجعلها المقوي لضعفها والمساعد لها
على الفضيلة والمبعد عن الرذيلة

والمرأة مهما كانت ضعيفة تقويها مساعدة الرجل ومهما كانت
قوية يضعفها إغواؤه . فكم يكون سعيداً جنساً لو كانت كل
الرجال كالكونت ؟ واين كانت النقائص العصرية ؟ وهل كانت
هذه الدنيا سوى جنة يساعد فيها القوي الضعيف بقوته وهذا ذاك
بالطفه على الخير والشرف

اما في الرسمين الدينين فترى هناك كاهنين يمثلان الدين
لعين المتجرد المتساهل بصورتين متناقضتين اولهما بتعصبه وجهله
وجبايته يجعل الدين سبباً للشروع والمعاصي ولا سيما للتعاسة والشقاء
الذين وقعا على رأسي شخصين فخرهما سعادتهما وحياتهما وعلى
رأس ولد طاهر بريء فاقتداه والديه بل اعظم من هذا - شرف
اسمه باعتقاد الاكثرين

وثانيهما بتساهله ومسيحيته الحقبة وتهذيبه ومحبه يريح

نفساً في ساعاتها الاخيرة ويجعلها تموت مرتاحة القلب غافرة
صاخة لمن اساء اليها وموعودة دنيا اخرى تعوض فيها عما خسرت
في هذه الدنيا من الحب والسعادة والحياة

فالكاهن الاول جرح قلبها جرحاً اليماً بتعصبه والثاني وضع
عليه بلسماً من تساهله — الاثنان كاهنان وخادما دين واحد
والفرق بينهما ان الاول يمثل الذين بحسب معرفته وهي قاصرة
وشريرة والثاني يمثل بحسب معرفته وهي عظيمة وصالحة

فهذه الرسوم السبعة التي سطرتها بيدي بعد اختبار طويل
واعتماد راسخ اريد من حضرات القراء الكرام درسها

انها من اهم اركان الهيئة الاجتماعية وفي بعضها ترى الحق
واقعاً على المرأة المظلومة وهذه الكاتبة هي امرأة قد وقفت قلمها
وافكارها لخدمة بنات جنسها مدى الحياة فعليكم ايها الادباء
والادبيات الان بالافتكار في هل هذه المبادئ صحيحة أو
فاسدة وهل هذا الظلم واقع على المرأة ام لا . وهل يجب
ملاقاته ام تركه على حاله لان الرجل هو الظالم والمرأة هي
المظلومة وما القاضي في هذه الدعوى سوى الهيئة الاجتماعية

لكم باخلاص

عفيفه كرم

﴿ الفصل الاول ﴾

— في شارع برودوي —

في اعظم مدينة في العالم الجديد— في مدينة نيويرك العظمى
التي يبلغ عدد سكانها اربعة ملايين ونصفاً من النفوس — وفي
اعظم شوارعها — برودواي العظيم — بين الجمع المزدحم فيه ركضاً
الى عمله في احد ايام الصيف الحارة كانت امرأة تمشي
باضطراب وحيرة وتتهادى في مشيتها كالسكرى فكأن رجلها
تدوسان الارض امامها وعيناها لا تبصرانها لتشتت افكارها
كانت هذه المرأة في نحو العشرين من العمر وهي ذات لون
حنطيّ أمل الى البياض منه الى السمرة — مُشرّبة الخدين
بالحمرة الطبيعية حتى انه يخيل الى الناظر اليها ان اللبن وانزاح
اجتمعاً فيهما بل في كأسين معكوستين يعلوهما عيانان نجلاوان
قد سل من فوقهما سيفان مهندان ليحمياها من نظرات
الناظرين بل ليحميا الناظرين من نظراتها الفتاكة عن غير
قصد منها وهي ذات قدّ أهيف وجسم ممتلئ باعتدال يدلّ
على الصحة التامة التي هي أمّ الجمال الحقيقي ولا سيما اذا اضيف
اليها تناسب الملامح . وكان على ذراعها طفل صغير في نحو
الشهر الثامن او التاسع جميل كوالدته الا انه يختلف عنها هيئة

اذ انه ابيض اللون اشقر الشعر بينما ان شعر والدته
كستنائي اللون

ولما كانت على ما تقدم من تشتت الفكر والحيرة وكان
الخطر عليها عظيماً في مدينة يكون الخطر على الماشي في شوارعها
المزدحمة اشد منه على راكب البحر تقدم اليها احد رجال
الشرطة الذي كان يلاحظها وقد ارتاب من امرها فرفع لها
قبعة وقال بلطف واحترام :

— اسمحي لي ياسيدي فأسألك هل تريدان مساعدتي؟
فقطرت فيه منبغمة وقالت بلهفة وتلجلج : « من انت ؟ »

— انا احد رجال الشرطة

. وماذا تريد مني ؟

— اريد مساعدتك اذا سمعت وكنت في حاجة اليها

— ان كنت تحب مساعدتي حقيقة فدعني اذهب

سفي سبيلي

— لا احب ان اتركك ياسيدي لانني مرتاب من امرك

ولأن الخطر عليك عظيم اذا ظلمت تمشين على غير هدى

— وماذا تريد ان تفعل بي ؟

— اريد ان اوصلك الى منزلك محافظة عليك

— لا منزل لي . انتي غريبة

— إذن الى المنزل الذي تودين الذهاب اليه

— لا اودّ الذهاب الى نزل ما . ارجوك ان تتركني
 — كلا . لا اقدر على تركك ما لم اعرف وجهتك لان
 وظيفتي تقضي علي بذلك
 — قلت لك ان وجهتي مجهولة . انني لا اقصد مكاناً معروفاً
 — اذن قد اصبح من واجباتي المحافظة عليك اكثر من
 ذي قبل ويجب ان تذهبي معي
 — الى اين

— الى السجن او المعتقل او بعض بيوت الرحمة
 فلما سمعت المرأة كلامه الاخير صرخت باعلى صوتها
 كالمجنونة ووقعت مغشى عليها وذلك لان التأثر كان بالغاً من
 قلبها كل مبلغ وجاءت معارضة الشرطي لها ضعفاً على ابالة
 فازدحم الناس حولها وكان اكثرهم يضحكون ويهزأون كما
 هي عادة رعاع الامريكان الذين يضحكون امام اشد المناظر
 تأثيراً على النفس . وكل شيء غريب او غير مألوف عندهم
 يقفون امامه موقف المتفرج الساخر ولو كان مما يصدع
 الافئدة اسى :

✽ الفصل الثاني ✽

— ملكة المحسنات —

ما بين طرفة عين وانثبأتهما يغير الله من حالٍ الى حالٍ
ولم تفق المرأة الاّ بعد ساعة من ذلك الوقت فلما فتحت
عينها وجدت نفسها داخل غرفة مفروشة باجمل الطنافس واثمن
الرياش ولم يكن طفلها بجانبها فخيّل اليها انها في حلم وللحال
اغضت عينها ثانية لكنها لم تقدر على النوم ففتحتها وادارتها
في تلك الغرفة ناظرة الى ما حولها لعلها تدري اين هي وراجعت
بفكرها ما مرّ عليها فذكرت محاورتها مع الشرطي وآخر كلامه
لها من ان مراده الذهاب بها الى المستشفى او السجن ولم تعد
تذكر شيئاً بعد هذا فنهضت من سريرها كالمجنونة وذهبت
الى النافذة واذا أطلت رأسها منها وجدت انها في صرح فخم
قائم في وسط حديقة غناء تكتنفه من الجهة التي نظرت فيها
الاشجار الباسقة المشتبكة الاغصان حتى يخيّل الى الناظر انها
اغصان شجرة واحدة لولا اختلاف انواعها وامام ذلك القصر
او السجن (كما حسبت هي) حديقة نبت فيها الازهار المتنوعة
والرياحين المختلفة وهي مفروشة بالعشب الاخضر على نظام

بديع . فما اشبهها بجنة شاعر العرب

كأن نوافجها بالضحى عذارى تحلُّ أزوارها

وفيه النوافير يتدفق الماء من افواهها تدفقه من افواه تماثيل
الحيوانات الرخامية على جوانبها

وكان الوقت اذ ذاك ظهراً وظلال الاشجار تحمي تلك
الزهور الغضة الجميلة من حر الشمس فنسيت المرأة اضطرابها حتى
وولدها امام تلك المناظر البديعة التي ضافت على تحسينها يدُ
العلم يد الطبيعة فجاء جمالها تاماً

وبعد تأمل دقائق ضاعت فيها افكارها انتقلت من تلك
النافذة الى نافذة اخرى لجهة الشمال فرأت من هذه ما رأت
من تلك سوى ان هذه كانت تطل على الجهة الأمامية من
القصر فنظرت طريقاً رخامياً في منتصف الحديقة يمتد من
بوابة القصر الى الشارع ما بين خطين متصلين من اشجار السرو
الجميلة المشبكة الاغصان وكان امام البوابة تمثالان من الرخام والمرمر
يمثلان رجلاً وامراً ولما حدثت ببصرها الجهة المقابلة رأت
القصور الفخمة مقابل ذلك القصر يفصلها عنه الشارع فعرفت انها
ليست في قفر بلقع كما كانت قد ظنت حينما التفتت لاول
مرة من النافذة الى الحديقة

وفي اقل من عشر دقائق رجع الى المرأة صوابها فذكرت

ولدها واقلبت تفتش عنه في الغرفة فلم تعثر له على اثر
فنادت باعلى صوتها والدمع يكاد يحترقها . سليم ! سليم ! — اين انت
يا ولدي واين انا ؟

ولم تكذ تتمّ جملتها حتى دخلت ربة البيت الغرفة اذ
سمعت الصراخ حاملة على ذراعيها الطفل سليماً الذي لما رأى ذراعي
والدته مفتوحين له رمى بنفسه على صدرها بشوق وفرح
فضمته هي الى ذلك الصدر الملهب وأخذت تقبله وتجلو وجهه
بملح دموعها المنهمرة انهمار المطر

لم تنقبه المرأة للسيدة قبل ان ادنت طفلها الجائع من
صدرها ليرضع ولما نظرت اليها رأت الدمع يبلل عينيها فقالت
لها بدهش : « اين انا ياسيديتي »

— انت في بيتي يا عزيزتي فلا تخافي شراً
— ولكن من انت وما هو اسمك الكريم . ولأني
سبب انا في هذا المكان ؟

— اسمي آليس هاريسون
— ومن اتي بي الى منزلك ياسيديتي فاني لا اعرف
شيئاً مما انا فيه

— انا اتيت بك الى هنا لانني بطريق الصدفة سمعت
محاورتك مع الشرطي اذ كنت مارّة في شارع برودواي
واغمي عليك واخذتني الشفقة فاحضرتك الى بيتي لانني

عرفت انك غريبة

الف شكر على جميلك ايتها السيدة الكريمة . إذن

انا لست في سجن او مستشفى الان ؟

... لا شيء من ذلك

— وانا: حرّة اقدر على الذهاب اى وقت شئت .

أليس كذلك ؟

— بدون ادنى شك . أفلا تريدین طعاماً الان ؟

— كلا ! انني لا اقدر على تناول الطعام

فتفتحت السيدة آليس ساعتها ونظرت الى المرأة الغريبة

قائلة: هوذا الساعة الثالثة بعد الظهر وهي وقت تناول الشاي

وانا اتناوله في هذه الغرفة معك هذا المساء . ثم لمست زرّاً

كهر بائياً فأتت خادمة مرتدية ثياباً بيضاء فقالت لها سيدتها

-- اثيني بالشاي الى هنا ياماكي لانني سأشربه مع

هذه السيدة في غرفتها .

وبعد بضع دقائق دخلت ماكي وعلى يدها صينية من

الفضة عليها قدحان من الصيني الخالص واثاء للسكر من البلور

النقي مع ملعقتين من الذهب وبعض الحلوى في الصحون

الصينية . اذ ذاك عرفت المرأة انها في احد قصور الاربعمائة

فأخذها الخجل والاضطراب

ولكن هيئة السيدة آليس لم تكن لتحمل الناس على الخوف بل

على الارتياح والاطمئنان لان جوهر نفسها كان متغلباً على
تأثير الجواهر الارضية على النفوس فصبت فنجاناً من الشاي
بيدها وناولته المرأة الغربية بابتسامة لطيفة كأنها انما تتخاطب
زميلة لها من رفيقات المدرسة وقالت لها بلطف

— لم أسألك ما اسمك مع انني اخبرتك ما اسمي

— اسمي فاطمة ياسيديتي

— فاطمة ؟ اليس هذا اسماً اسلامياً

— نعم مولاتي

— إذن انت مسلمة فيا للعجب انني عرفت انك غربية

لكن لم يخطر ببالي قط انك مسلمة لعلمي بان نساء الاسلام

قلما يهاجرن

— ربما كنت انا اتعسبن خطأ بمهاجرتي

— وما هو اسم ولدك . انني لم اعد اذكر بماذا ناديتك

— ناديتك " سليم " او " سالم " حسب لفظ

اللغة الانكليزية

— لا تؤاخذني تطفلي بالسوءات ولكن هل والد هذا

للطفل حي ؟

— نعم انه حي

الفصل الثالث

(ذكاء فاطمة اساس صداقة آليس لها)

عند جواب فاطمة الاخير كانت السيدتان قد اتهمتا من شرب الشاي فردت فاطمة القدح الى مكانه على الصينية ونظرت الى مضيقتهما بعينين اذبلهما الهم فزاد جاهلها وقالت بصوت منكسر — انك اتيت فضلاً جميلاً معي بتخليصك اياي من يد ذلك الشرطي ياسيديتي فاتوسل اليك ان تمني جميلك هذا بسماحك لي بالذهاب العاجل مثقلة المنكين من فضلك علي ومكبلة بقيود احسانك

— ولكن الى اين ترومين الذهاب يا عزيزتي ؟
— لا علم لي بذلك الان . وكنت اقصد التفتيش عن شخص يهمني امره كثيراً
— ارجوك الا تعددي سوء الي تطفلاً بل غيرة عليك لما عرفت او لحظت من امرك فمن هو ذلك الشخص وما هو اسمه ؟

— ان هذا سرّ لنفسي ياسيديتي لا ابوح به لأحد فضلاً

عن ان افشاء لك لا يفيدني ولا يهكم
 — ليس من شأني استطلاع اسرارك يا عزيزتي وكل ما
 اريده انما هو مساعدتك لان هذه بعض واجباتي نحو الانسانية
 بل هي شغلي الوحيد
 — انني اكون ممنونة وشاكرة اذا ساعدتني بسماحك
 لي بالذهاب

— ولكنني اخشى وقوعك في شر اعظم من الشر الذي
 خلصتك منه وانت مجهولة الامر في المدينة ورجال الشرطة في
 هذه الايام يرتابون من كل من يكون غريباً مثلك من نساء
 ورجال لظنهم انه من الفوضويين فهل لديك عنوان
 من تطلبين ؟

— كلا . لان من اطلب مجهول المكان
 — إذن كيف تأملين الظفر ببقيا ذلك الشخص وانت
 تجهلين عنوانه وفي هذه المدينة العظيمة يضع الانسان في البناية
 الواحدة اذا لم يكن معه عنوان كل غرفة من غرفها
 — ان مسألتي مستثناة ياسيدي فالذي اقتش عنه ليس
 موجوداً ولكن يمكنني استطلاع خبره من نسيب له يسكن في
 شارع من شوارع هذه المدينة وانا اعرف منزله
 — ولكن من اين كان قدومك حينما التقيت
 بالشرطي ؟

— من بلدة في الداخلية

— وكَمْ مضى على وجودك في هذه المدينة؟

فتنهت فاطمة تنهد المثل المتعذب من هذه السوءالات وكانت من جهة تحب كتمان سرها عن كل احد ومن جهة اخرى تشعر كأنه نارٌ تأكل قلبها فتحب تخفيها قليلاً ومن عادة كل انسان ان يلين من اللجاجة فلجاجة السيدة آليس التي كانت عن اخلاص تام ورغبة صادقة في مساعدة فاطمة لانها لحظت بل اكدت حاجتها اليها ألانت قلب فاطمة وخففت شيئاً من كرمها حتى كانت تتقدم بسرعة نحو الرغبة في افشاء سرها لسيدة عظيمة ومخلصة كهذه ولاسيا لانها غريبة عنها وهذا مما يساعدها على قول الحقيقة بدون خجل وبدون خوف وكانت اول درجة صعدتها من سلم الارتياح الى السيدة والوثوق بها قولها

— كم انت محسنة ياسيدي نحو امرأة غريبة حقيرة مثلي!
وهذا الاحسان يقيدي باكرامك ومحبتك . انني وصلت الى هذه المدينة صباح هذا النهار وقد كانت افكاري في درجة الغليان ودم قلبي يفور فوراً حيثما التقيت بالشرطي وذلك من جراء امورٍ يشيب الطفل لها

— هذا ما لحظته بل شعرت به يا فاطمة وهذا ما يحملني على استنطاقك لانني اشفق عليك جداً وقد كانت هذه الشفقة

اصل حيي لك الذي اصبح طبيعياً الان نظراً الى جمالك
وذالك وغربتك فيمكنك ان تعوّلي علي بكل مساعدة وان
تتقي بي في كل امر

— ان لساني قاصر عن شكرك يا مولاتي ولا ادري كيف
ان فتاة تعيسة مثلي تستحق نعمة التفات كهذه في حياتها فضلاً
عن اختلافنا في الدين

— لا شكر على الواجب يا فتاتي العزيزة . ولكن ماذا
يمنع حيي لك وجودك على دين محمد وانا على دين المسيح ؟
— ان اكثر الناس يتخذون الفرق في الدين وسيلة لقلة
الدين ياسيدي ولكنني بكل نخجل اقول لك اني ،، بلادين ،،
الان فقد كنت مسلمة ثم اعتنقت الدين المسيحي والان
تركت كليهما معاً

— لا فرق بالطبع بين الارواح والاجساد والعقول . يا عزيزتي
وان يكن بين الاديان فروق العقائد . فالانسان في العالم اخ
في الجنس لكل بشري على السواء والله ولي ما سوى ذلك .
والآن فما الذي دعاك الى ترك دينك القديم ودينك الجديد ؟
— دعاني اليه ،، دين ،، عظيم في ملكوت الصبا
يدعونه ،، دين الحب ،،

— ها قد علمت سرّك بدون قصد منك يا فاطمة وانا
لا اجهل ان تفتيشك عن ذلك الشخص مدفوع بقوة عظيمة

سببها علاقة قلبية هي من اشد ما يكون وقعاً على الاخلاق
في من كان في سنك صالحاً كان ام طالحاً .

— نعم ياسيدي وعلاقة ابدية هي فقد تصل النفس
باسلاك كهربائية بالسعادة الى الابد وقد يعكس الامر .

— وهل اسم شخصك ,, سليم ,, او ,, سالم ,, ؟

— ويلاه من اين عرفت ذلك ؟ انك تتبأين ؟

— هكذا يتبأ اولئك الانبياء الكذبة على البشر اذ يستدلون

على الامور من ظواهر الحال ثم يدعون معرفة الغيب . فان
الامر طبيعيّ يا فاطمة ولا بد ان يكون ذلك الشخص هو والد
هذا الطفل الذي يسمى باسمه وهل هذا الطفل غير قيد متين
يقيدك بابه الى الابد ؟

— ان الحالة كذلك فيّ ولكنها بالعكس فيه .

— لاغرو يا عزيزتي فما زالت هذه حالة المرأة مع الرجل فهي

تشاركه باقتطاف ثمرة الحب من شجرة الحياة فيأكل منها ويرمي
اليها بالقشور . يأكل هو ما كان حلواً منها ويرمي اليها بما
يكون مرّ المذاق

وكأن كلام السيدة آليس هذا كان مفتاحاً ضائعاً لقلب

فاطمة فوجد في يدها والحال فتحت به مغالق ذلك القلب

التعيس فطفت فاطمة تبكي قائلة

— تودين ياسيدي معرفة قصتي وما كان امتاعي عن

شرحها لك سوى نخلي لان قصتي عنوان الذل
والعس والشقاء .

— قصدي من معرفتها مساعدتك فقط لانني اشعر في
قلبي كأنني اعرفك منذ دهور يا فاطمة واحب مساعدتك التي
اصير قادرة عليها بعد معرفة قصتك فممّ تحجلين يا عزيزتي وانا
امرأة مثلك؟ ثم ما ادراك أنني اذا قصصت انا عليك قصتي لا
تبادلين مركزك فلكل قسمه من تماسة هذه الحياة يا اختي

﴿ الفصل الرابع ﴾

مرّ فاطمة المحزن

ابتدأت فاطمة تسرد قصتها فقالت لمضيفتها : بعد ان غمرتني
بفضلك على غير امل المكافأة وبعد ان تنازلت الى حي
على ما انا فيه من حال الغربة والحقارة وبعد ان قبلتني في
قصرك العظيم وانت لا تعرفين عن سابق حياتي شيئاً عرفت
انك المسحوق الحقيقية التي عمت بمشيمة سيدها القائل " كلما
فعلتم ذلك بأحد اخوتي هؤلاء الصغار في فعلتموه " ولذلك
فها انا بكل ثقة استودع اسراري المحزنة خزانة قلبك الشريف

التيئة حيث لا يمكن ان يدخل لصوص الحيانة والظلم والشر
الذين في هذا العالم فيسرقونها .

انني فتاة من البدو ياسيدي او كما يدعوهم اهل بلادك
"العرب" ، ولدت في قضاء بعلبك من ولاية سوريا من ابوين
فقيرين ولكنهما فاضلان وفضلهما طبيعي لا تصنع فيه ومع ان
العادة في الاسلام هي ان يتزوج الرجل بقدر ما يشاء من
النساء فان والدي لم يتزوج سوى بامرأة واحدة كان يحبها ويفار
عليها ولا يحب ان يمرمرحياتها بوجود "ضرائر" معها اذ لا
شيء يذبل قلب المرأة الحساسة ويقسي عواطفها ويزيل لطفها ويحبب
الاتقاف اليها مثل الغيرة ولما كنت الولد الوحيد لوالدي كان
اقاربنا وحتى والدي نفسها يلحون على والدي باتخاذ امرأة اخرى
فأبى قائلاً " انني لست ايراً ولا ملكاً لا رغب في
الصبيان اكثر من البنات خوفاً على ذهاب ملكي او رزقي فالبنت
بنتي كما ان الصبي ابني وانا احبها كما لو كانت صبية ،
وهكذا فقد رضي بي قانعاً وكان يراني انا ووالدي وقطيع
الماشية كأننا العالم كله امام عينيه .

وكان لوالدي نسيبة ماتت مع زوجها في اسبوع واحد
مخلقة طفلاً في السنة الثانية من عمره اسمه حسن فرباه والدي
فاما كنت في السنة الاولى من سني حياتي كان حسن يلاعبني
ويعتني بي في غياب والدي وقد ربينا ونحن نحسب اننا

اخوان كما كان يقول لنا والدانا ولما كانت تجارة البدوكلها في الماشية فقد كان لنا كثير منها وكانت مورد رزقنا الوحيد نعيش من اثمان لبنها وسمنها وصوفها . وقد ابتدأت ارعى الماشية مع حسن وانا في السادسة من سني وهو في السابعة فكنت اخرج الى البرية صباحاً ونرجع المساء بدون ان افده شيئاً سوى تسليته ومشاركته في اللعب فقد كان يجلسني على حجر ويذهب مفتشاً لي عن كل زهرة جميلة لأتشفق رائحتها او كل نبتة لذينة اتلذذ بطعمها وهو وحده يتعب برعي الماشية وسقيها وردّها الى مراعيها اذا شردت

وقد كنت عائشة بطهارة توازي طهارة زهور الحقل التي كنت اشمها — وبراحة تشبه راحة الطيور التي كنت اتلذذ بسماع نغماتها — ذلك لان أي كان يحبني كثيراً وحسن يتفانى في خدمتي اما والدي فقد كانت بيت سعادتي وركبتها محل افتخاري وسروري

وكأن الدهر قد ابرم عهداً مع المصائب على ان لا يكون لبشر سعادة تامة فحينئذ بلغت السنة العاشرة صدم قلبي لأول مرة صدمة هائلة من يد الدهر اذ ماتت والدي فشعرت بعد موتها كأن حياتي التي كانت قبلاً تامة السعادة اصبحت ناقصتها وقلبي الذي كان دائماً شعبان بوجودها اصبح جوعان ابداً الى ذلك الوجود

ولكن المصيبة تبدو كبيرة ثم تصغر فان مصيبتى اخذت
في التناقص يوماً عن يوم حتى اذ بلغت السادسة عشرة شرعت
استرد بعض لذة الحياة التي كنت ظننت انني عدمتها
الى الابد

وكان والدى قد تزوج اذ ذاك بامرأة محبة لطيفة عاملتني
معاملة الالدة فساعد هذا على اندمال جروح قلبي كما ان
ولادة غلامين لوالدي لم يخففا من حبه لي شيئاً بل بقي لي
المقام الاول في قلبه وبيته

ولكن أواه ما اقصر ايام السرور في الحياة . فكأنني لم اكد
افلت ذيل التعاسة حتى امسكت برأسها وكأن الدهر ما
كان نائماً عن أذيتي بل اتخذ لنفسه بعض الراحة حتى يعاود
الكرّة علي باكثر نشاطاً من الاول ففي اواخر تلك السنة
ظهرت غمامة بعيدة في سماء معيشتي الطبيعية الصافية وكانت
تسرع في الاقتراب وهي كلما اقتربت تكبر وتظلم حتى حجبت
تلك السماء برمتها وامطرت على رأسي التعاسة والشقاء

والدهر لا يبق على حالة لا بدّما يقبل او يدبر ✓

هنا توقفت فاطمة عن الكلام لتمسح دموعها المتساقطة
بغزارة وهدوء فقالت لها أليس

— بالله عليك ايتها العزيزة لا تقطعي حديثك بالبكاء

فانه حديث مؤثر للغاية وقد اسرعت له نبضات قلبي ولا
يهدأ لي بال قبل ان احب على سماع اخره فان معرفة القصص
واستطلاع الاسرار ولا سيما مايتعلق منه بجنسنا من اعظم ما
تتوق اليه نفوسنا نحن النساء والذي يدهشني هو رقة
حديثك وانسجامه وحسن تلفظك بلغتنا فاني وانا أسمع كلامك
يخيل اليّ انني اسمع حديث فتاة بدوية قضت عمرها بين الحيام
كلياتنا وليس حديث فتاة بدوية قضت عمرها بين الحيام

— انك مخطئة ايها السيدة اذ فضلتني على قومي العرب
فان كل ذكاء نأما هو فرع من اصل ذلك الذكاء العربي الفريد
— انا لا انكر على قومك الذكاء يا فاطمة ومع اعجابي
باعظامك لقومك وحرية ضميرك اقول لك انه لا بد ان
يكون صقل تلك المادة النفيسة من يد اوروية او امركية
ماهرة وسنرى

لقد صدقت ايها السيدة ولكن لو لم تجد يد الصقل المادة
فما الذي كانت تصقه؟ وهل تقدر على ايجاد مادة؟

— كلا ايها العزيزة واما الفضل للصقل الذي صيرها
الى حالتها الحاضرة من الجمال اذ ماذا كانت الفائدة منها
ياترى لو بقيت بدون صقل؟ فبدون مادة لا يتم صقل
وبدون صقل لا تظهر مادة والفضل للاثنين على السواء

— كلامك صادق يا مولاتي ولكن ياليتها بقيت على حالها

بدون صقل لان الصقال وهو يشتغل بصقلها قد كسرها كسراً
لا يجبر فافسد بذلك مادتها وجلاها معاً
— ما هذه الالفاظ الجميلة يا فاطمة ! ان بدء قصتك يدل
على انها عجيبة فارجوك اتمامها

وكان الطفل قد اغمض عينيه الجميلتين ونام على ركبة أمه
فأنهضته ومدّته على السرير وقبلته ورجعت الى مجلسها وهي
تقول : لا ادري ما الذي يرغبك في قصتي الا ان يكون جهلك
لها لانك لو علمتها لما وددت سماعها وهي احزن قصة وسيكون
لها في شواورك اللطيفة اعظم تأثير

﴿ الفصل الخامس ﴾

نار حبّ حسن لم تجد في قلب فاطمة خطيباً تلتزمه

قلت لك انني كنت لم ازل ارافق حسناً الى مراعي
الماشية وكنت في ذلك الوقت في سنّ اقدر فيها على مساعدته فلما
هو كان يأبى عليّ ذلك ضناً براحتي وكان من عادتنا الجلوس
في ظل شجرة من السنديان قديمة العهد فانتقي لي حسن مكاناً
في قلب اغصان تلك الشجرة وبطنه بالاغصان الصغيرة المورقة
التي كان يشبكها بعضها ببعض شبكاً حتى اصبح ذلك المكان

شبه مقعد لي فكان عندما نأتي الى، تحت تلك الشجرة يقول
 لي ،، اصعدي انت الى عرشك يا جلالة الملكة وانا خادمك ابقي
 تحت قدميك هنا “ فاصعد انا ضاحكة ويذهب هو فيأتيني
 باللبن السخن ويصطاد لي الطيور ويأتيني بها منتوفة الريش
 ولم يكن يلدّ لي شيء اذ ذاك مثل جلوسي في قلب
 تلك الشجرة انظر الى حسن يجمع الحطب ويضرم النار فيشوي
 لي تلك الطيور وهو جذل مفتخر كأنه يقدم ذبيحة للالهة — اني
 بالحقيقة كنت اشعر بانتي ملكة على العالم كله لان هذا العالم
 كان عندي عبارة عن تلك البقعة من الارض — فما كان
 احلاه عالماً ! انه كان يملأ قلبي سروراً وجمالاً وبهجة ورضى وليس
 كهذا العالم الذي يملأه حزناً وتعاسةً وشقاءً الآن . ولكن
 رحم الله القائل

ما طار طيرٌ وارتفع
 الا كما طار وقع

ولم يكن حسن يصعد الى مكاني مالم ادعه انا وكنت ادعوه
 ،، رسمياً “ بعد ان تنتهي من تناول الطعام فتقضي الوقت
 تحدث بزهرة تقطفها او عشبة نلعب بها أو شاة نرعاها
 وكان حسن في السنة التاسعة عشرة اذ ذاك وكنت اناديه دائماً
 ،، أخي حسن “ لانني لم احسبه الاّ اخاً لي كما فهمت من
 والديّ اللذين لم يعرفا بان حسناً كان قد اطلع علي حقيقة نفسه

من أحد الجيران اذ لوعرفا بالامر لما كان أرسلني والدي معه
في تلك السن لان المحافظة على العرض هي اهم شيء عند
العرب ولا نسمح لامرأة بمعاشره رجل غريب عنها

— انكنّ تتحجبن كما اظن؟

— ان اللواتي يتحجبن هنّ نساء المدن والحضر اما نساء
البدو فقد يلبسن ما يسمونه تقاباً احياناً وهو يستر الوجه من
اعلى الانف فنازلاً ويظهر العينين والجبهة

— وهل الديانة الاسلامية توصي بالحجاب؟

— يقولون ان الحجاب ليس من الدين بشيء بل هو
عادة قديمة درجت . وشاعرنا يسخر بمثل هذه العوائد في قوله
: «وحجابهنّ على الرجال حرام»

ولكن ماذا يجدي الحجاب من النفع اذا لم يكن للنفس
حجاب من التهنّب والمعرفة والفضيلة؟ والمرأة التي لا تصون
ذاتها لا يقوى على صيانتها رجل بالتضييق والضغط والظلم بل
بالارشاد واللطف والمعاملة الحسنة وعندي ان الحجاب دليل

على احتقار شرف المرأة من الرجل وعدم ثقته بها
هذا كل الصدق ياسيدي ولكن العادة طبيعة ثانية في البشر
اما فينا نحن السوريين بل الشرقيين عموماً ، فاولى .

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثما فعلوا

ثم استطردت الحديث فقالت

وفي تلك الايام اخذت تظهر على وجه حسن طلائع
تغيرات وحركات لم أرها فيه من قبل فكان قلبي بشعوره يقرأ
آيات هذه الامور ولساني لا يقدر على تفسيرها بلفظ فقد كان
ينظر اليّ بنور غير اعتيادي في عينيه لم اعهد فيها من قبل
وكان اذا اراد مخاطبتي احياناً يتلثم لسانه فيخونه النطق
وبالاجمال فقد صارت معاملته لي رسمية بكل معنى الكلمة وكثيراً
ما كان يضع امامي الطعام ولا يأكل منه شيئاً واذا ناولته انا
بيدي شيئاً يأخذه بيد مرتجفة . فكنت في بادىء الامر ارى
كل هذه الامور من حسن واستهجنها فيه لكونها غريبة عن
معاملة الاخ لاخته او بالاحرى عن معاملته السابقة لي

ففي احد الايام كنا انا وهو وأخي الصغير نأكل حسب
عادتنا تحت السنديانة وكان حسن قد ذهب ليحضر لنا ماء
من ينبوع قريب فرأيت افعى هائلة تقترب منا بسرعة
فدعرت جداً وصرخت بأعلى صوتي : يا أخي . يا حسن . أسرع
الى نجاتنا ! ” اما الافعى فلما سمعت صراخنا ورأت دعرنا تحولت
عنا الى جهة اخرى مبتعدة ولسان حالها يقول : لا تدعرا .
لا تدعرا مني ايها البشرى ان فقد كانت بغيتي منكما الضيافة فان أيتها
قبولي فلا تخافا شراً مني لانني لا اوءذيكما اذ انني لست
بشرياً لاوءذي من لا يوءذيني . انا الحية والناس يعتبروني
عدوة لهم ولكنني لا ارصد اعقابهم ما لم يدوسوا رأسي باقدامهم

فحتى الحيات ياسيدي هنّ افضل وارأف من كثيرين
من البشر

— نعم يا فاطمة وسومهنّ اخفّ فعلاً من سحوم بعض الناس
— انني افضل سم الافاعي على سم اشرار البشر باعمالهم
لان الاول يقتل الجسد اما الثاني فقد يقتل النفس والجسد معاً
ولكنه لا يريجهما حالاً بالموت بل يميتهما عذاباً في الحياة
اما حسن فلما سمع صراخي هروا اليّ مسرعاً فوجد الحية
قد اختفت من امامنا

فقال بلهف : “ ما الذي اصابكما ؟ ”

فلما اخبرته حمل عصاه واراد تتبع أثر الحية ليقتلها فامسكت
بيده وقلت له : كلا يا حسن . انك لن تقتلها فانها لم تقصد اذيتنا
ومن الظلم ان ندع الافاعي اشفق علينا منا عليها
— اخاف ان ترجع مرّة ثانية

— اذا رجعت اقتلها اما الان فدعها وشأنها

فنظر اليّ بخنوّ وقال “ وهل خفت منها يا فاطمة ؟ ”

— نعم يا أخي لقد أخافتني كثيراً ومحموداً كذلك

ولم اكده اللفظ كلمة “ أخي ” حتى اصفرّ لون وجهه وذهب

الدم من شفّتيه وقال لي بجزن عميق “ نادي محموداً يا أخي ”

اما انا فناديتني يا حسن “ فقلت له وانا مستغرّبة لهيئته اكثر مما

لكلامه ولم ؟ أفلست انت اخاً لي كمحمود ؟

— كلا . انني لست اخاك ومحمود وحده اخوك
فرجعت الى الوراق مذعورة كدعري من الافعى وقلت له
باضطراب: ماذا تقول يا حسن ؟

— انني اقول الصدق
بل انك لا تقول الصدق . لست انت أخي الشقيق حال
كون محمود ربيباً او ليس كلانا ولدَي والدتنا المرحومة خديجة ؟
أذ ذاك اقترب مني بلطف وكنني بعطفٍ وذلّ جرحاً
قلبي اذ قال : انني لست اخاك يا فاطمة بل انا نسيب لك فان
امي وايي توفيا اذ كنت صغير السن فرباني والدك نسيب
والدتي منذ كنت في السنة الثانية من عمري وقد اخفى عني
أمر نسبتي لغرض لا اعلمه ولكنني علمته منذ مدة لا تقبل
عن سنة

— ان الذي اخبرك كاذب اذ ماذا يمنع والدي عن اطلاعك
على الامر لو كان صحيحاً ؟

— لعل سيدي والدك لم يرم جرح احساساتي لفرض
محبه لي

— ولم لا تسأله عن الامر ؟

فاضطرب وقال: كلا . كلا . انني لاحب ان يدري باطلاعي
على السرّ الان لئلا يغضب عليّ فلذلك استحلقتك بالله ان لا
تخبره كما انني اتوسل اليك ان لا تنادينني " يا أخي " فيما بعد

قلت له بانفة وغضب وقد ازعجني كلامه . اني
منادية اياك " أخي ، الى آخر دقيقة من حياتي "

— فلتكن ارادتك انما اعلمي بان هذه الكلمة تخرج من
فمك كسهم يخرق احشائي فهل تريدن اذيتي ؟

— كلا . ولكنها لفظة اعتدتها فاحب مناداتك بها

— انها اثقل كلمة على سمعي واود لو استبدلتها بسواها .

وكان يتكلم بجدّ قلت له بهكم . واي كلمة خفيفة على
مسمعك ياسعادة البك ؟

فقال متلعثماً وصوته يرتجف . كلمة — كلمة —

اذ ذاك حمي وطيس غضبي وكنت قد اخذت اشعر
بسبب تغيره علي لان للشبان والشابات تعارفاً طبيعياً لا وجود
لاصوله في خزائن الكتب وهذه المعرفة بحبّ حسن لي جعلتني
انفر منه قلت له بجدة " لم لا تتكلم ؟ اتخافني ؟

— انني اخافك دون سائر الناس

وكانت كل كلمة من كلماته كشعلة جديدة فوق نار نفور
قلبي منه تزيد ضرامها قلت له وقد صعد دم الغضب الى
وجهي . لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تتلفظ بتلك الكلمة ؟

فقال وهو مطرق كأنه يخشى رفع بصره اليّ " حبيبي ،
ولما لفظها شعرت كأن حروفها قد كتبت بدم قلبي او انها
قطعت من لحم ذلك القلب فطمنحت كأس غضبي وقلت له :

انك غلام وقح قليل الحياء يا حسن ووالله لو لم تكن اثمنتني على
سرك لكنت اخبر والدي بامرك حالاً

فوقع كلامي على رأسه كالصاعقة لانه لم يكن متوقفاً ذلك
وللحال جثاً أمامي ورفع الي عينيه السوداوين وقال متوسلاً
متدلاً ١١ اصفحي عن زلتي يا فاطمة واكتمي سري عن والدك
فانني لم اقصد ازعاجك ولكنني ظننت انك تحبينني

فاجبته ببعض اللين . انني احبك كأخ لي ولم يخطر ببالي
قط ما أتيتني به من الاخبار والاسرار وكيف يخطر ؟ اما ما
يدور في خلدك من جهتي فلا تعلق عليه كبير اهمية لانه لن
يجاوز حد الكلام

فطفق يبكي ويشهق كالطفل فخرج بكأوه قلبي وفي
تلك الدقيقة جاء محمود فاوقفنا الحديث عند ذلك الحد واجبرت
محموداً على ملازمتي طول ذلك النهار لأنني كنت اشعر
بنخوف من الخلوة مع حسن ذاكرة قول الشاعر

إذا اثرت امرأً فاحذر عداوته

من يزرع الشوك لا يجني به عباً

* الفصل السادس *

— الطاعة بنت الحب الحقيقي —

وفي اليوم الثاني لم اشأ الذهاب برقعة حسن فتمارضت ولما دنا وقت الخروج الى المراعي رأيته وهو يخرج الماشية من الحظيرة ينظر بجزن الى الخيمة التي كنت نائمة فيها متنهداً من اعماق قلبه وبعد ذهابه مضى والدي وزوجته واخي الصغير الى بعلبك ليسيئعوا اللبن فبقيت وحدي مع محمود الصغير في ذلك الحباء الشعري وهذه كانت المرة الاولى التي مرضت او بالحري تمارضت فيها في حياتي فسجنت نفسي مختارة ولما كانت الوحدة مجلبة الافكار جلست افكر . وافكر . فقد كنت لم اشاهد من العالم سوى مدينة بعلبك وبعض القرى في ضواحيها ومع ذلك فقد حدثني نفسي بوجود عالم كبير عظيم وجميل كنت اود " بكل قلبي " التفرج عليه واشعر بالظلم من سجنني في تلك البقعة الواحدة من الارض وذلك لان والدي لم يكن من العرب الرحالة فلم يفارق ذلك المكان صيف شتاء منذ ولادتي . فساورتني الافكار متواترة الى

عقلي المحدود فاضطربت اضطراباً شديداً بحيث اني تمكنت
من التغلب على كبريائي فنهضت وارتديت ثيابي وقدت محموداً
بيده الى حيث كان حسن ولما اقتربت من المكان وجدت
المسكين جالساً على حجر وراحته تسندان رأسه الى جانبه
كأنف طعامه لا يزال مربوطاً ورأيت الماشية شاردة في كل
جهة فاستنبتت ان حسناً دخل في تلك الغيوبة من
زمان طويل .

فحزنت جداً لرؤيته على هذه الصورة فاقتربت منه ووضعت
يدي على كتفه بلطف وخاطبته بحنوّ قائلة " لقد غرّدت طيور
الصباح فاستيقظ من نومك يا حسن . "

فأفاق والتفت اليّ التفاتة من ظن نفسه بجلي ولكنه لم
يلبث ان قال مبتسماً عن مرارة تشق قلبه
انني لست نائماً فكيف صحتك الآن ؟
فاجبته مبتسمة : يظهر ان مرضي انتقل اليك فانك لم تذوق
من طعامك شيئاً

ارجو ان اكون قادراً على حمل كل اوجاعك أما انني
لم آكل فذلك لأنني لم اجمع
— اظنك لا تزال على جنونك ولا يزال فعل نوبة
البارحة مؤثراً في قلبك
— هل انا حقيقة مجنون ؟ نعم انني مجنون لانني بهرت

ببهاء نور الشمس فظننتها قريبة المنال .

— دع عنك هذا التغزل البليد فإنه لا يجوز ما بين الاخ
واخته . فنهض من مكانه واقترب مني واخذ يدي في يده
فضغطها وهو يقول كالواقف ما بين اليأس والامل : الا
تزالين على عزمك من مناداتي اخاً ؟

وهل اقدر على غير هذا وانت اخي ؟

— انني لست اخاك

— بلى انت كذلك والناس انما يضحكون منك بقولهم
ذلك القول لك . فارجع الى صوابك يا حسن . يا عزيزي !
فسرته هذه الكلمة الاخيرة وضغط يدي قائلاً : ان الصدق
ما أفوه به يا فاطمة

ققلت تباً له من صدق يكاد الكذب يكون افضل منه !
— ولم ؟! ألسنا اسعد ونحن زوجان منا ونحن أخوان ؟
فلما سمعت كلامه انتزعت يدي من يده بعنف رماني الى
الارض فجاء رأسي على حجر فسال منه الدم حالاً فلما رأيته
حسن على هذه الحالة طار صوابه فاسرع الي وانفض رأسي
عن الارض ووضعه فوق ركبته ونادى محموداً أن : عليّ بالماء
البارد ! فلما أتاه هذا بالماء غسل جرحي وضمدته جيداً وربطه
بمنديله وهو يبكي بدون كلام

ولما انتهى من عمله ورأى اني اخذت بعض الراحة نظر الى

بخضوع وقال : اصفحي عن ذنبي يا فاطمة فاني قد سببت لك
هذه الآلام

فاجبته بعبوسة : ان كل كلمة من كلامك السابق تؤلمني أكثر
مما يؤلمني الف جرح كهذا الجرح
،، إلى هذا الحد يا فاطمة “

— نعم الى هذا الحد لانك تريد به تكدير سماء حياتنا
الصافية السعيدة بغيوم الاوهام

فنهذه من اعماق قلبه : وقال لو كان قلبك ينبض في صدري
او لو كان يشعر بما يشعر به قلبي لما حسبت احق الحقائق او هاماً
ولكنك تعرفين كم اقا سي من اجل حبك

ثم قال لمحمود بقصد ابعاده . اذهب واجمع لفاطمة ضمة
من تلك الزهور الجميلة . ولما ذهب الغلام نظر في وجهي الذي
كان مرفوعاً اليه لان رأسي كان لم يزل على ركبته وقال بصوت
يخنقه الدمع : ،، انني اعتنيت بك يا فاطمة وخدمتك منذ كنا
طفلين وكنت حتى عهد قريب احسبك اختاً لي الا ان
شواعري نحوك لم تكن شواعر اخ نحو اخته بل كنت كلما قت
بخدمتك اشعر في نفسي ان مكافأتك لي على هذه الخدمة سوف
تكون بقاءك معي ولي الى الابد فلما علمت حقيقة نسي ادركت معنى
شعوري السابق وقلت جذلاً ان تعبي نحو فاطمة لم يذهب
سدى لانها لي وقد كتمت الامر عنك نحو سنة كان في

خلاها ناراً تلهب احشائي فلما عيل صبري وبحت لك بسري
اغضبك عوضاً عن ان يسرك كما سرفي فعرفت بانك لا تحبينني
كما احبك وفي هذا اليوم تمارضت لكي لا تأتي معي فجئت
وحدي ولكنني ضلت طريقي لانك انت وحدك النور الذي
يهديني اليها وقد غشى ظلام الوحدة بصري حتى لم اعد ارى
شيئاً حولي فلم اذق طعاماً بل جلست افكر وكل ما استجته
من افتكاري هو انه اذا تركتني اموت موتاً

فقلت له مداعبة : ان كل شيء يميتك

— قد كنت اذكر الموت قبل الان واضحك عند ذكره

اما الان فاذكره وارتعب

اذ ذاك رفعت رأسي عن ركبته وقلت له بضجر : لن ابوح
لوالدي بسرك يا حسن ولكن لا بد من الاعتذار عن عدم
مراقبتك بعد الان لانني لا اقوى على احتمال كلامك الذي
يشبه حراباً تخرج من فمك لتمزق اعماق قلبي

فقال بنم كالطفل الجازع . هل تتكلمين الجد ؟

— نعم اني اتكلم الجد ولا سواء وكلامي هو فصل الخطاب .

فجرت دموعه على خديه بسرعة وقال بصوت قد اضعفه الحزن
” وما الذي يرضيك عني ؟ ”

قلت ان نرجع الى ما كنا عليه وان تفصم عرى حديث

حبك لي

فتنهد وقال يئأس: الموت اهون مطلباً من هذا ولكن الموت
برضاك عني ولا الحياة بعيداً عنك - فلتكن ارادتك يامالكني

* الفصل السابع *

— الفارسان —

انما الدنيا هباتٌ وعوارٍ مستردّة
شدةٌ بعد رخاءٍ ورخاءٌ بعد شدة

وعمل حسن بارادتي فلم يعد يردد على مسمعي حديث حبه
ولم يكن يزعجني منه غير زفراته ودموعه التي كانت تذرف
لاقل شيء ولا أدنى سبب فكأن قلبه المجروح تنكأ اقل لطمة.
وبدت اثار الشحوب والتفكر العميق تبدو على وجهه حتى صرت
انظر اليه بدقة كلية وهمّ داخلي

وكأن القدر لم يكتفِ بتعذيب حسن من برودتي نحوه
فاراد ان يرسل اليه ما يزيده عذاباً. واذ كنا يوماً جالسين نحن
واخي محمود تحت السنديانة ظهر لنا عن بعد فارسان يقتربان
نحونا فتحوّلت انظارنا نحوهما الى ان صارا على بعد أذرع منا
فوجدناهما من الحضر ولما وصلا الينا ترجل احدهما وحيانا
قائلاً: هل تقدر ان نبتاع منك قليلاً من اللبن لنروي به

ظلماتنا؟“ فنظر اليه حسن شزراً وكله هجراً قائلاً : ١١ كلا
ياخواجه لاتنا لا تقدر على حلب الماشية عند الظهر“

فالتفت الى حسن متلطفة وقد ظننت كلامه مخالفاً لروح
حب الضيافة الذي يوصف به العرب وقلت له : ١١ جرب
ان تأتية ببعض اللبن يا أخي“

فلم يشأ مخالفة ارادتي فذهب الى دلو اللبن فاتى به مرغماً
وذهب وهو ينظر اليّ باستياء لمناداتي اياه ١١ يا أخي“

وكان هذا الفارس المترجل شاباً في نحو الثلاثين من العمر
اسمر اللون ذا شعر جعد حادّ النظر اذا نظر اليك فلا تقدرين
على ملاقة نظره لان فيه ما يدعو الى اشمئزك واذا حلق
بك تظنين ان عينيه قد سمرتا على وجهك فليس انتزاعها
سهلاً. وكالشبان امثاله احبّ مداعبتي وممازحتي اذ رآني
وحدي في تلك البرية اما انا فاذا عرفت انه من تلك الفئة
التي اذا انفرد الواحد منها بامرأة اتخذ سنوح الفرصة واسطة
لاحتقارها وليس لاعتبارها كما يفعل الرجل الشريف اعرضت
بوجهي عنه وصرت اشغل نفسي بقطف بعض الازهار

ان هربي من الشر لم يكن عن تربية حقيقية ومعرفة به
كما هو الامر الآن بل عن كره طبيعي له وهذا الكره الطبيعي
وحده يكون سلاحاً واهياً يغلب الضعيف ويغلبه القوي فهو
يقدر على المدافعة عن حقوق المرأة متى ساعده الميل ولكنه

يعجز عن ذلك اذا قاومه ولا يقاوم الميل غير قوة الارادة
وهذه لا ينمىها مثل التهذيب الحقيقي وسيظهر لك البرهان على
كلامي هذا من عملي نفسه مع الفارسين اما الفارس الآخر
الذي كان ينظر الينا فترجل عن فرسه لما رأى حسناً ذاهباً
وقاد الفرس الينا وكان يلبس قبعة وزيه افرنجياً فلما رأي رفع
قبعته لي اجلالاً كأنه في احد شوارع هذه المدينة يرفعها لسيدة
امريكية ومع ان بنت البدو لم تتعود مثل هذه الامور فتد
فهمت معناها الاحترامي ان لم يكن بلغة عقلي فبلغة قلبي ولذلك
فبقدر ما استهجنت هيئة رفيقه استحسنت هيئته ونزل قوله السلام
عليك " برداً وسلاماً على قلبي

وكان هذا الفارس ايض اللون ذا وجه مشرب بالحمرة
اشقر الشعر ازرق العينين واسعهما طويل القامة ممتلئ الجسم
وعليه هيئة الفروسية والعظمة وحسبت انه في نحو الخامس
والعشرين ربعا من العمر

فلما رددت سلامه اطرقت خجلاً لان عاطفة داخلية
حولت نظري عنه الى حسن الذي كان يجلب الشاة وهو يلتفت
جهتنا التفاتة الواجل على شيء نفيس جداً يخاف ان هو حول
بصره عنه أن يسرقه اللصوص

وبسرعة كلية رجع حسن بالابن فناوله الفارسين وبعد ان
شرباه تناول الفارس الاشقر قطعة مالية وناولها حسناً فرفضها هذا

قائلاً ١١ لم يعتد العرب ان يأخذوا على ضيافتهم ثمنًا “
 فقال الفارس : هذا ما اعرفه عن العرب الكرام وانا لم
 اقصد احتقارك بل اكرامك وانا انما اقدم لك هدية لا ثمنًا
 فاشكر كما كثيرًا واودعها الان .

وقال الآخر مثل ذلك تقريبًا ثم امتطيا جواديهما وسارا
 فوقفت انا وحسن تتبعهما ببصرنا الى ان غابا . وكان اخي محمود
 بعيداً عنا فأتى اليّ راكضاً يقول وهو يريني يده المطبقة
 ١١ احزري ما بيدي “

ففتحتها ورأيت فيها تلك القطعة الفضية التي رفضها حسن
 فأخذتها من يد الغلام بقصد حفظها ليس لانها ذات قيمة مالية
 بل لانها ذات قيمة تذكارية

* الفصل الثامن *

— رجوع الفارس وحده —

١١ كلُّ له غرضٌ يسعى ليدركه “

مضى على حسن اسبوع من بعد ذهاب الفارسين كان
 فيه منقبض القلب كاسف البال شارد الفكر لا دأب له سوى

اصعاد الزفرات التي كانت تشق قلبه حين تخرج من صدره فكانت كل هذه الامور تحملني على ان احاول مبادلة حسن حبه فلم اقدر على ذلك لان الحب مخلوق غير مصنوع وما كانت افكاري تتحول عن العاطفة الاخوية نحوه كما ان افكاره لم تكن لتتحول عن مجراها على شدة سعيي وراء تلك الغاية .

ففي اليوم السابع على مرور الفارسين علينا رأينا على بعد فارساً واحداً آتياً من الجهة عيناها ومتجهاً نحونا . فلما وقع بصري عليه خفق له قلبي خفوقاً شديداً لم افهم معناه والتفت الى حسن وكان بعيداً عني فوجدته متجهاً الى جهة الفارس ايضاً وقد تغير لون وجهه وللحال دنا مني غاضباً وهو يقول :

ارى احد ذينك الفارسين قادماً الينا الآن فما هو غرض هذا انرجل الحضري عندنا ؟

فاجبته وانا اضطرب ، لماذا تسألني انا هذا السؤال ؟
سله هو " وكانت اطباعي في صغري هزلية جداً حتى انني كنت اقف امام اشد المناظر تأثيراً باسمه الثغر واتهم على الامور التي تستدعي كل اهتمام وجدّ قللت لحسن لاستثير غيرته وقد حسبت غضبه احتقاراً لي

— ماذا يهمك انت من مجيء ذلك الفارس ؟ اهلاً وسهلاً به . اني احب مشاهدة اولئك الحضرة لاختلاف ازيائهم عن ازيائنا والانسان مفعطور على الميل الى كل ما هو

غريب عنه .

فقال بلهجة جدية تدل على امر في نفسه : ،، اما انا فافكره اولئك الغرباء كرهاً شديداً “

عند هذا الحد قطعنا الحديث لان الفارس كان قد دنا منا فتبيناه فاذا هو الفارس الاشقر نفسه ولما وصل ترجل عن فرسه وحيانا باشاً فرددت انا تحيته بذات البشاشة وردّها حسن بعدم اكتراث

فلم تخف هيئة حسن على الرجل الذي نظر اليّ قائلاً : ،، اظنكما قد عرفتماي “ . فقلت نعم . الست ذلك الفارس الذي شرب من عندنا لبناً في الاسبوع الماضي ؟ “
 — ،، بلى . . وقد اتيت لاستزيد من شرب ذلك اللبن لانه لذيذ “

ثم قال لحسن بلطف ،، هل تسمح لي ببعض اللبن يا أخا العرب “ فاجاب حسن باشمئزاز ،، لا اقدر على ذلك لان الحرّ شديد وقد اوذي الشاة التي استدرّ لبنها “

قال هذا ونظر اليّ نظرة شفت عن تحذيره اياي من المعارضة فلحظت انه لا يريد تركي لوحدي مع الفارس فمشيت نحو الشجرة حيث كان الدلو معلقاً وتناولته وذهبت لاحضر اللبن دون ان ابدي لحسن كلاماً بل قلت للفارس: تكرم بالبقاء هنا الى ان احضر لك اللبن . فتبعني قائداً فرسه وهو يقول :

،، انتي لا اكفك عناء جلبه الى هنا بل اذهب معك “
 وكان يمشي ورأى هو وفرسه وانا اشعر كأنهما يدوسان
 على قلبي الذي زاد خفقانه الى درجة غير معهودة
 ولما مشيت قليلاً التفت الى ورأى لارى هل حسن لا
 يزال مكانه فوجدته قد تبعنا

ناولت الفارس اللبن فشربه وقال مبتسماً ،، ما الله
 لبناً “ فاطرقت من كلامه ولم أجب حياءً . ولما انتهى من
 الشرب تناول قطعة ذهبية من جيبه وناولني اياها قائلاً ،، ارجوك
 قبولها مني ذكراً اكرامياً “

— ،، اننا لا نبيع لبننا بيعاً “

— انما هي هدية ارجو قبولها دلالة على رضا كما عن

زيارتي “

— اننا تقبل زيارتك ونأنس بها ولكننا نرفض مالك

وبعد ترجّ كثير ارجع القطعة الى جيبه ونظر اليّ وقال

،، ما اسمك ايّها السيدة “

— ،، اسمي فاطمة “

ثم قال مشيراً الى حسن ،، واسمك انت ايها الشاب ؟ “

فاجابه بدون ان ينظر اليه ،، اسمي حسن “

فقال الاسمان حسان ثم امتطى جواده وذهب وهو يقول

،، الوداع الى الملتقى “

* (الفصل التاسع) *

— حبّ قديم يُرفض وحب جديد يُقبل —

١١ ما الحبّ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ ؟

ولم يكد ذلك الفارس يغيب عن ناظري هذه المرة حتى شعرت كأنه ترك وراءه ظلاماً دامساً غشى بصري وقلبي وشعرت بوحشة لم اشعر بها من قبل وذهب من امام عيني كل شيء كنت اتلذذ به ولم يبق سوى رسم ذلك الفارس مطبوعاً على مخيلتي ورنّة صوته في اذني

وقد كنت في تلك الايام زهرة نضيرة في بستان الطبيعة الزاهي وكان اهل عشيرتي يعدّونني اجمل بنت فيبا وأبي يرفع رأسه افتخاراً بجمالي وهو يؤمل انه سوف يزوجني باحد امراء العرب متى كبرت فلا غرو اذا عللت نفسي البسيطة اذ ذاك بحبّ ذلك الحضري لي مع ما رأيته من بذخه وهيئة العظمة والثروة عليه. والذي قوى اعتقادي بان زيارة الفارس لم تكن لاجل شرب اللبن هذه المرة هو حادثة كانت قد جرت حديثاً في قبيلة من العرب مجاورة لنا

كان في تلك العشيرة بدوية تعدّ اجمل نسائها اسمها مسعودة فعلفت شاباً من اغنياء سوريا العظام فهربت معه الى مدينته على امل التزوج به كما وعدها لكنه طردها من بيته بعد بضعة اشهر لامور بيتية فخافت الرجوع الى اهلها لثلاً يقتلوها وعمدت الى العيشة المنكرة فحاول اهلها قتلها لانها جلبت عليهم عاراً لا يحى اما هي فوفرت عليهم تلك المشقة واماتت نفسها غرقاً بعد ان يست من الحياة وفقدت شرفها ففرح بموتها اهلها لان اعز شيء عند العرب هو العرض والتي تأتي اعمالاً كهذه يقتلوها فقطبت آليس حاجبها وقالت باندهال : يقتلوها ! أفلا يوجد حكومة تقاصهم على بربريتهم ؟

قالت فاطمة : لا يعدون عملهم بربرية بل واجباً مقدساً يقومون به وهم يتمثلون بقول القائل

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى

حتى يراق على جوانبه الدم

ثم من اين تصل اليهم يد الحكومة بالعقاب وهم على الاكثر كل يوم بمكان في البرّ الاقفر ؟

— ولكن أليس الروح لله وحده ولا يجوز لاحد انتزاعها ؟

أو ليس لكل انسان الحرية ان يعمل ما يريد بشرط ان لا يؤذي سواه ؟ والله وحده يحاسب على الذنوب فكيف يجوز لهم

قتل امرأة لم تضر سوى نفسها ؟ هل تعتقدان ان في علمهم هذا عدلاً يا فاطمة ؟

— انهم يعتقدون في علمهم العدل لان المرأة تجني على قومها اكثر مما تجني على نفسها باتيانها مثل هذه الامور وارى انك تنظرين الى الامر من غير الوجهة التي ينظرون هم منها اليه فترينه بربرية .

— هي انني سمعت معك ومعهم فهل يتدرون على اصلاح المرأة بهذه الطريقة القاسية ؟ نعم انهم يخيفونها ويضطرونها الى الطاعة ولكن ما هو فضلها من جهة طهارتها وهي تحت قصاص الموت عند المخالفة ؟ ما ادراك بان المرأة التي لا تكون تأتي عملاً خوفاً من القصاص لا تكون تفكر فيه دائماً فتخطأ بالفكر وتكون عند كل فرصة تحصل عليها مستعدة لتخطأ فعلاً ؟ ان احسن طريقة لتهديب المرأة هي ان يُبتدأ بتريتها من الصغر فاذا كان فيها اعوجاج فلتقوم يد الام بلطف لئلا تكسرهما وقل من تحيا مع جهة المبادئ والخصال اذ كان قد اعتني بتقويمها في نفسها عن صغر وبهذا تكون سلكت طريق الحق باسهل طريقة فيصبح التهذيب في نفسها خلة لا تتغير والفضيلة طبيعة لا تزول ويجب ان لا يخرجها اهله من تحت مراقبتهم وارشادهم لان النبتة متى كبرت لا يقطع عنها الماء ولك شاهد على صحة كلامي هذا من ابنة جنسك مسعودة نفسها

فلو قوبلت هذه المرأة بالصفح واللفظ بدل الخشونة والعنف لكانت رتقت في مستقبل حياتها ما فتقته في ماضيها . وهي في اعتقادي اخف جرماً لانها خدعت من حبيبها ورفضت من اهلها فعمدت الى اتيان المنكر فاهلها اذن اتوا نحوها ذنباً اعظم من ذنب ذلك الرجل الخائن اذ لو ارجعوهما الى حضن حنوّهم ومغفرتهم لكانت وفرت على نفسها وعليهم العار والانتحار فهل رأيت كيف ان مسامحة الخاطئ ترجعه في اكثر الاحيان الى حظيرة العفة والشرف كما ان احتقاره او اضطهاده يوقعه في مصيبة اعظم من التي هو فيها ؟ هذا اذا كانت الخطيئة غير مقصودة وعلى كل حال فالالطف خير من العنف في امور كهذه وقد قال السيد المسيح ،، اقول لكم انه هكذا يكون في السماء فرحٌ بخطيئة واحد يتوب اكثر مما يكون بتسعة وتسعين صديقاً لا يحتاجون الى التوبة ،، ولكن وحشية نفس الانسان تقف حاجزاً فيما بينه وبين الرحمة والرافة . وعندي انه اذا كان الحق ارضياً فالصفح سماويٌّ مهبطاً كانت الذنوب

— انك تتكلمين عن المرأة الامريكية وليس عن البدوية

— ،، وهل من فرق بينهما ؟ ،،

— فرق عظيم ياسيدي هو ان الاولى ،، سيّدة ،، والاخرى

،، أمة ،،

— ،، ان هذا منتهى الظلم لان كل نفس من الله حرة

وكل ما يلزم للمرأة لتكون فاضلة هو مادة شريفة في نفسها
تصقل بالتهذيب الحقيقي فتصبح مرآتها في الحياة لان المرأة التي
لا تصون نفسها لاجل نفسها — لا يقدر على صيانتها رجل
— ولكن المرأة العربية لا تقدر على تولي شؤون نفسها
بنفسها من اجل ما هي عليه من الجهل فضلاً عن كونها تحت
سلطة الرجل

— (بجدة) : ولكن لم لا تعلم؟ لم لا تهذب؟
— (بأسف) : ذلك لان الجهل لا يزال غشاء كثيفاً
على أكثر ابصار الرجال والجهل عدو المرأة الاله لانه يسوغ هضم
حقوقها بدون نخس ضمير
— اذن المرأة العربية منحطة الى درجة قصوى . افلا تفضلين
عليها المرأة الامريكية؟

— لا أعلم اذا كنت قادرة على التعميم لانه يوجد فئة
من نساء امريكا تأتي في أعمالها من ضروب الخلاعة والشرور
على كونها متهدبة ما لا تقدر أن تأتي بمثل بنت العرب على ما
فيها من الجهل فلذلك اصبحت افضل الجهل النافع على العلم
الضار لان الحرية في يد الشريرة كالسلاح في يد الطفل ولكن
المتهدبات من نساء الامريكان هن اعظم نساء العالم على الاطلاق
لانهن "النساء الحقيقيات"

— لقد اصبحت يا عزيزتي فارجوك استئناف حديثك العذب

* الفصل العاشر *

— ١١ لما ابتليت بالحب صرت رحومة —

اخبرتكَ عن قصة مسعودة المسكينة وكيف انها كانت
مثلي من جهة الميل الى الحضري بسرعة ولكن اعجب كيف ان
الرجل عاش معها شهوراً على أتم السعادة دون الاقتكار بما
حدث بعد ذلك من طرده لها وعارها وموتها
وما لبثت هذه حالة الحب التعيس فان الحب في عين
المحبيب جنة غناء فيها الزهور الجميلة والورود الشائكة وفيها
الحيوانات الاليفة منها والمفترسة لكن عين الحب عمياء عن القبيح
بصيرة بكل مליح فانها ترى الورود ولا ترى اشواكها وتطمع
في مداعبة الحيوانات الاليفة وتغفل عن المفترسة الضارية وقد
فاتها قول شاعر الفلاسفة

١١ ولا بدّ دون الشهد من ابر النحل —

والنتيجة انني لم اذق لذة الكرى تلك الليلة وكأن ذلك
الفارس كان في حدقة عيني فحقت من اطباق جفنيها عليه . وفي
تالي الايام خرجت مع حسن وكنت اشعر باتقباض نفس مثله
تماماً فجلس هو على حجر وانا على آخر ووضع كل منا رأسه على

يده واطلق الافكاره العنان في الجهة التي يقصدها
فكان لسان حال حسن ينشد ،، ما اقربك مني وابعداك
عني ،، فهو كان يفكر فيّ وانا افكر في الفارس وعلى مثل هذا
قضيئا بقية ذلك الاسبوع

وكان على حسن مسحة من الجمال وهو ذو شجاعة عربية وذكاء
فطري بحيث انه لورني في المدارس لكان جاء آية في الذكاء والبلاغة
ومن خصائله انه كان يلحظ الشيء ويشعر به قبل حلوله او حال
حلوله ولهذا فقد داخله ريب من امري ففي اواخر ذلك الاسبوع
قال لي وقد طفح كيل صبره ،، اخشى ان تكوني متعذبة القلب
مثلي ،،

فاجبته ضاحكة او متضاحكة ،، انني لست مجنونة مثلك
لاترك للاوهام سبيلاً الى قلبي فضلاً عن انه لا يوجد ما يعذبني ،،
فقال متممراً: لا تزالين تدعيني مجنوناً وتدعين حيي لك
جنوناً فالخدر من ان يحل بك مثل هذا الجنون! اذكري قول
شيخ المحبين :

،، فلو احببت لم تلم ،،

فجاء كلامه كسهم نفذ في قلبي فابطل نبضاته ولما لم اجب
استأنف الحديث قائلاً ،، اظن ان افكارك ليس فيّ — بل
في ذلك الفارس الغريب الزيّ ،، — ومن يلوّمك فستان ما بين
حضري نبيل مثله وبدوي حقير مثلي ،،

وكان كلامه يشف عن حقد واعتقاد فحقته جلاً لان ١١،
تحت ابطه مسلة نخزه ١١ فالجئت الى الخداع توصلاً الى غايتي وهرباً
من اذى حسن فقلت ١١ لا تحتقرني يا حسن فمن هو ذلك الفارس
لا تفكر فيه ؟ ان تفكري كان فيك وحدك لان همك يهمني
وحزنك يحزنني ١١

ومع ان لهجتي كانت تصنعاً لا تخفى على ذكي مثل حسن
فقد صدقها ١١ دلالة على ان العاشق المسكين يتعلق بحبال الهوى
ومتي وثق بمن يحبه يترك كل حذر جانباً ١١ فخدجني ببصره الخاد
وقال بلهفة وقد ابرقت اسرته فرحاً ١١ احقيق ما تقولين يا فاطمة ؟
هل افتكرك كان في ؟ ١١ فاجبته ١١ نعم كنت فتكر فيك ١١
فاقترب مني متبلاً وقال ١٠ . اذن لقد ذهب طيف ذلك
الفارس من مخيلتك ١١

فرجف قلبي من كلامه وقلت له ١١ ما الذي يدعوك الى
ذكر ذلك الفارس الغريب وهو الان بعيد عنا بعده عن افكارنا ١١
فتفرس عندئذ في وجهي تفرس الخطاف وقال بأمل ١١ قولي
انك تحبينني يا فاطمة ١١

قلت ١١ احبك يا حسن حباً ليس اعظم منه سوى حب
والدي ١١ فابتسم بسرور يمازجه بعض الالم ولكنه رضي باقراره
هذا وبعد سكوت دقيقة قال متاعماً
١١ وستكونين زوجتي ١١

فارجعني كلامه الى صواني وقلت له موبحة ،، ألم تعذني
بانك تبطل ذكر حبك هذا لي ؟ انك اخي يا حسن وانا لا اقدر
ان افكر فيك بغير هذا الفكر

فنزل كلامي كصاعقة على قلب المسكين دكت صروح
الآمال التي كان قد شيدها له 'كلامي الاخير وبعد سكوت
عميق قال بحزن ويأس ،، اذن لقد كذبت بقولك ان افتكارك
كان في " "

فاجبته : انني اقدر ان افكر فيك لغير هذا الموضوع
،، قال هذا الموضوع والا فلا " "

فقلت له مستخفة ،، فلتكن ارادتك في امر يسرني جلدًا " "
ثم تركته متظاهرة بالغضب وجعلت اجمع ضمة من زهر
جميل كنت احب رائحته وانا بالحققة غير مستخفة حب حسن
كما اظهرت له ' لانني كنت بدأت اعرف ما يقاسيه من اجلي اذ
بدأت اعرف ما اقاياه انا من اجل غيره

الفصل الحادي عشر

كهربائية الفارس تقوى على كهربائية فاطمة

١١ يا غافلاً عن حركات الفلك نبهك الله فما اغفلك

وكان التقادير شئت ارسال الفارس في ذلك الوقت الحرج
فبينما انا مكبة على الزهور اقتطفها سمعت وقع حوافر جواده التي
كان قد الفها سمعي فصرت اعرفها فالتفت الى جهة الصوت واذا بي
ارى الفارس ذاته مقبلاً نحوي وقد مر من امام حسن فلم يتبه
هذا اليه لانه كان مطرقاً وهو غارق في بحور همومه وهو اجسه .
فلما وصل الفارس الي رفع قبعته كعادته وحياني ثم مد الي يده
ليصافحني فمدت اليه يداً مرتجفة يردتها الخجل ويدفعها الحب
فكلمتي بابتسام ولطف قائلاً ١١ ان حسن وجهك وحسن ضيافتك
ولذة لبن مواشيك امور تجذبني بكليتي اليك

— على الرحب والسعة .

— اريد ان اطرح عليك سوءاً : من هو ذلك الشاب

منك ؟

— انه اخي .

اخوك ؟ انه غلام جميل ذكي . ثم حول بصره غني هنيئة
وعاد فارجه قائلاً بصوت منخفض . واظنك ذات خدر لا
ذات بعل “

فاطرت حياء وتنفست كلمة ، نعم “ تنفساً
فرأى حيائي فصبر عدة ثوان ثم قال : لقد زرتكما ثلاث
مرات ولم اخبركما عن اسمي ولا انما سألتاني فان اسمي سليم صابر
وكان يتكلم وهو ينظر الى ضمة الزهر التي في يدي فقال —
ما اجل هذه الازهار فهل ينالني منها نصيب ؟

ولم اكن افهم مغازي كلامه بل كنت اشعر بقشعريرة من
كل كلمة فاولته بدون كلام كل ما كان بيدي من تلك الازهار
فاخذها وشمها وتناول منها زهرة فوضعها على الجانب الايسر
من سترته وهو يقول

— سأحفظها ذكراً منك

وكان حسن قد استفاق من غيبوبته وهو يلتفت الى ما حوله
ليرى اين انا فوقع بصره بقتة عليّ وانا اخاطب الفارس
فكأن افعى لسعته فقفز بدون رشد واسرع اليها غاضباً وكان
الفارس ينظر معي اليه وهو قادم فابتسم وقال

— قلت ان هذا الغلام اخوك ؟

— نعم انه اخي

فقال وهو يهز رأسه : انه يفار عليك جداً

وكان حسن قد وصل فابتدره سليم بالسلام فردّ سلامه
 ببرودة كلية وقد اكدّ لون وجهه من وقوع بصره عليه فلاحظ
 الفارس ذلك فيه ولكنه ابتسم وقال

— انا احب ان اراك وارى اختك يا حسن فهل من بأس
 من زيارتي لكما ؟ فاتجهت ببصري نحو حسن وقلبي يكاد يصعد
 الى حلقى خوفاً من جوابه وكان خوفي في محله لأن حسناً اجاب
 ووجهه مثل العبوسة :

— من عادة العرب ان تسأل الضيف عن حاجته بعد
 ثلاثة ايام من زيارته وهذه زيارتك الثالثة لنا فما حاجتك
 عندنا ؟

وكنت انا اسمع هذا الكلام واكاد اتميز منه غيظاً اما سليم
 فظلّ على ابتسامه وقال — حاجة لي غير معادتكما فهل انا ضيف ؟
 وهل زيارتي مقبولة ؟

فقلت انا على الفور ، على الرحب والسعة “
 اما حسن فقال : كلا ان زيارتك غير مقبولة بل هي أثقل من
 الكابوس !

فالتفت الفارس الى وقال مبتسماً : ان جوابيكما على تناقض
 فأيهما اقبل وأيهما أرفض ؟

فقال حسن بنفور وحدة : اقبل جوابي لانه لا سلطة للنساء

عندنا .

وقلت انا بغضب : بل اقبل جواي انا لان هذا الغلام خشن
الطباع قليل المعروف

فارسل حسن الى الفارس نظرة تهديد وقال له : اياك
ومخاطبة هذه الفتاة بعد الان !

فاضطرب سليم وحار في امر حسن ثم نظر الي منعاً لجواي
ولما تلاقي بصرانا شعرت بهزة في بلدي وحي محركة في وجهي
وقلت له

— ارجو ان لا يغيظك كلام هذا الغلام الجاهل يا سيدي
فانا بكل سرور اقبل زيارتك وليس لحسن سلطة علي
فنظر الي حسن وقال : انا اعلم بانه لا سلطة لي عليك ولكن
هل نسيت ان لك والدًا له كامل السلطة عليك ؟

وكنت لذلك الوقت لم افكر بامر والدي فلما سمعت ذكره
خفت وسكت فنظر الفارس الى ساعته وقال

— لقد تأخرت عن الوقت ويجب ان اذهب لكنني لا
احب مغادرتكما على هذه الحالة من الحصار بسبي فارجو ان
اراكما في الزيارة التالية على وفاق تام

قال ذلك وهو ينظر الي بدون ان يعبر حسناً التفاتاً ثم مد
يده الي فصاحتها وانا اكرر عليه الرجاء ألا يعتاظ من خشونة
حسن فابتسم وقال لي هامساً

— ارادتك وحدها تهمني

ثم امتطى جواده وذهب مسرعاً وبصري يشيعه وهو من
وقت الى آخر يلتفت الى ورائه الى ان غاب عن الابصار

* الفصل الثاني عشر *

— تحذير حسن لفاطمة —

ولما اختفى الفارس عن بصري حولته الى حسن وقلت له
غاضبة

— ما الذي دعاك الى مفاجأة ذلك الرجل الغريب يا أحمق
— لا نبي ابغضه ولا أعلنّ معه أكثر مما فعلت اذا رجع الى
هذه الارض .

— انك لمجنون وليس على المجنون حرج
— انت هي المجنونة اذا كنت تمهدين سبيل الزياوة لهذا
الرجل الغريب عنا ديناً وجنساً

— واي بأس من زيارته لنا ؟ انني اسرّ بها ولا سيما بعد
ان اظهرت انت هذه الوقاحة له والاحتقار لي
وكأن المسكين هالته لهجتي وخشي ان يوءدي التنافر بيننا
الى مالا محمد عقباه فقال بصوت مخلص صادق

— انا اعمل على مصلحتك يا فاطمة . انا احامي عن شرفك .
وقد نسيت الان نفسي لاجلك فلا تغضبي علي لانني مخلص
فضحكت منه وقلت متهمكة وانا اشعر بصوابية كلامه
لا ارى موجبا لكل هذه الغيرة الوهمية
— بل ان الضرورة ماسة

— وما برهانك على هذا يا مجنون ؟

وكانت هذه هي المرة الاولى التي استعملت بها هذه الالهجة
لمخاطبة حسن فأثر كلامي في قلبه فبكى ثم قال
— ناديني بما شئت من النعوت الميمنة فلا يمكنك ان
تزحزحيني خطوة واحدة عن موقف المدافع عنك حتى الموت
لاني هنا لاذود عن شرفك بكل مالي من القوة
فقلت متهمكة : انني لا احتاج مساعدتك ايها البطل فكثر الله
خيرك

فقال بكل تأثير وانفعال : فاطمة ! فاطمة ! ارجو ان لا تنهاوتي
في هذا الامر فان زيارة هذا الفارس مضرة بك وبكل
عشيرتك . انك لا تزالين برعما جميلا بين اوراق العفة والشرف
والذي اراه ان هذا الحضري ينوي ان يشر من حولك كل
اوراقك ويفتح قلبك قبل اوانه فيذهب جماله المنتظر فاحذري !
وكنت ارتجف من عظته وقلبي يضطرب ولكنني وطلت
العزم على رفض كل نصائحه والضحك منها فضحكت الان من

نبوءته الاخيرة حتى حي و طيس غضبه فذكر انني امرأة وانه رجل
فنزعه عنه كل لطف المحب اذ قال بلهجة الامر

— انك تضحكين اليوم ولكنك ستبكين غداً عندما —

— كفائك تهديداً ثقيلاً مثلك لا محل له !

— ليس كلامي ما يتهددك بل زيارة ذلك الفارس

فرغ صبري وقلت له غاضبة: دع عنك ذكر الفارس يا حسن

فقد اقلقتني صراخك على لا شيء اذ من هو ذلك الفارس

لتخيفني منه

— انه لا يحسب شيئاً الان ولكنه سيصير كل شيء

فيما بعد

فاجبت بغضب ماذا يقصد ان يصير ؟

— لا اقدر على لفظ الكلمة لانها تحرق شفتي

— والا فاقول ان لا تلفظها لانني كثيراً ما سمعت كلام

المجانين

و بعد سكوت طويل اردت معرفة مقاصد حسن من نحوي

فقلت له بلطف

— ماذا تقول لوالدي عند رجوعك الى البيت وربما

تشكوني اليه ؟

— ومن قال انه يشكوك ؟

— انت قلت

— انني قلت ذلك فوراً ولكنني لا اشكوك الى والدك مالم
تزد المسألة أهمية

— اذا شكوتني شكوتك . وانا اضرك اكثر مما تضرنني لان
دعواك عليّ وهمية اما دعواني عليك فجوهريّة و بذاك امنعك عن
مرافقتي حتى عن مخاطبتي

ولكنك اقسمت انك لن تبوحى بسري

— ان بحت انت فربما حملني ضعفي على ان ابوح وانت
تدري ضعف النساء من جهة كتمان الاسرار . وانه في مثل هذه
الاحوال لا يكتفى السرّ غير البهيمية .

فسكت وذهب ليجمع الماشية لترجع الى الحظائر . وبقيت
انا واقفة مكاني افتكر في سليم وكأن ابي وحسن وكل شخص
او شيء آخر في العالم قد ذهب من مخيلتي الا هو وكانت
كلمته الاخيرة لي ترن في اذني فقلت في نفسي : احقيق ان
رجلاً عظيماً مثله تهمه بدوية حقيرة مثلي ؟

ولم اكن اعرف اذ ذاك ان كل امرأة جميلة يهتم لها حتى
اعظام الرجال ولكن المسألة هي : الى اي درجة يكون والى كم
يدوم هذا الاهتمام ؟

فقالت آليس : هذا هو أهم شيء يجب ان تفكر فيه المرأة

✽ الفصل الثالث عشر ✽

— وطنية الأمريكية —

وكان الطفل اراد ان يريح والدته من عناء قصتها بعض
الراحة فصرخ من السرير فاضطرت ان تسرع اليه ،، باول
صديق “ للانسان وهو لبن امه

اذوق حلاوة الالوان طرّاً وانساها لذكرٍ تُديّ أمي
وفيا كانت فاطمة ترضع ولدها نظرت آليس الى ساعتها
وقالت للبدوية .

— لقد دنا وقت العشاء يا فاطمة ومع ذلك فشوقي لاستماع
كامل قصتك يكاد يقتلني .

— ارجوك السماح لي بتناول الطعام في هذه الغرفة لانني
استنكف من الذهاب الى غرفة المائدة بحالي هذه واعرض نفسي
لأسئلة اهل القصر

— مبتسمة — لا يوجد في هذا القصر احد غيري وغير

الخدم .

— متعجبة — اين باقي الاسرة ؟

— أنا الاسرة بكاملها .

— وهل تسكنين في هذه الدار العظيمة وحدك ؟

— نعم يا عزيزتي لانني احب الحرية ولم امدّ رجلي قط
لغير قيد ابوي

فقالت فاطمة متفسسة الصعداء : ،، أتاأبين قيد الزواج
ايضاً ؟

— نعم يا عزيزتي لان قيد الزواج اذا لم يكن مصنوعاً
من فولاذ الحب يكون اثقل القيود على الاطلاق .

— ولكن من انواع الحب ما لا يصلح قيداً لمن يطلب الراحة

— لا يوجد استقلال مطلق يا فاطمة الا اذا كان استقلال

النفس عن كل نفس سواها وهذا من المستحيل وعليه يجب
ان ننظر الى نوع التيد الذي يقيدنا هل يناسبنا مادة وقطعاً
وفوق ذلك يجب ان يكون الخضوع له عن رضى تام لترتاح اليه
النفس .

— نعم لو لم يكن ذلك ،، الرضى التام ،، نفسه سبب
متاعب كثيرة .

فاصعدت آليس زفرة اذ قالت : صدقت ولكن ما لا يجلبه

الانسان على نفسه مختاراً وعن معرفة لا يلام عليه

فتأوهت فاطمة بشدة جعلت طفنها يفلت ثديها من فمه وينظر

الى وجه والدته مستطلعاً حالها وكان جرس العشاء يقرع اذ ذاك

قالت آليس

— هلمي بنا الى غرفة المائدة وكوفي مطمئنة وعلى ثقة من انه لا يراك احد سوى خادم المائدة وهو شيخ فاضل له في خدمتنا مدة طويلة وهو لا يكاد ينظر الى وجوه الضيوف

دهش بصر فاطمة وهي مارة في ممر ذلك القصر الفخم الى غرفة المائدة ومع عظم اضطرابها وحزنها لم تتمالك ان نظرت باستغراب الى الارض المفروشة بالطنافس الثمينة والجدران المزينة بالصور البديعة والسقوف المنقوشة بآداب هندسة واجمل صنع وعجبت لاتقان السلم المصنوع من خشب الكايلي الاصلي

وكانت غرفة المائدة طولها خمسون قدماً في عرض خمسين وفي وسطها مائدة من خشب الجوز الثمين وكراسي من نوعها وعلى جدران الغرفة قد نقشت صور الطيور والفواكه بانواعها وفيها خزانة قدرت انها تحوى على ما يزيد ثمنه عن عشرات الوف الدولارات من البلور والصيني والاواني الفضية والذهبية

وكانت هذه الغرفة تطل على الحديقة وظلل الورود مشتبكة فوق نوافذها ترسل عبيرها ليمتزج مع نكهة الطعام الشهية ويزيد في الاكلين الشهوة فخيّل الى فاطمة انها في بيت من بيوت الاربعمائة وان مضيفتها سيدة من الوريثات الامريكيات الشهيرات .

ولم يدخل تلك الغرفة سوى خادم المائدة الشيخ الذي

ذكرته آليس وهذا لم يرفع نظره اليها قط فقد كان مهتماً بعمله
الخاص

وحينما شرعنا بتناول الطعام قالت آليس لضيفتها
- ان الطعام ضخم هذه الليلة وقد امرت ان يكون كذلك
لاجلك لانك لم تتناولي طعاماً اليوم اما عادتنا نحن الامريكان
فهي ان نأكل وجبتي الصباح والمساء خفيفتين جداً ووجبة
حدها ثقيلة لان مناخ بلادنا لا يساعد كثيراً على الهضم

— ان مناخ بلادنا يساعد على هضم الصوان

هذا ما اعرفه عن مناخ لبنان وسوريا

— وهل زرتهما يا سيدتي؟

— نعم يا فاطمة انني زرتهما مراراً وشاهدت كثيرات من
نساء البدو الجميلات ولكن كل من شاهدت منهن كنّ موشومات
بحيث اني ظننت الوشم خلقة فيكنّ لعدم خلو احداهنّ منه اما
انت فلست موشومة

— انني لم اطق الوشم ولم ارغب فيه لكونه من الازياء
القبیحة .

— ما اقبح هذا الزي الذي يشوّه الجمال

فشعرت فاطمة باحتقار من كلام آليس واجابتها مبتسمة

— ولكن ارأى ان هذا الزي يستعبدكن اتنّ نساء

الامريكان مع انكن تستعبدن اقوى البشر اعني الرجال

فلحظت آليس ان فاطمة تأثرت فقالت : ليس قصدي لوم
 نساء البدو وحدهن فانهن لا يلمن في الخيام على اتباع الزبي
 كما تلام اخواتهن ربات القصور على ,, عبادته ,, فان المرأة في
 هذه الايام قد جعلت ,, فينيس ,, الرجل وليس ,, مينارفا ,, فهل
 تعرفين من هي فينيس ومن هي مينارفا ؟
 — ليس بالمعنى الواضح

— ان الاولى هي الالهة الجمال التي اضاع شبان اليونان
 عقولهم امام تماثيلها الباهر والثانية الالهة الحكمة التي خرب حكماءهم
 وفلاسفتهم سجوداً تحت قدميها . فالمرأة الامريكية تدعي حب
 الثانية وتعبد الاولى ولذلك فكثيرات منهن قد اهملن عقولهن
 خدمةً لوجوههن

فقالت فاطمة وقد وجدت للكلام مجالاً . ولكن المثل
 يضرب بتهذيبك وعلمك انتن نساء الامريكان
 فاجابت آليس مفتخرة : حقيق ما تقولين ولكن الظروف
 قد اعطتنا كثيراً ويجب ان يكون لنا اكثر مما لنا الان مما
 ذكرت .

— وهل من زيادة لمستزيد ؟

— اظنك لا تفهمين كامل معنى كلامي يا فاطمة فانا اتكلم
 عن المرأة الامريكية عموماً وليس عن الامريكية الحقيقية التي تعد
 من ارق نساء العالم وهي موجودة في كل الطبقات لأن العلم متوفر

لنا في هذه البلاد واذا وجدت المادة في نفس الفتاة يعظمها العالم
فمعظم حاجتها مهيا تكن حقيرة ولكن قولي ،، المرأة الامريكية“
يعني نساء الجوالي المتعددة في امريكا ايضاً من كل من تعيش
تحت راية العلم سام

لان كل من دخل بلادنا وتجنس بجنسيتنا اصبحت له كل
حقوقنا فان آباءنا واجدادنا لم يخلقوا هذه الارض بل وجدوها
مخلوقة لهم ولكل من يجي بعدهم . وهذا التساوي وان يكن
غير مطلق فانه بالغ اقصى حد

اراني قد شططت عن حديثي الاول فكأن لفظة “امريكا“
تطلق السنننا بالثناء عليها فلتحي بلادنا ! - بلاد العدل والحرية
والمساواة

والآن فلنرجع الى حديثنا الاول . ان نساءنا قد تطرفن
في امر الازياء تطرفاً نتج عنه قبح وقباحات كثيرة فان اكثر
نساتنا اليوم قد ضلن طريقهن امام تمثال فينس كما ضل اليونان
قبلهن .

فقات فاطمة بحماسة: ولكن هل تظنين الذنب عليهن ام على
الرجال ؟

— ان الذنب ذنبهن . فالرجل يا عزيزتي يجب ان تكون
المرأة جميلة لاجل نفسه والمرأة تحب ان تكون جميلة لاجل الرجل
لهذا وجب عليها ان تعلم بان جمال الجسد زائل واذا ارادت

تربط الرجل بقيود الجمال ربطاً دائماً يجب ان تعني بجمال نفسها
 اكثر من جمال جسدها لانها ان اهتمت الاول لاجل الثاني
 تخسر الاثنين كليهما والرجل يفوز عليها ضاحكاً
 فتنهت فاطمة ووضعت سكينها وشوكتها معارضة فوق
 صحنها علامة انتباهها من الطعام وقالت :
 — ان اقوى النساء هي التي اما تتغلب على ميل الرجل واما
 تقدر على مجاراته في كل وقت

﴿ الفصل الرابع عشر ﴾ *

— صعود اول درجة من سلم الحب —

(وعش خالياً فالحب راحته عناً واوله سقم وآخره قتل)
 وبعد تناول الطعام ذهبت المضيعة والطفل الى البهو فجلست
 المرأتان متقابلتين وآليس محدقة في فاطمة التي كانت تمر نظرها في
 تلك القاعة التي لو لم تكن قد رأت مثلها بعد ما تركت المضارب
 لظنتها من صنع الجان .

وبعد ان اطلقت فاطمة لطفلها حرية الدب على ارض القاعة
 حسب اشارة آليس نظرت الاولى الى الاخرى بتأنٍ وقالت :

— ان حب الجمال طبيعي في كل انسان والرغبة في اللذة هي ميل كل نفس فانك اذا مررت بحديقة ملاءى من الزهور لا بد من ان يقع نظرك على زهرة منها تحسبها اجمل ما في تلك الحديقة فتتزعج اليها نفسك وتودين الحصول عليها من كل قلبك ولكن اذا اعترضت ارادتك موانع فانك تقدمين على احد امرين : اما انك تدوسين على تلك الموانع وتذللينها اذا امكن واما انك تتركين الزهرة وشأنها وفي فؤادك للصحول عليها حسرة . فانا قد رأيت سليماً تلك الزهرة والشعور الطبيعي موجود في نفسي مثلما هو في كل انسان وقد عرفت الموانع التي تعترض سبيلك ولكنني تبعت ارادة نفسي وتبعت ميلها ودست كل الحقوق والمواجب للاسترسال في صداقة الشاب

ذلك لأن عين الصبا الرمضاء ارتني حبه زهرة احببت قطفها من حديقة الحياة والجملي لم افكر قط في ما قبل الوصول اليها وبعده من المتاعب

ومضت علي تلك الليلة بدون نوم وانا افكر في شقرة شعر الفارس وزرقة عينيه ولطف حديثه — وحسبت نفسي زنبقة قد وجدت لتثبت في ارض قلب حسن المسكين الذي كنت ارى مثله كثيرين حولي ففضلت الغريب على القريب — وكل غريب الشكل مرغوب

ولم اصدق ان بزغ الفجر فتمت من نومي ولشدة دهشتي

وجدت حسناً مريضاً بالحُمى ولا يقدر على الذهاب معي ولكنه
كان يلحّ عليّ والدي ان يذهب مكانه معي ولكنني اقنعت
والدي بعدم الذهاب لانني قادرة على رعاية الماشية وحدي بدون
مساعدة ولما انعم والدي بالقبول تغطى حسن بالحاف الى ما
فوق رأسه وسمعته يتنهد من اعماق قلبه ولم اسرّ يوماً بحياتي
كذلك اليوم حتى انني لعظم سروري نسيت ان آخذ معي
طعاماً . فكنت امشي وراء غنمي اترنم وهي تسير بانتظام امامي
كأنه يسرها ترنمي

ولما وصلت الى السنديانة جلست تحتها اعدّ الدقائق واحسبها
دهوراً وعيناي تكادان تطيران من وجهي تلتفتاً قرّ نصف ذلك
النهار كالحلم ولم اسمع وقوع ١١ حوافر جواده . “ فطارت نفسي
شعاعاً حتى صرت كالغائب عن الوجود .

فكنت تارة التفت نحو الطريق التي اعتاد المجيء منها
وطوراً اصعد قمة مرتفعة لعلّي اراه آتياً عن بعد فخاب املي
وشعرت بان قلبي يتقطع وان دقائق نفسي تتدافع بعد ان كانت
متجاذبة متضامة

ثم نهضت من مكاني واخذت اجمع من زهور الحقل ولا سيما
من اخوات تلك الزهور التي ناولته بعضها والتي اصبحت اعزّ
الزهور لديّ بعد ذلك وكأن تفاؤلي يجمع تلك الزهور كان
حسناً لانني نلت مشتهى نفسي اخيراً من استماع وقع حوافر

الجواد التي اصمني عن سماعها اذ ذاك خفقان قلبي المتزايد فوقفت
مكاني كالتمثال انظر اليه وهو يسرع نحوي وينظر اليّ ايضاً
ولما انتهى الى حيث كنت ترجل بسرعة وقال:

— ارى فاطمة الجميلة بانتظاري ولكن اين هو حسن . انني
لا اراه ؟

قلت له مضطربة — انه مريض .

— مريض ؟ اذن لا اقدر ان امكث معك وانت وحدك
هنا . فهنا ترين ياسيدي ان الرجل استعمل طريقة ، انا حواء
فانه اراني تفاحة قربته الشهية واراد ان يختبر مقدار تشوقي الى
الحصول عليها فسأل ما سأل اما انا فلم اجب اضطراباً وخجلاً
ولكنني شعرت كأن احداً ينتزع قلبي من صدري . اما هو فقال
وكأنه ذكر قول الشاعر

لا تسأل المرء عن ضمائره في وجهه شاهد من الخبر
مالك لا تجيبين سؤالي هل اقدر ان اقضي بعض الوقت
معك وحسن غير موجود ؟

قلت بتلعجج . نعم تقدر اذا اردت ذلك
فابتسم واقترب مني وتناول يدي فضغطها بلطف وقال .
— لو لم اكن اريد محادثتك لما كنت اقصد زيارتك .
ثم اجتنب يدي فمشى وفي يده اليمنى زمام فرسه وفي اليسرى
يدي او بالحري زمام قلبي الى ان وصلنا الى ظل السندريانة

فربط الفرس في جذعها وجلسنا تحتها والماشية حولنا لا تنظر إلينا
ما سوى العشب امامها كما اننا نحن لم ينظر احدنا الا الى
الآخر.

* الفصل الخامس عشر *

— المرأة البسيطة بازاء الرجل العالم —

و بينما نحن نأكل نظر اليّ بعطف وقال :
— هل انت سعيدة يا فاطمة ؟

اجبته : نعم اني سعيدة لان صحتي جيدة ووالدي يحبني
فابتسم وقال ما اطهر قلبك . انك قنوعة تظنين ان الصحة
ومحبة والدك هما كل السعادة ومن يلومك ؟ فانك شبه سجينه
في هذه البرية .

فتنهدت وقلت له : ولكن هذه البرية جميلة والسكنى فيها
مريحة .

— قال نعم لمن كانت مثلك لم ترَ غيرها ولكن يوجد
جمال في عالم " يحسب جمال هذه البرية عنده قبحاً لو رأته
خدقت فيه وقد نسيت انني اخاف النظر اليه — وكطفل

اخبر بشيء وهو يجب اتمام الحديث قلت له: وماذا تسمي ذلك العالم .

— له اسماء كثيرة ولكن الاسم الوحيد الذي يحضرني الان هو "امريكا" . ثم اخذ يقص عليّ وانا منذهلة قصص امريكا وما فيها من العجائب والغرائب والمال والجاه والعظمة والجمال فكنت احسب ان ما ذكره تعجز عنه الجن فضلاً عن الانس ولو اخبرني بذلك غيره لما صدقت كلمة واحدة وكنت عند استماع كلامه اطيّر بجناحي املي في سماء العظمة والغنى والسعادة التي ذكرها فلحظ ذلك فيّ فسرّ كثيراً لسروري ثم قال بعد سكوت قصير: ولكن مع كل ما ذكرت لك بشأن امريكا فاني افضل عليها هذه البرية المتفجرة لسبب واحد فقط اما انا فاما اني فهمت معنى كلامه او انني شعرت به ولم افهمه — لا أعلم — وكل ما اعلمه هو ان دم الحجل صعد الى وجنتي حالاً فاطرقت حياء فقال لي:

— مالك مطرقة . ارفعي بصرك اليّ !

فرفعت بصري والاحمال تلاقى بصرانا فشعرت كأن سهماً خرج من ناظره ونفذ في قلبي فصرعني تحت قدميه لا اعي — الى ان قال :

— قلت لك ان امريكا محط رحال آمالي وشوقي الى السفر شديد ولكن جمالها لن يكون سوى التبع متبعساً اذا خلفت

ورائي من هو اجمل منها — اذا تركت فاطمة .
 فاضطربت وقلت له باستغراب : انا ياسيدي ؟
 — نعم انت . ولست شيئاً صغيراً عندي انت يا فاطمة
 العريضة .

وهنا توقفت فاطمة عن اتمام الحديث وقالت لا ليس : ان مصائبي
 قد عذبتني وعذابي قد اكسبني الخبرة والفهم فلانسان في اعتباري
 ثلاثة اطوار في حياته هي خلاصة تلك الحياة وجوهرها . فالاول
 هو حينما يكون محباً ومحبوباً بشرف وطهارة فانه اذ ذاك ينوق
 طعم السعادة حلوّاً لا تشوبه مرارة . والثاني اذ يكون حبه غير
 شريف فانه يكون كمن يحاول ان يهدم بناء سعادة سواء ليبتلي
 على اقتاضه سعادة نفسه فيجني سروره ناقصاً مهما كانت نفسه
 حيوانية لان كل شيء ينتصب في وجهه لمقاومته . والثالث هو
 الوقت الذي فيه يميل المرء على ان يحرم نفسه سرورها لكي يسرّ
 السوى . ففي الاول يعيش الانسان عيشة خيالية سعيدة دائمة ثابتة
 لان وسائلها متينة وفي الثاني يعيش عيشة مضطربة قلقة زائلة .
 وفي الثالث يعيش عيشة عمومية شريفة نافعة لان الذي يحرق
 نفسه ليضيء على ابناء جنسه يكون حبه للخير العام عظيماً ومتى
 ضحى الانسان ، ذاتيه ، او ، انانيته ، يصبح بكامله منارة
 تضيء على اخوانه في الجنس وسعيداً يكون ذلك الجنس بمقدار
 تلك المحبة وقوة صاحبها

اما انا فاذا قال سليم كلمته الاخيرة كنت في حياقي الخيالية —
 في سعادتي الحقيقية — فاخرستي سورة هذه السعادة وملأت
 قلبي فامسكت عن الجواب ولم اشعر بسوى انني محبة محبوبة
 وان حيي شريف محلل . اما هو فلما رأى سكوتي عرف ما
 يخامر قلبي فقال:

— وليس هذا فقط فاني مستاء من وجودك في هذا
 المكان لانه لم يخلق لك ولا هو بالوطن اللائق بك على حدة
 قول الشاعر.

وما وطن الانسان غير الموافق

وما اهله الاذنون غير الاصادق

فتصوري يا سيدتي حالة بدوية لم تر من الدنيا غير المضارب
 والماشية وهي بين يدي رجل قد رأى وسمع واختبر — وفضلاً
 عن كونها مسحورة بالفاظه تائبة في يدهاء غرامه فهل تقدر ان
 تكون غير أكرة يلعب بها ذلك الرجل كما يريد ويرمي بها في
 الجهة التي يختارها؟ فويل للمرأة الجاهلة التي تحب الرجل العالم
 الا اذا رفق بها واعتدل معها . ولما رأى سليم فوزه علي وكيف
 ان قنابل كلامه قد دكت حصون ذلك القلب الضعيف دكاً قال
 وفي كلامه رنة الاخلاص والشفقة :

— نعم انا اشفق عليك يا فاطمة لانك خلقت لتكوني

وردة تلتذ بمنظرها العين ويتعش بتأشيقها القلب وليس شوكة

تداس بالأقدام القاسية • ليس هنا مقامك يا فاطمة الجميلة بين
المضارب ومهما قلت انك سعيدة فلا اصدقك

فقلت مكررة : بل انا سعيدة بمحبة والدي لي
فابتسم وقال : ان محبة والدك لك ثمينة جداً ولكنها ليست
السعادة بكاملها كما تتوهمين فيجب ان تعرفي شيئاً عن هذه
الارض التي تسكنينها

— واي ارض تعني • انني اعرف مدينة بعلمك والقرى المجاورة
لها فضحك وقال : مسكينة انت ما ابسط قلبك • انك كزهرة هذا
الحقل بنقاوة قلبك فان هذه المدينة (ما عدا قلعتها) يفضلها شارع
واحد من شوارع المدن التي اكملك عنها واحب ان تربها
فقلت له بلبهة المتعجب الآمل : واين هي وهل هي بعيدة
من هنا ؟

— متى بعدت عنها مسافة يوم يبتدي اولها فتصبح امامك
سلسلة متصلة الحلقات كل واحدة منها امتن واجمل من التي قبلها
فقلت متنهدة : يا الله • هل هي بهذا المقدار قريبة ولم يتسنَّ
لي ان اشاهدها !

فابتسم ابتسام الظافر وقال : ومن اين لك ذلك وانت في
اسر الطبيعة الجامدة ؟

وعند هذا الكلام سمعت صوتاً من ورائنا يقول
— اذهب من هنا ايها الرجل اللئيم فانك تفسد هذه

الارض الطاهرة بما تقذفه من الكلام وتزعزع هذه النفس
النقية بما تبثه فيها من الافكار الفاسدة الرجسة

فرجف قلبي خيفة لعلمي ان الصوت صوت حسن والتفت
فاذا به واقف وراء الفارس ووجهه تعلوه صفرة الموت. اما الفارس
فاظهر عدم الاكتراث واراد اتمام حديثه فانشقت مرارة حسن
غيظاً فرجع الى الوراء بضع خطوات ورفع بيده حجراً كبيراً واراد
ان يضرب الفارس به فيشج رأسه فوقفت بينهما جازعة ووقف
سليم ايضاً فقلت لحسن بغضب:

— ارم الحجر من يدك !

فقال وشفته تترجفان: ما دام هذا الرجل واقفاً هنا فلا ارميه
الا على رأسه اما اذا ذهب فاني ارميه على الارض
فرفعت عيني بتوسل الى سليم وقلت له متضرعة :

— ,, ارجو ان تذهب يا سيدي لان هذا الغلام مجنون "

وتفجرت ينايع عيني بالدموع

فقال سليم مبتسماً لا يمكن للمجانين ان يفرقوني عنك

فاعدت قائلة : بالله عليك اذهب اكراماً لحاطري .

فقال بلطف اذن اذهب اكراماً لك فقط وسارجع

نهار غد .

فما اجب على كلمته الاخيرة لا سلباً ولا ايجاباً لان الامر ين

يزعجاني بل تركت التقادير تجري مجراها ونظرت اليه وهو

يَتَطَيُّ جَوَادَهُ وَقَلَّتْ لَهُ وَالِدَمْعُ مِثْلًا عَيْنِيَّ ،، بِحِرَاسَةِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ !“
وَأَنَا أَحَاوِلُ تَهْدِئَةَ رَوْعِي بِقَوْلِ الشَّاعِرِ

دَعِ التَّقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَمْنِهَا
وَلَا تَنَامَنَّ إِلَّا خَالِيَ الْبَالِ

* الفصل السادس عشر *

— حسن مرخص —

وَكَانَ حَسَنٌ لَمْ يَزَلْ وَاقِفًا مَكَانَهُ وَالْحَجَرُ فِي يَدِهِ وَقَدْ شَخَصَتْ
عَيْنَاهُ فِيَّ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ آيَاتِ قَلْبِي عَلَى وَجْهِهِ فَأَقْتَرَبَتْ مِنْهُ وَقَلَّتْ
لَهُ وَأَنَا ارْتَجِفُ مِنَ الْغَضَبِ

— ماذا أردت أن تفعل ؟

— أردت قتله ولا أزال أريد أي وقت رجع إلى هنا .

فقلت له مهددة

— إذا قتلته فسأعدي قوي على الأخذ بثأره .

فضحك متمرراً ضحكة الألم وقال :

— ها . ها . ألم أقل لك أنك تحببته فأنكرت ؟

انني لا احبه ولكن من العار على العرب الكرام ان تقتل
 ضيوفهم ولا يثأرون لهم وهم مشهورون بحماية الضيف والوفاء
 — انا من اولئك العرب الكرام واريد قتل ذلك الحضري
 اذالم يرتدع عن غيه فالحشرة المضرة في الارض يقتلها البستاني
 لثلاث تعلق بزهوره فتفسدها وانا هو ذلك البستاني ومن حتي ان
 احافظ على زهرة جميلة قد اعتنت بها وسقيتها بدموع عيني
 — ان العرب تتبرأ من غلام جاهل غبي مثلك كما اني
 انا اتبرأ من حمايتك واما الحضري فهو اشرف منك في كل شيء
 فاصعد زفرة ظننت انها قد شقت صدره عند خروجها
 منه وقال :

— أواء يا فاطمة ان العرب سوف تحسرك كما خسرت
 مسعودة

قال هذا واتقلب راجعاً الى البيت اما انا فتأججت نار
 الغضب فيّ فودعته بقولي :

— اخرس ايها الوغد ولا تهني بمثل هذا الكلام .
 وقبل ان يغيب عن ناظري كررت عليه قائلة : اياك ان
 تخبر والدي بما رأيت وسمعت ! اما هو فداوم المسير دون ان
 ينظر الى ورائه .

وبعد مضي حسن شعرت بالوحدة والوحشة والاضطراب
 فكنت كأنتي ما بين ماء مثلج ونار مضطربة من الخوف من

والذي وحسن من الجهة الواحدة وحيي لسليم من الجهة الاخرى فكانت النار تضطرم في احشائي ثم تعود فتخمد الى ان راقت افكاري فرجعت الى حيث جلست مع الحبيب اتناول من تلك الحلوى التي كان حديثه وقربه الذّ منها طعماً وهكذا فاني رأيت صورة اضطراني بعيني ولم المسها بيدي فلم اشعر بشيء حسيّاً وهنا توقفت فاطمة عن متابعة حديثها واصعدت من صدرها زفرة مهدت سبيل هذه الجملة فقالت:

— لعن الله ما يسمونه حباً يا سيدتي فهو اقوى الاشياء واضرها احياناً . فتنهدت آليس دلالة على ان ذلك السلك الذي مسّ قلب فاطمة كان قد مسّ قلبها ايضاً وقالت :

— ليس الذنب على الحب ذاته يا عزيزتي فاطمة فالحب اجمل واعظم والذ الامور وهو اجمل هبات الخالق لنا بل هو روح الله لان الله كله حبّ وانما البشر يسيئون استعماله فيتحوّل بهم عن مجراه الطاهر فاحرى بك ان تلومي الناس لا الحبّ ثم استأنفت فاطمة حديثها فقالت : اما انا فلم اقدر على البقاء في تلك البرية فرجعت الى البيت قبل حلول وقت الرجوع الاعتيادي فوجدت حسناً التعيس يتقلب على فراش المرض وقد اخذته حمى محرقة تشويه شيئاً . فشعرت في قلبي بحزن عظيم ولبكنني اظهرت له النفور والغیظ . وكان والذي وامراته من الناس البسطاء فلم يفهما معنى نظرات حسن المحرقة ولا نظراتي

الحادة ونمت تلك الليلة براحة فكر في حين ان حسناً كان يتقلب
على فراش الالم وكنت كلما أقمت من نومي اسمع صوت أنينه
وزفراته المتصاعدة اذ لم يكن يفصل مخدعه عن مخدعي سوى
حاجز من الشعر وقد حزنت عليه الى حد انني هممت بالدخول
الى مخدعه لاجل تمريره وتسليته لكنني خفت ان يكرر على
مسمعي عبارات حبه الباردة فامتنعت

ولما اصبح الصباح استيقظت من نومي ومرت بجانب فراش
حسن عند خروجي فسألته عن صحته فاجاب

— انني على بعض الراحة

فجلست بجانبه وقلت له بعد ان جلست يده

— انك تحتاج الى طبيب

فقال متبسماً متمروراً : وماذا يقدر ان يفعل الطبيب ؟

— يداويك فتشفي

فنظر الي والدمع ملء عينيه وتنهَّد ثم قال : ان الطبيب لا
يدفع مقدوراً ولا يرد محذوراً

فلما رأيت دموعه همرت دموعي ايضاً ولكنني حولت بصري
عنه ومسحتها فسمح هو دموعه وقال لي :

— ان طبيبي واحد ولا قدرة لغيره على شفائي

— دع عنك هذه الهواجس يا حسن فهل جهلت مكانك ؟

فالتفت الى ما حواه مذعوراً وقال بذل : أجل . لقد جهلت

اين انا ولكن يا فاطمة هل تنوين الذهاب الى المراعي فلا احتاج
فانظر قلبي من لهجته المحزنة وعلمت بان ذهابي :

زيادة في مرضه وكنت اشفق عليه من جهة ومن جهة اخرى
اخافه فاتخذت الحداغ درعاً يقيني الامرين معاً وقلت له باسمه
— كلا . انتي لا اخرج اليوم اذا كنت لا تريد ذلك ولكن

لا بد من ذهابي الى المدينة لاحضرك طبيباً
فقال وقد ابرقت عيناه أملاً وسروراً لا . لا . لا تتركيني

فانا لا احتاج الاطباء مادمت بجانبي
— اطرده هذه الاوهام عن مخيلتك فانا اريد شفاءك

العاجل لنرجع الى ما كنا عليه قبلاً
فرفع رأسه بضعف عن الوسادة واقرب مني . وهمس في
اذني قائلاً :

— والفارس ؟

— دع عنك ذكره فاني قد طردته فلن تراه فيما بعد .
فارجع حسن رأسه الى الوسادة ووضع يديه على عينيه وتهد
من اعماق قلبه ولا شك انه صدق قولي لانه كان يثق بي كثيراً
كما يثق بنفسه .



الحادثة وفد

على :

* الفصل السابع عشر *

— في ظل اعمدة القلعة —

(اذا المرء لم يغلب هواه أقامه)

بمنزلةٍ فيها العزيزُ ذليلُ)

صدق حسن حيأتي في امر الاتيان بطبيبٍ وانا في الحقيقة
 احببت النزول الى المدينة ليس لاستقدام الطبيب لحسن فقط
 بل لاجل مقابلة سليم والاتفاق معه على رأي
 وبعد ان قضيت بجانب حسن هنيهة نسي في خلالها اوجاعه
 نهضت من مكاني فقال:

-- الى اين ؟

— لاقول لوالدي ان يسرّح الماشية اليوم وانا اذهب مع
 رابتي الى المدينة فاساعدها على بيع اللبن وعند رجوعنا احضر
 لك طبيباً

وكان حسن يجهل ان الفارس في المدينة ولما درى بانني
 غير ذاهبة الى البرية التي ظنّها المكان الوحيد للملتقانا ظن الخطر
 قد زال فقال ليرضيني

— اذهبي الى المدينة اذا شئت ذلك واما انا فلا احتاج طبيباً وعند رجوعك تجدني انتي قد نلت تمام الشفاء مسكنة تلك رابتي البسيطة القلب ! لما قلت لها ان مرادي زيارة صديقة لي ثم اعود اليها لم تبد اقل مقاومة بل ذهبت في سبيل شغلها وانا ذهبت في حال سبيلي

وكان سليم قد اخبرني بانه ضيف في دار احد رفقاءه في الدرس وكنت اعرف موقع تلك الدار فالتجيت نحوها لعل اراه . وقبل ان وصلت اليها رأيت فارسين قادمين نحوي فحقق قلبي الذي قد امسى الخفوق من عادته لمراى اى فارس كان الا ان خفوقه في هذه النوبة لم يكن باطلاً لان سليماً كان احد الفارسين المذكورين يصحبه احد اصدقائه فتجاهلت عن معرفة حبيبي واتخذت طريقاً تؤدى الى القلعة المشهورة ومشيت . فهل تعرفين قلعة بعلبك يا سيدتي ؟

فاجابت آليس نعم لقد زرتها مرتين وهي احدى عجائب الدنيا السبع القديمة ولا ازال اذكر قول احد رفاقنا اذ ذاك : ،، عجباً كيف ان اولئك الاقوام السذج كانت لهم هذه البراعة في الهندسة ؟ فاجابه احد دارسي التاريخ قائلاً ،، ان اولئك الذين تدعوهم سذجاً انما هم من جملة الذين وضعوا اساس التمدن الذي تفخر به اليوم ،، قالت فاطمة . وصات وجلست في ظل عمود قائم وقد تهدم نصفه ولم يزل

علوهُ شاهقةً وكان الفيظ بالغاً من نفسي مبلغاً عظيماً لظني أني
خسرت مقابلته ولكن لم يمض على جلوسي أكثر من ربع ساعة
حتى سمعت صوته اللطيف يناديني قائلاً :
— ماذا اتى بك الى هنا ؟

وذعرت واضطربت ولم اكء التفت اليه حتى كان قد اصبح
جالساً على الحجر يجاني فقلت له بصوت مضطرب :

— انت أجبرتني على المجيء
فقال باستغراب : انا ؟ انني كنت على اهبة الذهاب الى
زيارتك فلما رأيته استغربت امرك واستعدرت من رفيقي وتبعتك
الى هنا لاعرف سبب مجيئك

فاخبرته بكل ما جرى واردف ذلك بقولي والدمع يتخلل
كلامي :

— وقد اتيت لاتوسل اليك ان لا تعود تذهب الى ذلك
المكان .

فقطب حاجبيه وقال . ولماذا ؟

فقلت لانني اخاف ان يبطش حسن بك واخاف على نفسي
من اهلي اذا دروا بالامر .

فقال بصوت مرتفع . يبطش بي حسن ! أو است رجلاً
كحسن ؟ ان خوفك من هذا الامر يعدّ جبانة اما خوفك من
أهلك فمسألة فيها نظر .

فقلت وانا مطرقة • انت تعرف عادتنا نحن العرب • اذا
 درى بامري اهلي فرما يقتلونني فضلاً عن انفضاحي بينهم
 فسكت عند ذلك وجعل يفكر وسكت انا لسكوته وبالْحَقِيقَةُ
 فان ماقلته لم يكن خامر فكري بل كان حيلة توصلي الى
 سرغور افكاره • وبعد سكوت عدة دقائق رفع بصره اليَّ
 وقال بخشوع :

— إذن قد اتيت لتمنعيني عن زيارتك ؟

— نعم

— منعاً بآتاً ؟

فلم ادر بما أجيب فسكت عن الجواب فقال :

— لم تعرفي بعد الغاية من زيارتي لك يا فاطمة • وانا اريد
 ان اطلعك عليها فان حبي لك هو الذي يحملني على زيارتك
 وهذا الحب يهون عليَّ كل صعب اذا رأيت فيك ميلاً الى
 تأييده •

فتسارعت نبضات قلبي حتى فاض منه بعض الدم الى وجنتيَّ
 واذا رأى انني لم اجب تناول يدي بين يديه ونظر في عيني ثم
 قال وهو يرتجف اضطراباً •

— هلاًّ تحبينني يا فاطمة ؟

فاطرت وانا لا ازال صامته فقال :

— قولي ان نعم فنعم وان لا فلا وتنفق على رأي فيه

خيرنا وسعادتنا فقلت بصوت منخفض • وهب ان جوابي كان
 ,, نعم “ فاهو رأيك ؟

قال : رأيي ان يتحد جسدانا كما قد اتحدت روحانا •
 فارتعبت من كلامه الذي ارجع اليّ قوتي وقلت له بجرأة :
 ان هذا المستحيل لما بيننا من التباعد •
 فابتسم وقال : وأي تباعد ؟

— التباعد الجنسي والديني فهل ذهب عن فكرك انك
 حضري واني بدوية وانك مسيحي واني مسلمة ؟

فضحك وقال ثانية : ألا جواب عندك على سوءالي يا فاطمة ؟
 فلم يسعني الا المجاوبة اذ ذاك لان الكلمة كانت تدفع
 نفسها الى الامام في صدري او ان حرارة قلبي كانت تدفعها
 فقلت بنوع من الدلال : ,, نعم احبك “

فقال بجذل : هذا هو مذهبنا وهذا هو جنسنا فلا تباعد
 فيما بيننا اذن لان الحب اعمل عامل على التقارب على الارض
 فضلاً عن كونه اقوى وامتن رابطة دنيوية

وقد كنت الى ذلك الحين لم افكر في الامر من وجهه
 العمومي لان حبنا ابتدا في وسط الطبيعة الحالية من كل بشر
 سوانا انا وهو وحسن وهذا الاخير لم يكن يهمني وجوده • ومن
 تلك الدقيقة ألقت الطبيعة في قلبي ما اوجد موضوع افكار
 لرأسي • كنت قبل لا هم لي سوى تيقني حب سليم لي واما

الآن فإمامي مسألة الامومة (قالت ذلك والتفتت بكل حنو
الى طفلها الجميل الذي كان يلعب بجانبها) .

وكانت يدي في يده وحرارة حبه تسري منها في كل عروقي
فشعرت بان روحينا تتآخيان وتتضامان متمزجتين كأنهما حقيقة
قد اصبحتا روحاً واحدة لا تقبل الانفصال ومع اني كنت
ارى كل شيء يقاومنا ويعمل على انفصالنا لم اقدر ان اقول له
,, لا أحبك ,, لان وراء هذه الكلمة ما يعينني كما ان وراء كلمة
,, أحبك ,, ما يرعبني فطفقت ابكي بكاء مرّاً بهدوء وسكينة
فقال لي وهو ينظر اليّ بانعطاف .

— مالك تبكين كأنك مظلومة او تعيسة ألم يكن الحب
للقلب منعشاً والنفس مسلياً فالحب وحده السعادة التامة ان
كان من سعادة في هذه الحياة . كثيرات من بنات جنسك
يا فاطمة قد ضحين السعادة على مذبح إله الحب اما انت فسوف
تضحين التعاسة لاجله فلم البكاء يا حبيبتي ؟

ان حي لك سوف يرفعك ولا يحطك . انا احبك يا عزيزتي
بكل قلبي وبكل عواطفني وهذا الحب الصادق يحملني على
تخليصك مما انت فيه فخرام يا فاطمة ان يكون جمالك الرائع
كزنبقة تثبت في البرية . ومن الظلم الذي يؤلمني ان ارى جسمك
الناعم ملتقاً بهذه الاطمار وفوق كل ذلك فانه من التعاسة والخسارة
ان يكون عقلك الذي التابل للتقدم والرقى عائشاً فيما بين

المضارب حيث يبقى في دائرة من النموّ محدودة لا يتعداها .
 فيجب ان تنمي هذه اليد التي ارسلها الله لخلاصك — يد
 الحبّ الشريف — جمال وجهك بالاعتناء به — وجمال قامتك
 بالباسك الملابس النفيسة اللاتمة بمثله وجمال نفسك باطلاقه من
 عقال الخرافات والعبودية والجهل الى بستان العالم الزاهي ليكون
 من اجمل ازهاره واشهى اثماره فيجب ان اظهرك يا فاطمة لهذا
 العالم بصورتك الحقيقية — يجب ان تحصيلي على حقوقك الطبيعية
 والاجتماعية — فهل تودين ذلك ؟

* الفصل الثامن عشر *

— ما اصدق الكلام لو عمل به —

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه
 وليس عليه ان تتم المطالب

وكان كلامه قد أثر في نفسي تأثيراً شديداً فصدقت بأن
 كل كلمة قالها قد كتبت حروفها بمداد الصدق والاخلاص
 وطارَت نفسي شوقاً الى النعم التي وصفها لي وكفى بجهه نعمة
 عظمى ليس اعظم منها عندي فقلت له وقد تجرأت قليلاً :

— اني اريد ذلك من كل قلبي لو كانت الناس والشريعة
تريدانه . فابتسم وقال : انت هي كل العالم وحبك هو شريعة
عندي .

ثم رفع يدي الى فمه وقبلها بجمرة فشعرت كأني ملكة
وهو خادم وجذبها منه بجمل وسرور واضطراب غير عالة اذ
ذاك ان ١١ بوس الايادي ضحك على الذقون “ اما هو فقال :
— حينما ينوي القائد الذهاب الى الحرب عليه اولاً ان
يضع رسماً دقيقاً لحركاته من هجومية ودفاعية وهكذا انا اذا
لم ارسم خارطة ارض قلبك وامياله وحركاته امام عيني فكري
اقدر على اقتحام المخاطر بمعرفة واختبار . فهل تثقين بي ؟
— اكثر مما أثق بنفسي لانك اعرف بالامور مني .

— هل تتكلمين عليّ ؟

— اكثر مما اتكل على ذاتي لانك اقوى مني

— وهل تستسلمين لي ؟

فوجف قلبي لهذا السؤال وقلت له بانسحاق قلب :
— انني بكليتي لك ولكنتي اهبك الان ما ليس لي اذ
اني لست لذاتي .

فخلق فيّ وقال مضطرباً : ولما انت ؟ لقد اربعبتني
يا فاطمة .

فقلت ان لوالدي نصف الحق فيّ ولديني النصف الآخر

وانا صريعة حبك بينهما فوالدي لن يرضى باقتراننا وديني لا يسمح لي به .

فضحك وقال ان الفتاة متى بلغت سن الرشد لا يعود لوالدها عليها سوى حق الحب والاكرام فقط اما امر الدين فقد قلت لك ان ,, الحب الصادق “ يجب ان يكون دين قلبينا اما روحانا فهما لله تعبدانه بحسب ارشاده لهما .

فاضطرب قلبي وقلت له : وماذا تعني بقولك هذا ؟

— اعني ان كل ما هو ضروري لنا انما هو اتحاد غير قابل الانفصال وهو ,, الحب “ هذا من جهة الزواج واما امر العبادة فكل منا يعبد خالقه على حسب النعمة الممنوحة له . ومع اعتقادي ان المسيحية هي الدين الوحيد القادر على جمع العالم كله الى حظيرته فاني اترك لضميرك وعقلك وارادتك ورغبتك حل هذه المسألة دون ان اعارضك في امر — فمن اين لي انا بنت الطبيعة والبساطة والجهل ان اعارض كلامه اذ ذاك ؟ واما لو كنت في حالي الحاضرة من العلم والاختبار لكنت قلت له ان رباط الحب يكون شديداً الى درجة معلومة ووقت معلوم وفي ظروف معلومة ولكنه ينحل مع مرور الايام ولا سيما اذا كان امر انحلاله طبيعياً من اعتقاد الناس ومقاومة الشريعة . فاذا كان الحب وحده في الحقيقة يربط المرأة بالرجل والرجل بالمرأة فاذا حل احدهما من ذلك

الرباط لامر فلا يعود يربط نفسه مختاراً الا في النادر واما اذا كان هذا الرباط عينه مشدداً بقوة الشريعة من دينية ومدنية فلا يقدر المرء ان ينفلت منه ولا يرى الانفلات سهلاً فلا يسعى اليه . وكل ما قدرت ان اجيبه به عندئذ كان قولي :
— ان كلامك يخيفني .

— ولم ؟

— لان انفصالنا من زواج او " اتحاد " كهذا يكون سهلاً .
— ولكن يا عزيزتي ان زواجكم انتم المسلمون ليس اشد رباطاً من هذا الزواج والظلم يقع فيه على رأس المرأة التاعسة وحدها فالرجل يطلقها اي وقت شاء واما هي فلا تقدر على تطلقه . وله الحق ان يمرمر حياتها باكثر الضرائر في حين انها هي مضطرة الى الاتقياد الاعمى له مرغمة الانف الى ان يميل الى غيرها فيطلقها . فهل هي غير متاع يباع ويشترى ؟ اغير أمة هي وهذا شأنها ؟ فاتحادنا اذن احسن واصح لاني اكون به لك وحدك .
وطالما انت عالمة بمقدار حيي لك فلا لزوم لان اكرر عليك القول ان تركي لك يعني تركي لروحي وحياتي وسعادتي —
افتكري بهذا .

— ان ما تكلمت به هو سبب الآمي فاني اعرف هذا الامر كما تعرفه انت ولكنني لست ارى اتحادي واياك على هذه الصورة موافقاً لاني اذا شعرت بانك لست لي في نظر الله والناس

اموت موتاً • ولذلك فاحب ان يكون زواجنا شرعياً غير قابل
الانفصال إراحة لبالي •

— اذن تتكلم عن يد كاهن مسيحي •

فقلت بقلق ظاهر : اذن يجب ان اتبع دينك ؟ فاجاب
بعد تفكير قليل

— اما من جهتي فاني على يقين من انه ' لا حق لي ان
اضطرك الى اعتناق ديني على ما يري من الشوق الى ادخال
العالم باسره تحت لوائه ولكن ما العمل وانت ترومين زواجاً
دينيّاً لا انفصال له ؟ ' أليست هذه هي الطريقة المثلى ؟

وكنت قد وصلت الى دور الاستسلام فقلت له يأس
انتي لا ادري بما اجيبك فانت تعرف كل شيء وانا لا اعرف
شيئاً •

— اذن سلّمي كل شيء لارادتي وثقي بانني لا اظلم روحي •

— انا لك روحاً وجسماً فدبر ما تريد لان الحياة بدونك
هي الموت والموت معك هو الحياة •

— ان هذا وحده لا يرضيني فاريد فوق ذلك ان
تكوني انت سعيدةً مسرورة •

فوضعت رأسي على كفي واخذت في البكاء لشدة الانفعال
فطوّق عنقي بذراعه ومسح دموعي بمنديلته وهو يقول —
١١ لا أعوّضك من ماء السعادة قلّةً فائضةً لكل واحدة من

هذه اللائىء المتساقطة من عينيك الجميلتين“ .
 وكان قد طال جلوسنا فاخبرته بأمر والدتي وخوفي انها
 ربما فتشت عني فيفضح امرنا فقال :
 — اذن اذهبي الآن وسوف انتظرك هنا نهار الاحد
 المقبل حيث تقرر كل شيء نهائياً .
 ولما هممت بالنهوض قال ويدي لا تزال في يده .
 — ألا تسمحين لي بقبلة تكون كختم ابدي لمقاصدنا ؟
 فلم اجبه بل ابتعدت عنه ونظرت اليه من بعيد نظرة
 جعلته يتسهم ويرضى . وكنت امشي والتفت الى الورا فأراه
 لا يزال مكانه يتبعني ببصره الى ان تواريت عن العيان
 رجعت الى المدينة فوجدت رابتي (خالتي) على وشك
 العودة فحملت معها بعض الاوعية ورجعنا الى البيت فوجدت
 حسناً قد ارتاح من مرضه وفارقه الحمى .
 واتقضى ذلك الاسبوع وانا اعاون حسناً في رعي المواشي
 مسرورة جذلة مما عاق بذهني من الامل المقبل وحسن مسرور
 بسروري وهو يظنه قياماً بوعدني له
 ولم يذكر لي حديث غرامه كل ذلك الاسبوع الى ان كان
 اليوم الاخير منه يوم السبت اذ قلت له :
 — لا آتي معك الى هنا نهار الغد يا حسن .
 فقال مستغرباً : لماذا ؟

— لانني عزمْتُ على المضي الى المدينة .
 فعبس وقال : ظننت انك شكوت التعب من المشي حين
 ذهابك الاخير .

— ان التعب لا يهمني كثيراً عند مشاهدة بعلبك كل
 يوم احد .

وكان لهجتي اخافته بدون علمه فأكمد لونه ونظر في
 الارض حزينا وقال :

— كلما نويت على الذهاب الى مكان ما احسب انك
 لن تعودى منه .

فتضاحكت وقلت له :

— كنت احسب انك نسيت مثل هذه الأوهام الباطلة

فقال متنهّداً : يا ليتني اقدر على النسيان !

فتركته وذهبت عنه خوفاً من إطالة الحديث اذ كنت
 اخاف محادثته خوفاً شديداً .



* الفصل التاسع عشر *

— قلب المرأة —

ولا أوخرُ شغلَ اليومِ من كسلٍ
الى غدٍ انَّ يومَ العاجزينَ غدُ
وفي اليوم التالي وهو الاحد خرجت من الحباء فوجدت
والدي ورأيتي قد انتبيا من حلب الماشية وحسنًا قد اخرجها
من الحظيرة وهو واقف ينتظر خروجي فدنوت حتى وقفت
بمراى منه فما وقع بصره عليّ حتى اشرقت شمس السرور على
وجهه الحنطي اللون وقال مبتسمًا:

— عمي صباحًا يا فاطمة .

فرددت تحيته يشاشة جعلته ان يقترب مني ويهمس في
أذني قائلاً :

— متى رجعت من المدينة لا تنسي الذهاب عند حسن
المسكين .

فوعده خيراً وكانت الماشية قد تفرقت فأمره والديه

بالذهاب العاجل فركض مسرعاً بعد ان رمى فؤادي بنظرة
خارقة أو نبلة حادة نفذت فيه كالسهم لانني كنت ارحم حسناً
المسكين واعرف عظم محبته لي .

وصلت الى ذلك الحجر الذي جلست عليه منذ اسبوع
وكان وصولي في الوقت ذاته صباحاً فدام جلوسي عدة دقائق
كنت فيها الاحظ ظلال بعض الاعمدة وقد اخذت بالابتعاد
لتخلي للشمس مكانها وكانت الشمس تتهاذى بمشيتها
وتحتال كالعروس وهي ترسل من اشعتها ابتسامات الظفر بتلك
الظلال المنهزمة من امامها انهزام الجبان من امام الجبار القوي .
وشعرت بخوف زائد فوق شوقي الى روعية الحبيب وذلك
لان المكان كان خالياً من الناس ولم يمرّني طول وقت
جلوسي احد حتى سمعت وقع خطوات سليم الخفيفة فرجع اليّ
بعض نشاطي لولا ضعف قلبي من زيادة خفقانه .

وكان يقترب نحوي باسم الشجر ويدهضمة من الزهور الجميلة
وعليه بدلة نفيسة رمادية اللون كانت أكثر مناسبةً لقده الجميل
من كل ما كنت رأيت عليه من الملابس فلم اتمالك ان التفت
الى ثيبي وتنهدت اما هو فجلس بجانبني وناولني تلك الزهور
قائلاً :

— مررت بدار احدي صديقتي فوجدتها في الحديقة تقطف
الزهور فناولتني هذه الضمة التي اتيت بها اليك لانها اختك

في البهاء والجمال والعبق .

فشعرت بغيرة من تلك المرأة ولا سيما لقوله انها ،، صديقة “
وتناولت تلك الزهور منه وادنتها من انفي وشممتها وهو ينظر
اليّ ثم قال :

— هل عولت فاعلمتي على رأي ؟

— كلا يا سيدي لان مادة آرائي مصدرها انت .

— (مبتسماً) : وهل افكرت في اقتراحي جيداً ؟

— واي اقتراح تعني ؟

— (مازحاً) ألم تزالي تتجاهلين ؟ اعني اقتراح اقترانا .

— ويلاه ان هذه الكلمة تخيفني جدّاً .

— لماذا ؟ ألا تريدان هذا الاقتران ؟

— بلى اريده من كل قلبي لان حياتي فيه ولكنها حياة
تدنيني من الموت وجلاً .

فضحك وقال : انني لا الومك لان هذا من تأثير الضعف

الجنسي .

— قد يكون ذلك ولكنه ضعف اقوى من قوتي .

فاخذ كلتا يدي بيديه وقال وهو يضغطهما :

يجب ان تشجعي يا فاطمة المحبوبة فانا اعرف بان
لا حياة لك بدوني كما انه لا حياة لي بدونك اذ اننا قد خلقنا
احدنا للآخر منذ الازل وما جمعه الله لا يفرقه انسان وقد

سمت نفسي مرآك على حالئك الحاضرة من الذل والظلم كما
انها سمت الصبر على فراقك فيياً بنا يا حبيبتي نذهب ونخل
هذه الدار تنعي من بناها .

وكان اول كلامه ماء زلالاً على قلبي تغير له لون وجهي
ورقصت منه عواطفي فلما انتهى الى آخره اتقبض قلبي وقلت
له بهيئة المتدلل :

والى ابن يكون ذهابنا ؟

الى امريكا . الى بلاد العظمة والاخاء والمساواة التي
اخبرتكم عنها .

ولم يتم كلامه حتى سمعت صوت والدتي تناديني من
وراء جدار هناك فانتزعت يدي من بين يدي سليم بلهفة
وقلت له راجفة : هذه رابتي تناديني لانني اخبرتها بانني اكون
في هذا المكان فارجوك الاختفاء لثلاث تراك .

فتناول يدي وأدناها من فم بسرعة قبلها وقال :

— لا تنسي ان تكوني هنا في الاحد القادم

فأشرت برأسي علامة القبول وركضت الى حيث رابتي
وقلبي يكاد يشب من صدري حباً واضطراباً وسعادة

وكان رجوعنا ظهراً واذا بلغنا المضارب لم اقدر على
المكوث هناك بقية النهار لانني كنت اشعر كأن تلك الحيام قد
اصبحت لي سجنًا يجب ان افر منه الى البرية الواسعة

فذهبت الى حسن وحين اقترابي من مكانه وجدته جالسا
على صخري غني اغاني محزنة ويبكي

فانفطر قلبي عند روءيته ولكن ذلك القلب الذي كان قد ملأه
رجل واحد سرورا لم يكن فيه الان حيز يملأه رجل آخر حزنا
فبعض النساء يقدرن على تضحية كل شيء في سبيل من يحببن ولو
كانت التضحية غير جائزة وظالمة ولكنهن لا يضحين شيئا لاجل
من لا يحببنهم وان تكن التضحية واجبة وهنّ منقادات لهذا
بسلطة الحب القوية . وقد تكون هذه العاطفة في المرأه سبب
اعظم تعاسة لها في غالب الاحيان

اما انا فع انني كنت من هذه الفئة وكنت قد اصبحت
بكليتي لسليم فقد كانت لم يزل لي قلب يحب حسنا معجبة
اخوية ويشفق عليه فأكدم لروءيته على تلك الحالة لون وجهي
لان حزنه وحديثه كانا دائما يرسمان امام ناظري ذنبا عظيما
يزول كل اثر له وانا في حضرة سليم

اما هو فلما رآني مقبلة مسح دموعه بمنديله ونهض من
مكانه لملاقاتي وهو باسم الثمر محمر العينين من البكاء
فقلت له بلطف ما بالاك تبكي يا حسن ؟

— كنت ابكي على غيابك

— لقد أتيت الان

— وانا تركت البكاء

— اذا كان غيابي هذه المدة الوجيزة يبيك فكيف
لو غبت عنك الى الابد ؟
فنظر الي نظرة اخافتني ونبهتني الى غلطي الفظيع وقال —
متحسراً :

— اذا حدث مثل هذا الغياب فاني ابكي عليه في الابدية
ولكن ما معني كلامك القاسي يا فاطمة ؟
ورأيت من الواجب عليّ رتق ما فتقت فاقتربت من
حسن ووضعت يدي على كتفه وقلت له مبتسمة
— اعني اذا متّ لانه لا بدّ من الموت

فابتسم وقال : ان الموت لا يسمى غياباً لانه لا يفرقي
عنك وانا قادر على اللحاق بك الى دنيا اجمل من دنيانا هذه
اما اذا تركتني حيةً فانتني ذاهب الى تلك وحدي
بعد هذا جلسنا على حجرين متقابلين فكان هو يدنيني من
حديث غرامه وانا ابعده عنه تارةً بتغيير الحديث وطوراً
بالتوبيخ وهو لا يتذمر لانه رأيّ مسرورة وقد جهل سبب
سروري

وكانت الشمس تقترب من سطح البحر وانا انظر اليها
او اخالها تسرع في سيرها شوقاً الى لثم ثغره الذي كان متجهماً
نحوها مبتسماً بارقاً أو انها هي قد اعارته من نورها نوراً . واما
نحن فحين رأيناها آخذةً برمي خيوطها الذهبية اليه وهي كأنها

تسلمه يدها ليجتنبها أخذنا بالتأهب وجمع الماشية للرجوع
وعلى هذه الحالة قضيت الايام المقبلة اخرج مع حسن واحاول
خدعه وهو مسرور بعدم مجيء الفارس الينا الا ان شيئاً في
داخله كان يوحي اليه انني اجتمع بالفارس في مكان آخر (كما
عرفت بعد حين) .

اما انا فقد كان قلبي يتقطع ليوم الاحد وكنت احسب ايام
الاسبوع دهوراً ولا اكثر لها لان يوم الاحد وحده كان
من ايام حياتي

* الفصل العشرون *

التسليم المطلق

وقل من جدّ في أمرٍ يحاوله واستعمل الصبر الا فاز بالظفر
ولما اتى ذلك اليوم السعيد سرحت شعري وغسلت وجهي
وارتديت أنظف ثيائي واجملها وكل ما كان عندي من الحلي
متشبهةً بالحضريات ما امكن

ولما اقتربنا من المدينة رأيت ان ابتدع حيلة لأتخلص من
رأبتي فقلت لها : ان بعض الاغنياء اوصائي على دلو من اللبن

فيجب ان آخذه له وهو يسكن في اطراف البلدة
ربما لا ترجعين في الوقت المعين وانا مضطرة الى الرجوع
العاجل اليوم

اذا رجعت ولم اجدك فاني اعود الى البيت برقة بعض
الجات

— اذهبي واجتهدي ان توءوي حالاً
— نعم (وانا لا اصدق اني حصلت على هذه الفرصة)
وصلت هذه المرة فوجدت سليماً بانتظاري ولم ادر وقد
صارت يدي بين يديه وهو يقول :

— لقد صرفت اشغالي وانا على استعداد للسفر في هذ
الاسبوع فهل انت كذلك؟ فاسرعت نبضات قلبي وانفجرت ينابيع
دموعي ولم ادر بما اجيب فقال:

— الا تزالين مترددة؟ ألم يقر رأيك على امر بعد؟

— انت تعلم بانتي لا ادري ما افعل

— انا ادري

— وماذا تدري؟

أن نسافر في هذا الاسبوع

فرجعت الى البكاء فأمسك بيدي الاخرى وقال:— ما هذ

البكاء المر يا حبيبتى؟ انه يخرج قلبي فاذا كان في الامر ضعفاً

على عواطفك فأفصحني

— هو عين سعادي وجوهر حياتي ولكن قلبي يوجس
خيفة منه

— كل هذه تصورات وهمية وضعف جنسي • ولا غرو
ذا وهن عزمك وامر الزواج اصعب امور الحياة ولا بد المرء من
الاضطراب حين اقدامه عليه •

وهنا توقفت فاطمة لتأخذ لنفسها راحة فقالت لها آليس:

— اظن حبيبك قصد ان يخذلك

فاجابت كلاً يا سيدتي فان ما يلي من الكلام يبين لك حسن
ظوية سليم ونبالة قصده وصدق اخلاصه فانه احبني للخير لا
للشر • وقد كان يعتقد بان حبه لي شريف وجائز وان الظروف
تساعده والشرعية تعززه ولكن كل امر يستهجنه العموم لا بد
ان يتسلط عليه ليقته داء ان وهما الاهمال والترك • تلك هي
الطبيعة البشرية •

فالانسان قادر على الافتكار في امر يخالف رأي الجمهور
طول حياته ولكنه على الاكثر عاجز عن العمل به طول الحياة •
اذ مهما ظن المرء من نفسه المقدرة على الاستقلال عن بني جنسه
فلا يقدر ان يستقل عنهم وقتاً طويلاً ولا سيما اذا كانوا
يحسبون استقلاله عاراً فيمسي مضطراً نزيع عاملين اما ان
يدعن للرأي العام واما ان يعصاه • وانه وان يكن الامر
الاخير محكاً لعظمة الرجال فان الاول اهون وكثيرون هم

المنضون تحت لوائه

لقد بدا لي وميض برق قصتك ومهما حاول شرف نفسك
تبرئة الرجل فانا اعدّه مذنباً

— انا اعذره لانني اعرفه واعرف الاسباب التي دعت الى
ما فعل

— ان شهادة المحب ١١ مجروحة “ .

فتبسّمت فاطمة لهذه العبارة عن مثل اللاكئ وعادت الى
استطراد الحديث فقالت :

— انا مظلومة تاعسة لا ادري بماذا اجيب ولا ماذا
افعل

— وما هو سبب تعسك ؟

— هو انني ان تركتك لا اقدر على الحياة وان ذهبت
معك وتركت والدي اخاف من العذاب بين اناس لست منهم
وفي بلاد اجهلها فضلاً عن ان تصوري انني اترك ورأيي والدّاً
يقاسي عذاب فراق ولا يعلم محل وجودي بل يحسب ان
عملي عار عليه ينقص عيشه . كل ذلك يؤلمني جداً فاقول
النار ولا العار وكذلك فان حب والدي لي وتعبه في سبيل
تدينتي ليسا مما يقابل بالاجود والكفران ومن الجهة الاخرى ارى
انني لا اقدر على فرائك تحت كل الظروف . افليس من طريقة
تخرجني من هذه المشكلة المزدوجة ؟

فنظر اليّ بشيء من الاستياء وأقلت يدي من يده وقال
بانفة :

— انك عديمة الوثوق بشرفي يا فاطمة والا لما حسبت
ذهابك معي عاراً لا شرفاً مع ان زواج الفتاة شرفها
ولما رأيت انه اغتاض سهل علي ترك كل شيء لاجله
فبسطت اليه ذراعي وقلت متوسلة منادية له باسمه مجرداً
لاول مرة :

— آه ياسليم ! ارحمني ! خلصني !
فتناول يدي وجذبني اليه (وانا ضعيفة لا اقوى على
المعارضة فانطرحت بين ذراعيه أبكي كالطفل وجسمي يرتجف
كالريشة في الهواء) وقال :

— لا خلاص لك ولي الا بالهرب لنجيا. في ربوع
السعادة تحت سماء الحرية فهل تقولين للمرة الاخيرة انك
تبعين مذهبي وتريدين الاقتران بي ؟

اجبت بصوت ضعيف لان في كان فوق كتفه (أجل اريد)
— من كل قلبك ؟

نعم من قلبي وارادتي وعواطفي
فطبع على جيني قبة كانت الاولى التي نلتها من فم
رجل غير والدي وحسن حينما كنت احسب هذا اخاً لي ولكن
الفرق بين هذه وتلك عظيم لان قبة حبيبي شبه ماء بارد الى

كامل جسمي المضطرب هياماً وهذا شيء جديد لا عهد لي به
 من قبل . وبعد القبله اشرق وجه سليم اذ قال :
 انك من الان عروسي المحبوبة . وهذه القبله هي
 الختم الابدي لمقاصدي الثابتة على حبك ياسيدة قلبي وبيتي
 وكل ما هو لي

فأقلت من بين ذراعيه وقلت له :
 قد وهبتك قلبي بكل ما فيه من العواطف الحبية وفوق
 ذلك فدينك ديني ووجهتك وجهتي وانت لي دون كل شخص
 وكل شيء في هذا العالم

* الفصل الواحد والعشرون *

المتناظران

ولم أكد اتم هذه الجملة حتى سمعت صوتاً خارجاً من بين تلك
 الاتقاض يقول بانفعال جنوني
 ليموتن موتاً قبل ان يستطيع نزعك من عشيرتك وأهلك
 ودينك !

فكاد يغمر علي لان الصوت كان صوت حسن الذي

مصادقات

اقترب منا والمدينة في يده مشهورة . يقطر عن شفرتها الموت .
ولما رآه سليم قادماً وهيته تدل على حب الانتقام اخرج
مسدسه وصوب به فارتعدت فرائصي وخفت ان يهرق دم احدهما
من أجلي .

وللحال انطرحت على عنق سليم ابكي واتوسل اليه ان
لا يطلق مسدسه وحسن يقترب مسرعاً وهو يقول :
— اتركه والا قتلتك معه . دعيه يطلق عليّ مسدسه !
فصحت عليه وقلت له :

— حسن . حسن . بالله عليك ارجع الى صوابك ألا ترى
سلاحه نارياً ؟ اقتلني فدى عنكما . فخير لي ان يقال انها
افندت اثنين بدمهما من ان يقال ، لقد أهرق دم زكي بسببها “
فارجع سليم مسدسه الى جيبيه اذ ذاك اما حسن فكان لا
يزال مكانه ومديته مسلولة . فقال لي سليم بكل لطف كأنه
شعر بشديد اضطرابي :

لا تكوني جبانة يا فاطمة فانك من نسل العرب الشجعان
دعيني ابارز هذا الشاب فاما يقتلني واما اقتله . ان لدي مدينة
وساعمله بالعدل

فصرخت بأعلى صوتي قائلة : كلا ! كلا ! بالله عليك اذهب
بحق مسيحك . اذهب !

قال انك تدعيني الى الالتحاف بثوب الجبن والعار

وانا من قوم

تسيل على حدّ الظبابة نفوسهم

وليست على غير الظبابة تسيل

فقلت : لا شك عندي في شجاعتك وبسالتك وحبك
ولكن اسألك باسم الحب الذي هو بيننا ان تذهب من امام الشر
فانا لحسن

فقال : اني لا اتركك وحدك مع هذا الغلام في ساعة
غضبه وانتقامه فصرخ فيه حسن قائلاً :

— انها اختي ايها اللئيم فهل انت احرص عليها من اخيها ؟

فقال سليم متجاهلاً حقيقة الأمر

— ولكنها حبيبتى اذا كانت اختك

فعض حسن شفتيه غيظاً وزمجر كالأسد وخطا خطوة

الى الامام فخفت وقوع الشرّ بينهما وقالت لسليم

بالله عليك اذهب . اذهب اكراماً لي لان في ذهابك خيرك

وخيري

فتكأف الابتسام وقال انك مجنونة فهل اتركك في يدي

هذا الولد وأذهب ؟ اني ان لم ادفع عنك بنفسى وروحي فما

هي حاجتي فيهما ؟

وكان حسناً خاف المسدس فقال لسليم بغضب

— اطعها واذهب وانج نفسك

فَضَحَكَ سَلِيمٌ وَقَالَ : اِنَّ الْجَبَانَةَ تَلِيْقُ بِمَنْ هُوَ عَلَى شَأْنِكُمْ .
فَاعَادَ حَسَنٌ نَصِيحَتَهُ قَائِلًا : اِنْ اَرَدْتَ حَقِيْقَةً اَنْ تَحَافِظَ عَلَى
شَرَفِهَا فَادْهَبْ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ

وَإِيْ ضَمَانَةٍ تَعْطِيْنِيْ عَلَى سَلَامَتِهَا اِذَا ذَهَبْتُ ؟

فَقَالَ حَسَنٌ وَهُوَ يَرْتَجِفُ حَقًّا

— أُمْنِيْ تَرِيْدُ ضَمَانَةً عَلَى سَلَامَةِ اخِيْ اَيُّهَا الْكَلْبُ
الْوَقْعُ ؟

فَاجَابَهُ سَلِيمٌ بِبُرُودَةٍ : اِنَّهَا لِيْ وَلَيْسَتْ لَكَ

فَاضْرَمْتَ هَذِهِ الْجَمْلَةَ نَارَ الْغِيْرَةِ فِيْ قَلْبِ حَسَنٍ فَهَجَمَ عَلَيْهِ
ثَانِيَةً هَجُومَ الْمُسْتَقْتَلِ فَقَابَلَهُ سَلِيمٌ بِالْمُسَدِّسِ

أَمَّا اَنَا فَارْكُضْتُ اِلَى حَسَنٍ كَالْمَجْنُوْنَةِ وَأَمْسَكَتْ يَدَهُ الْقَابِضَةَ

الْمَدِيَّةَ وَقُلْتُ : اقْتُلْنِيْ يَا حَسَنُ قَبْلَ اَنْ تَفْضَحْنِيْ بَيْنَ الْعَرَبِ
حَتَّى فِيْ ذَلِكَ الْوَقْتِ كَانَتْ سُلْطَتِيْ عَلَى الْمَسْكِيْنِ قَوِيَّةً
فَرَمَى الْمَدِيَّةَ حَالًا مِنْ يَدِهِ وَقَالَ :

— سَامِيْهِ اَيُّهَا وَلِيْ ذَهَبٌ . أَلَيْسَتْ ضَمَانَةٌ كَافِيَّةٌ ؟

خَذْتُ الْمَدِيَّةَ وَذَهَبْتُ اِلَى سَلِيمٍ وَهَمَسْتُ فِيْ اُذُنِهِ اَنْ لَا

اَكُوْنَ هُنَا اللَّيْلَةَ “ فَاجَابَنِيْ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ

— اِذْهَبِيْ مَعَهُ وَاَنَا اِرَاقُفُكُمَا مِنْ بَعِيدٍ طَائِفَةً لَا فِكَارِيْ

فَنَشِيتُ وَحَسَنًا وَسَلِيمٌ مِنْ بَعِيدٍ يَلَاحِظُنَا وَهُوَ سَائِرٌ وَحْدَهُ

عَلَى مَهْلٍ وَكُنْتُ اسَارِقَةُ الْبَصْرِ فَارَى عَيْنِيْهِ مَصُوبَتَيْنِ نَحْوِيْ فَيَقَعُ

البصر على البصر على غير مرأى من حسن الذي كان يمشي
مطرقةً كمن أصيب بجنون

ولما اشرفنا على المحلة نادانا سليم وقال:

— قفا قليلاً وانتظراني

فوقفت انا واما حسن فتابع مسيره بدون اكتراث فقلت له
،،قف يا حسن“ فاطاعني ووقف وهو كالسكران لا يلوي على
شيء ولما وصل سليم الينا قال لحسن

قد اطمان بالي من جهة وصول فاطمة بالسلامة ولكن
اريد منك الان ان تعديني بانك لا تذكر لاهلها شيئاً مما جرى
فهزّ حسن رأسه وقال له بكل انفة

— ألعلك أحرص مني عليها وادري بمصلحتها ؟

— ان الذي يحب ينتقم والانتقام اشد من الحب
فنظر حسن اليّ معاتباً ولسان حاله يقول ،، لقد بحت
له بسري “ ثم انتقل ببصره مني الى سليم وقال له

— لقد اخبرتك بكل شيء ولا عجب فالنساء ناقصات
العقل والدين ولكن الانتقام من شأنه ان يكون نزيل صدر كلب
حضري مثلك يحب ذاته أكثر من حبيبه

لا يليق بمثلي ان يجيبك على سفاهتك وقلة ادبك ولكن
هل ترى انك اصدق مبدأ واشرف عواطف مني يا ابن البدو ؟
— نعم لان افكاري طاهرة وعواطفني نقية كالطبيعة التي

ربيت فيها واحببت فاطمة تحت قبة سمائها
 — ولكن فاطمة لا تحبك . قال ذلك والتفت اليّ ليري
 الجواب في عيني فلم يظفر به لانهما كانتا تبحثان في الارض عن
 مكان اختفي فيه تحاصراً من هذا الموقف الحرج الذي اوقفني
 فيه جهلي فإِعد ادرى للتجاة سبيلاً
 فتشهد حسن وقال : انها لا تحبني اما انا فاحبها — احبها
 اكثر من سعادتي ومن حياتي وروحي ولكن ما فائدة فاطمة
 من حب بدويّ مثلي يلبس العقال والقباء ؟ انها من طبعها
 تميل الى الزيّ الغريب ولكل غريب طلاوة الجديد . على انه
 لتأكلن انا ملها اسفاً وندامةً حينما يتحقق لديها ان قلب حسن
 الحقيير ذخر لها من الحب الحقيقي ما هو اشرف واطهر وافيد
 من حب سليم الذي تظنه نبياً
 قال حسن هذا ومشى فناده سليم فلم يلفت اما انا فقلت
 لسليم باضطراب سادّبر الامر ! الوداع ! واسرعت وراء
 حسن



* (الفصل الثاني والعشرون) *

— اقرار فاطمة —

لا ينفعُ الوعظُ قلباً قاسياً ابداً
وهل يلينُ لقولِ اواعظِ الحجرُ ✓

وحينما اقتربنا من البيت وقف حسن مكانه وقال لي :
ألا تعامليني مرة واحدة بمثل ما تعاملينه ؟
فوقفت عابسة وقلت له : ماذا تريد ؟

— اريد ان اسألك للمرة الاخيرة هل تحبين هذا الشاب ؟
وكان اليأس قد بلغ من نفسي مبلغاً عظيماً ومتى يئس الانسان
يحملة يأسه على التهور لانه لا يعود يجد الخلاص ممكناً ولهذا
ترى ان المذنب يصرّ على إنكار ذنبه الى آخر دقيقة من دقائق
الأمل فتى يئس يعترف به ولذلك اجبت حسناً على الفور :
— نعم أحبه

فتنهد وقال : تحبينه ؟ ولا تبالين من العار اذا لم تبالي
بموت حسن الشقيّ
— وايّ عار في الحب الطاهر ؟

اما موت حسن الشقيّ فلا ادري ما الداعي اليه
 — وما هي النتيجة التي تتمنين الحصول عليها من هذا
 الحب ؟

— لا اعلم لانني لم اجبر نفسي على حب الرجل بل يد الله
 اشعلت مصباحه في قلبي فاصبحت عاجزة عن اطفائه
 — تعنين انك تحبينه على ما في ذلك من التعاسة لك
 وله ولقومك ؟

— هذا ما اعني لانني احبه ولا اقدر على ترك حبه
 مختارة

— انت مجنونة وسوف تندمين
 — اذا كنت مجنونة فلا احد غيري يحاسب على جنوني
 كما انني انا وحدي اذوق مرارة الندامة
 — اذن ما قلته له من انك تتركين عشيرتك واهلك
 ودينك وتتبعينه صحيح ؟

— نعم صحيح لانني اما اعيش معه واما اموت
 فخرق الارم وقال وشرار الغضب يتطاير من عينيه :
 — اذن تموتين لان موتك الف مرة اسهل من
 وجودك معه

— اتعني انك تقتلني ؟
 — كلا . بل اخبر والدك بالامر لانه من واجبي ان افعل

ذلك وهو يفعل بك ما يشاء
 فسكت خوفاً لانني رأيت هيئة الجدد ظاهرة على وجهه
 فندمت وعرفت بان اقرارى سيجلب علي مصيبة عظمى لكنني
 لم ابال قط وكنت اعلى النفس باحد امرين: اما ان يخلصني
 سليم من عذاباتي واما ان يقتلني والذي فارتاح . وهذا الامر الاخير
 كان بعيداً عن فكري لان والذي كان يحبني حبة عظيماً
 ولكن التدبر كان يساعدني بدون ان ادري لاننا عندما وصلنا
 الى البيت أخبرنا ان والذي كان قد مضى الى بعض القرى
 بطلب من رجل كان مشاركاً له في قطع من الغنم ورايتي
 كانت لم تزل في المدينة .

فسرني عني قليلاً وذهب اكمداد لون وجهي منتقلاً الى
 وجه حسن الذي زاد اكمداداً أميل الى السواد بسبب الغضب
 والحزن وكان من جهة مضطراً لهضي الى الماشية التي كان
 قد تركها لوحدها حين تبعني ومن جهة اخرى لا يجراً ان
 يتركني وحدي خيفة ان اهرب

فلحظت ذلك منه فقامت نه ضاحكة ضحكة الظافر:
 — اذهب واحضر الماشية حالاً ولا تخف فانا اعدك
 بانني لا اهرب في غيابك

فنظر اليّ متفهماً ثم ذهب ركضاً اما انا فجلست . بعد
 ذهابه افكر في ما جرى لي ومع اني كنت خائفة انفضاح امري

قبل ان اقدر على الهرب فقد اعتقدت بانه لولا ان حيي لسليم
 دو لاجل سعادتي لما كانت ساعدتني التقادير هذه المساعدة
 من غياب والدي ورأيتني عن البيت

فتفاءلت بهذه الصدفة وحدها حتى انه لم يعد احد
 او شيء ما قادراً على اقناعي بدم صوابية عملي . (وما برحنا
 نحن النساء الجاهلات نعتقد ان مناسبة الظروف والصدف
 سلطة هي فوق سلطة الله علينا)

ثم نهضت من مكاني وذهبت الى ربوة ليلي ارى حسناً
 فلم اره فاخذت اتأهب للهرب لظني انه يملك في البرية حتى
 المساء وبينما انا على أهبة الفرار اذ دخل حسن وارتمى على
 فراشه وهو يئن من الحمى التي راجعته .

☆ الفصل الثالث والعشرون ☆

— ضحية صادقة على مذبح الحب الحقيقي —

✓ رأى فحِبَّ فرامَ الوصلَ فامتنعوا
 فرام صبراً فأعيا نياهُ فقضى

فاقتربت من حسن وجسست يده فوجدته مضطرباً بنار
 الحمى وكان في عينيه ووجهه وحول فمه شيءٌ اخافي جداً فللوقت

نسيت موقفني ولم اعد افكر في سوى حسن وهو مستلق على فراشه واهي القوى خائر العزيمة كأن ملاك الموت يصفق بجناحيه الرهيبين فوق رأسه فأسرعت الى اناء خزفي وملأته ماءً بارداً وأتيت به اليه فغسلت وجهه ويديه وعنقه وكأن لمس يدي ساعد على تبريد حمّاه أكثر من الماء ففتح عينيه ونظر في وجهي وتنهد ثم اغمضهما ثانية ونام براحة وانا اغسل له وجهه ويديه

وبعد ساعة رجعت رابتي من المدينة فساعدتني على تمريض حسن الى ان جاء والدي الذي اسرع الى مدينة بعلبك واحضر له طبيباً . وبعد ان فحص الطبيب حسناً خيل اليّ انه اشعر والدي بالخطر المحقق بالمريض لانني كنت ارى على وجهه ابي امارات الحزن والانعطاف الزائد بحيث انه لم يكن يقوى على الدنو من فراش حسن الاً باكياً .

ومضى على مرض المسكين خمسة ايام لم ابرح فيها فراشه وكنت اذا بعدت عنه دقيقة لغرض ما يدير عينيه فيما حوله مفتشاً عني بقلق واهتمام يتفطر لهما القلب ويتصدع منهما الفؤاد .

وفي اليوم السادس من مرضه شعر ببعض الراحة .
فنظر اليّ وقال متنهداً :

— هل نحن لوحدنا يا فاطمة ؟

قلت له اننا لوحدنا لان ابي وزوجته قد مضيا الى المدينة
ومحمود واحمد يلعبان خارجاً

قال . اشكر الله انك وحدك فاسمحي لاقص عليك حكمة
حلمته منذ هنيئة فاني لم اكد اطبق جفني حتى رأيت شيخاً
جليلاً كله نور وثيابه بيضاء كالثلج فدخل من باب هذا الحناء
ووقف امامي قائلاً : يا حسن لا تقف في طريق فاطمة لانها
ليست لك وما عدم حبها لك الا لانها لا تستطيعه “

فان كلام الشيخ صادق يا فاطمة وقد أثر في تأثيراً
شديداً وندمت على ما فعلته معك . فانا اغفر لك يا فاطمة
لعدم محبتك لي لانك ,, لا تستطيعين ذلك “ واكنني انا لم
من ان سوء حظك أوقعك في حب رجل غريب عنا جنساً
وديناً واخاف ان تتعذبي معه . انني احبك يا حبيبتي اكثر مما
احب نفسي — وها انا الان متنازل لك عن حق حي — ولكنني
متعذب النفس من تصور نتائج مستقبلك — انني سأموت
لاجلك يا فاطمة — اموت غافراً لك وذاهباً بسرلك الى
القبر — ولكن يا فاطمة — قال هذا ومد اليّ يده فأخذتها بين
يديّ وانا اشفق شقيقاً من البكاء واقول :

— كلا انك لا تموت . انك لا تموت لاجلي يا حسن .
انا اقدر ان اكون ذات نفس شريفة كنفسك فاترك ذلك
الغريب لاجلك — فلا تمت انني لك . لا تمت ! —

وكنْتَ اظن ان هذا الكلام وحده كافٍ لشفائه لما اعهد من حبه لي فعمجت جدًّا اذ رأيت انه لم يتأثر البتة اذ قال :

— انك تتركين الحضري يافاطمة . هذا مما لا شك فيه

لانك فتاة حنون شريفة النفس ولكن ماذا يفيدني قلبٌ قد

ترك سعادته وأتى اليّ ذابلاً خالياً من كل عاطفة ؟ — انني

اريد قلبك بكل عواطفه وهذا ما لا تقدرين على اعطائي

اياه — انني لا الومك لان الله لم يشأ ان يضرم قلبك بحبي

كما اضرم قلبي بحبك — فالقوة التي تسهل عليّ الموت من اجل

سعادتك هي التي تحملك على التضحية العظيمة من اجل

سليم — هذا هو نصيبي فاذا مت اموت سعيداً لانك بجانبني

راضية عني — ولكن آه — آه يافاطمة ياليتني يا حبيبة قلبي

لم ابح اليك سرّي ولم اكدرك بغيرتي . ياليتني بقيت ، اخاك

حسناً “ احيا بلطفك ومحبتك واتنعمش بابتساماتك وقبلاتك

الطاهرة — ياليتني عشت امام عينك مثال الاخ الحنون

المخلص اللطيف وليس مثال العاشق الغيور المنتقم — ثم اطبق

جفونه وأخذ صدره يهبط ويعلو من التأثير فخفت منظره جدًّا

وانطرحت على عنقه اقبل وجهه وابكي ففتح عينيه المملوءتين

دموعاً وأخذ رأسي بكائنا يديه وادناه من وجهه وقبل في

بجراحة ثم وضع اذني فوق قلبه وبقينا على هذه الحالة هنيهة

ودموعي تنهمر اجابةً لنبضات قلبه السريعة — او انني بالاحرى

كنت اذرف تلاء الدموع على قلبه وانا اظن انها تبرّد حرارته
في حين انها لم تزدها الا حرارةً واضطراماً.

ولما أفقت حاولت ان ارفع رأسي عن صدر حسن لئلا
ازعجه من الثقل فلم اقدر لان ذراعيه كانتا ملتفتين حول عنقي
بقوة شديدة ولما شعر برغبتي في النهوض عن صدره فتح عينيه
وقال : بصوت يكاد لا يسمع لضعفه :

— ما بالك تحاولين التخلص من بين ذراعي يا فاطمة ؟
ألعلك خائفة من الذهاب معي ؟ لا . لا تخفي فلو شاء الله
اجتماعنا لخلق لك قلباً ينبض كهذا القلب التعيس الذي في
صدري

فقلت له بصوت اضعف من صوته

— ما بالك تهذي يا حسن والى اين انت ذاهب ؟

فتمنهد وقال انني ذاهب الى الابدية حيث اقدر على البقاء
على حبك بدون ان اعكر صفاء حياتك

فصحت فيه قائلة — اعدل عن هذا الكلام — انه
سكين ماض يقطع قلبي — فانك لن تموت بل تبقى معي الى
الابد

فأبسم ابتسامة ملائكية على ما فيها من الرعب وقال :

— كلا . كلا . لقد نفذ المقدور — لقد تمت التضحية —

فيجب ان يموت حسن لتحيا فاطمة — هكذا تنفي ارادة الحب

الصدق —

قال هذا ورجع الى غيبوبته السابقة فشعرت بان يديه قد
انحللتا عن عنقي من تلقاء نفسيهما وسقطتا على ظهري فرفعت
رأسي بهدوء ولبشت انظر اليه والدمع في عيني يكاد يحجبه
عن بصري

وبالحقيقة انني كنت شجاعة اذ وقفت امام ذلك المشهد
الهائل دون ان يصرعني فكانت تتوارد على مخيلتي جميع
الحوادث السابقة فلغنت الساعة التي عرفت فيها سليماً وقلت
لنفسي بصدق وثبات : اذا شفي حسن اتزوج به بحبٍ او بغير
حبٍ — والا كنت مذنبه الى نفس بريئة

وبينا انا مهتمة بافكاري هذه فنجح حسن عيني بغتة وهو
يقول : « لقد ذهبت معه »

فقلت له بلطف من هي هذه ؟

— آه . اهنأ انت ؟ انك لا تزالين بجاني فلم افلت

نفسك من بين ذراعي ؟

— انت رفعت ذراعيك عن عنقي فانهضت رأسي عن

صدرك لئلا ازعجك

فادار وجهه نحوي باستياء وقال :

— اصحيح انني تركتك تفتنين من قبضتي ؟ آواه ما

اجلاني ! انني تركت سعادتني وحياتي من بين يدي — ولكن

مرغماً

فأخذت يده بيدي وصرت اصب عليها ماءً بارداً لاخفف
ضرام الحمى عنها واسليه بالكلام واكثر له من الوعود وازين
له صورة السعادة في المستقبل ولكنه اجاب على كلامي كله بان
هز رأسه بضعف وقال:

— قلت لك لقد قضي علي بالموت — وانا سعيد لاني
اموت من اجلك وحسبي من حياتي سعادة انك مهتمة بي في
آخر ساعاتي — انت قدرت على التخلص من قبضتي يا فاطمة
اما انا فلا اقدر على التخلص من قبضة الموت — انا حملني
الضعف على افلاك واما الموت فانه يتقوى في كل دقيقة على
روحي التي امست الآن في قبضته — فياليتني يا حبيبتى اقدر
على اجتذابك نحو صدري بالشدة التي يجذبني هو بها نحو
الابدية —

عند ذلك صحت باعلى صوتي قائلة ياليتك . ياليتك تقدر
على استصحابي ان صح ما تقول — انك تمزق قلبي بكلامك !
ثم انطرحت على عنقه مرة ثانية اقبله وامزج دموعي
بدموعه فانغمض عيني مرتاحاً وبعد هنيهة قال .

— تقولين انني امزح — فهاً انظري الشيخ ذا الشياب
البيضاء على الشاطئ الآخر من هذا النهر ينتظرنى بقراره المذهب
الجميل — انه يومئ اليّ بيده لاسرع اليه — فالوداع الوداع

يا فاطمة الحبيبة . — كوني سعيدة واحذري . . .
 وكان هذا آخر كلام سمعته منه ثم شهق شهقة قوية
 خرجت بها روحه واظن انه اغي عليّ فوق صدره لانني لما
 استيقنت وجدته جثة بردت فاقشعر بدني وحسبت انني
 غائبة عن هذا الوجود فأسرعت الى خارج الحباء واخذت
 اصرخ باعلى صوتي فاجتمع الجيران على صراخي

* الفصل الرابع والعشرون *

— العجوز خديجة —

ولما رجع والدي وزوجته وجدا حسناً ميتاً وانا منطرحه على
 فراشي لا اعي شيئاً من الحنى والخوف والحزن
 وهنا سكنت فاطمة عن الكلام لتفسح لدموعها مجالاً .
 وبعد ان غسلت حزن قلبها بما عينيها نظرت الى السيدة آليس
 فوجدتها تبكي ايضاً فقالت لها بحزن

— ما الذي يبكيك انت ياسيديتي؟

اجابت آليس انا ابكي الطهارة والصدق والحب الشريف
 التي ماتت بموت حسن وابكي على الاخص حظ : كثير المعبين

الذين يكونون في سلام وراحة وطمانينة عن هذه الارض فيضع
لهم الحب اجنحة من الامل يحلقون بواسطتها في فضاء السعادة
المزعومة يبصرون تلك السعادة كوكباً منيراً فيصفقون باجنحة
آمالهم حوله فمنهم من يدنو منه وهو العدد القليل فيعيش على
نوره ومنهم من يكسر جناحيه في المسابقة فيسقط الى حضيض
اليأس قتيلاً ومنهم من لا يكاد يدنو من النور حتى تبتله
ظلمة التعاسة فترجعه اليها . وحسن المسكين كان من الصنف
الثاني . فأواه من نتائج الحب التعيس ! ويا لالشقاء أكثر
المحبين !

قالت هذا واتكأت على المقعد وغطت عينيها المملوءتين
دموعاً بيديها الناعمتين فعرفت فاطمة لذكائها بان آليس انما تبكي
مصائب حسن لانها صورة مكبرة لمصائبها هي فسكت قليلاً
من هذا الفكر لانه لا يسلي المصاب الا المصابون
ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي
فتسيت فاطمة حزنها امام حزن مضيقها فتالت لها :

خففي عنك ياسيدي العزيزة فان هذه امور مضت .
قالت آليس : ان بكائي ليس على حسن وحده يا عزيزتي
بل على كل محب تعيس مثله فاني لا اظلم في عمري محباً
صادق الحب طاهره لعلمي بان ذلك الحب هو مخلوق في قلبه
غير مصنوع كما قلت انت فهو يزيل كل شيء آخر من القلب

ولا يزيله من هناك امرٌ لانه اقوى شيء على الارض وليس في استطاعة اقوى الناس مقاومته

قالت فاطمة أحرر بشيء ينحسر المرء من اجله كل شيء حتى الحياة ان يكون اعظم الاشياء ولكن اذا كان هذا بكاؤك على حسن الذي مات شهيد حي وانت لا تعرفينه فكيف يكون بكاؤك عليّ اذا مت من اجل رجل آخر وانت تعرفيني ؟
قالت اليس لا اعلم كيف تفكرين بالموت ولكن هذا الطفل الجميل . . .

قالت فاطمة مجزن: لا يخامر فكرك اني انتحرت لانني لست جبانة بل اعرف واجبي نحو طفلي الذي هو قبل واجبي نحو نفسي ولكن قلبي يدلني على ان نصيبي من الهموم سوف يقتلني .
ولكن ما لنا ولذلك فلنرجع الى حديثنا

فانتي بقيت بضعة ايام طريحة الفراش لا اعني على شيء وكان يعودني ذلك الطبيب الذي كان يعود حسناً . ففي ذات يوم فتحت عيني مرعوبة فاذا والدي يجاني يبكي فسألته — اين هو حسن يا أبي ؟

فاجابني وقد زاد بكاؤه: لقد دفن يا ولدي منذ ايام فهمرت دموعي وقلت له: واين دفنتموه ؟
قال دفناه في المقبرة التي على طريق المدينة بحسب وصيته
الاخيرة

فوضعت يدي على عيني وبكيت الى ان نضبت دموعي .
وبما ان المصيبة تبدو كبيرة ثم تصغر فقد كان أثر ذكر حسن
يزول من مخيلتي مع الايام وانا أتجه بسرعة نحو العافية
وكان حب سليم يرجع اليّ مع صحي وهو ١١ كل يوم
يزيد عن يوم " لان المحب الوطن لا يهتم للأُمور الا مؤقتاً
اذ يكون له من غرامه ما يشغله عنها كلها

وكنت كما سبق قد عاهدت سليماً على الفرار معه مساء
ذلك النهار الذي قابلته فيه وها قد مضى على الميعاد نحو
اسبوعين فخشيت ان يكون أساء بي الظن فسلاني

فخرّك هذا الفكر عواطف نفسي لانني بعد وقوع هذه
الامور صرت احسب ان الله قد خلقني لسليم وحده اذ لو لم يكن
الأمر كذلك لما كان ازال من امامي كل العقبات ولو قدرت
على المشي لسعيت الى مشاهدته لان حبه كان قد اصبح الآن
مطلبي الوحيد . فانا انما كنت قد وطنت نفسي على هجر حبه
حباً يحسن لعله يشفي من علته . أما وقد امسى حسن جنة
بالية فما الذي يقعدني عن الرجوع الى ما كنت عليه . وعلى كل حال
فما توبتي عن حب سليم الا كتوبة السكير الذي اذا ناله اذى
الخمر أقسم ليهجرتها ما بقي حياً حتى اذا طاب فراها مترقرة في
الكأس نسي اذيتها فعاد الى شربها وتناسى ما ألم به بسببها
من قبل

وفيا انا غريقة في بحر هواجسي تتقاذفي امواج افكاري
فتارة ترفع رأسي عن وجه الماء فانظر شمس الامل في فضاء
الحب تنير قلبي وطوراً يغمره الماء فابصر ظلام الجحيم في قاع
السلوان يظلم نفسي ويعذبها . اذا عجزت من الجيران داخله
لتعودني

فلما رأيتها خفق قلبي لأمر لم اعرفه . وبعد ان جلست
بجانبي وسألتني عن صحتي اخذت تتلفت حولها وتنظر من
الباب الى الخارج وتصفي الى كل صوت كأنها تريد تحقق
خلو المكان من الناس

ولما آتست وجودي وحدي اقتربت مني وهمت في
اذني قائلة .

— ألا يوجد احد غيرك ؟

كلّا على ما اظن فوالدي غائب عن البيت ورأيت مهتمة بحلب
الماشية

أو لا يسمعنا احد اذا تكلمنا ؟

فاضطربت وقلت لها . كلّا . فتولي ما بدا لك

— ان سليماً مشغول البال جداً من جهتك وقد ارسلني

لاستطلع خبرك وارجع اليه بالخبر اليقين عن صحتك

فزاد اضطراي وصعد دم الوجد والحجل الى وجنتي

فقلت لها .

— واين هو سليم الآن ؟

— إنه في بيتي وهو شديد الهيام بك يابنيتي ومنشغل
الفكر جدًّا عليك ومن حين مرضت لم يستقرَّ به مقام ولم يطاب
له عيش ولو لم يكن يستظعنني اخبارك فلا ادري ماذا كان
حل به

قلت لها وانا بين الحائفة من مكرها والمسرورة بكلامها

— وهل مضت على معرفتك بسليم مدة طويلة ؟

فضحكت قائلة : لا اخالك تغارين على سليم من عجوز
مثلي . . . انني عرفته من حين ابتداء مرضك

وكنت قد غطيت وجهي باللعاف حياء من جملتها الاولى
فلما فرغت من الاخيرة كشفت وجهي وقلت :

— لماذا لم تخبريني بهذا قبل اليوم ؟

— لانه لم يرد ذلك خوفًا عليك من التأثير في وقت المرض

— أني لي ان اشاهده الآن دون وقوف أهلي على الامر ؟

لقد دبّر حيلة تنظلي على اهلك فانه يدعي انه طبيب قد
بعثه طبيبك ليعودك لمرض ألمّ بهذا . (وقد تمّ هذا الأمر

بعلم الطبيب وموافقته) فطار قلبي شعاعًا لكلامها وحسبت نفسي

اسعد امرأة في حب رجل ومع انني كنت اعلم حق العلم شرّ
الحتل والخذاع فان الشوق الى لقيا الحبيب اعنى بصري وبصيتي

قلت لها : ,, لياتٍ “

✽ الفصل الخامس والعشرون ✽

ابتسامة الفرح تنشف دموع الحزن

— مات الملك • ليحيَ الملك ! —

ذهبت العجوز واختليت انا بمناجاة نفسي فكنت اقول :
إذن لم ينسني كما ظننت — انه كان يبحث عني ويهتم بأمري —
فهو إذن يحبني كما احبه ولست انا وحدي اركض وراء هذا
الحب — ثم اجلت : نظري في ذلك البيت الشعري الذي
كنت فيه وللحال انتصبت امامي صورة سليم بثوبه الافرنجي
الانيق وظرافته ونظافته فتأسفت لانه مضطراً الى ان يراني في
هذا البيت الحقير وعلى هذا الفراش الرثّ ولكنني عرفت بان
عين الحب العمياء لا تبصر الا الحبيب وحده قتلت

ولللحال انتقل فكري من سليم الى العجوز فاضطرب
قلبي خوفاً من انها قد تكون تحتال عليّ حباً باستطلاع سرّ
حبي لسليم الذي لم تكن تعرفه بل تعرف حبي له • لان المذنب
نوعان : واحد يفكر دائماً بان الناس تعرف ذنبه كما يعرفه هو

و يحسب كل حركة او لحظة او كلمة موجهة اليه . وآخر يظن انه مهما فعل من الامور وأتى من الذنوب لا ينظرها الناس ولا يعرفها فيه لأنه يقف في ظل اصبعه “ وقد فاتته ان ابصار الناس تخرق اكثف الحجب . فانا كنت احسب نفسي مذنبه الى اهلي بحب سليم ولهذا خفت مكر العجوز لان اكثر العجائز هنَّ على جانب عظيم من المكر وكثيراً ما يكنَّ دالات الناس الى اماكنه

وبينا انا في هذه الافكار والحب يهاجم قلعة قلبي بجيوشه الجرارة فيلاقها جيش من الخوف غير منظم فينشب القتال وانا لشدة اضطراري لا اعرف الغالب من المغلوب دخل زوجة والدي وهي تقول :

— في الباب طبيب مرسل من قبل الطبيب يوسف لعيادتك لان طبيبك هذا مريض . فابتدأ جيش خوفي ينهزم من امام جيش وجدي اذ آتته نجدة عظيمة من نبضات قلبي الى ان دخل سليم ووقع عليه بصري فاطرقت حياء واضطراباً اما هو فجلس بجانبني وأخذ يدي يده متظاهراً بحسب نبضي وكانت رابتي واقفة فقالت له : أظنها قد حصلت على الراحة .

— نعم وستشفى قريباً باذن الله .

ففهمت مغزاه وسرت كهربائية الحب في كل جسدي فوهبتني قوة جديدة وكان سليم يحب محادثتي ويرى رابتي

لكِنَّ ثَقِيلَةً فِي لِسَانِهَا فَأَحَبُّ التَّخْلُصِ مِنْ شَرِّهَا فَالْتِمَسَ مِنْ
مَعْرُوفِهَا الْإِعْتِنَاءَ بِفَرْسِهِ لِأَنَّهُ جَفُولٌ فَلَمَّا خَرَجَتْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ
مَبْتَسِماً :

— أَظُنُّ الْفَرْسَ قَدْ قَارَبَ الْوُصُولَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْآنَ
— وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟

— ذَلِكَ لِأَنَّنِي لَمْ أَرْبِطْهُ وَهُوَ مُسْتَأْجَرٌ وَمِنْ عَادَةِ هَذِهِ
الْخَيْلِ إِنْ تَرَجَعَ إِلَى مَرَابِطِهَا حَالَ إِطْلَاقِ سَبِيلِهَا .
— وَكَيْفَ سَهْوَتُ عَنْ رِبْطِهِ ؟

— إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ عَمْدًا لَا سَهْوًا لَكِي أَمَكْتُ عَنْدَكَ
أَكْثَرَ مِنْ وَقْتِ الْعِيَادَةِ . فَهَلْ هِيَ زِيَارَةٌ مَقْبُولَةٌ ؟
فَابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةَ الْحُزْنِ لِتَصَوُّرِي حَالَتَنَا كَيْفَ إِنَّا نَحْتَالُ
فِي سُرْقَةٍ وَقَدْ اجْتَمَعْنَا احْتِيَالًا كَأَنَّمَا نَحْنُ لَصَّانٌ . وَلَكِنْ
الْخِدَاعُ مِنْ خَصَائِصِ الْحُبِّ فَقَالَتْ أَلَيْسَ : نَعَمْ وَلَكِنَّهُ خَاصَّةٌ
مَمْقُوتَةٌ فَالْحُبُّ الَّذِي يَعْلَمُ الشَّجَاعَةَ وَالشَّرْفَ وَالتَّهْذِيبَ يَعْلَمُ الْخِدَاعَ
وَالْكَذِبَ بِوَقْتٍ وَاحِدٍ وَإِنِّي لَا أَعْجَبُ مِنْ اجْتِمَاعِ الْقَيْضِينَ فِي
اسْمِي شَيْءٍ — الْحُبُّ

قَالَتْ فَاطِمَةُ : وَلَكِنْ أَلَا يَعْذِرُ الْحَبِيبُ الَّذِي يَضْطَرُّ أَنْ
يَخْدَعُ وَيَكْذِبُ أَحْيَانًا لِأَجْلِ خَيْرِ نَفْسِهِ وَحَبِيبِهِ ؟
لَا أَقْدِرُ أَنْ أَجْزِمَ بِهَذَا الْأَمْرِ كُلِّ الْجُزْمِ فَاتَنَا لَا تَقْدِرُ أَنْ
تَقُولَ الصِّدْقَ كُلَّ الْوَقْتِ إِذَا كَانَ فِي قَوْلِهِ مَضَرَّةٌ . مَثَلًا .

لو كان طبيب يطبّب مريضاً على فراش الموت فانه اذا قال له الصدق يضرّه ولا ينفعه هذا اذا لم يكن قول الصدق ضرورياً وان كذب عليه يخالف ضميره . كذلك اذا كان في الكذب تخليص شرف شخصي من العار وفي الصدق ايقاعه به بكثيرون يفضلون الأمر الاول لزعمهم انه مفيد ومن هذا مذهب القائلين بان ,, الغاية تبرّر الوسطة “ اما انا فلا ابدي في احد هذه المبادئ رأياً خاصاً وكلّ ما اعتقده هو ان الحبّ الذي يضطرّ فيه المرء الى الخداع والكذب يكون انعس انواع الحب لانه يشبه قلعة متداعية الحصون محاصرة من جيش جرّار من الاعداء لا يلبث ان يدخلها عنوة ولو مهما كان الدفاع عنها شديداً

— حقيق ياسيدي ما تقولين ,, فليس خفيّ الاّ سيعان “ مهما طال الوقت ولكن سليماً كان في فعله مقتدياً لا مبتكراً .

انك يا فاطمة تدافعين عن هذا الرجل حتى ضدّ نفسك — نعم ايّها السيدة لاني احبه وهل الحب الصادق غير تفضيل الحبيب على النفس ؟ والان لنعد الى سياق حديثنا .
والتفت الى سليم وقلت والدمع يترقق في ماقيّ :
— كيف رأيت موت حسن التعيس ؟

— لقد أحرزني موته كثيراً ولا سيما وانا كنت بنوع ما المسبب لهذا الموت بدون قصد مني فرحم الله شبابه لانه ذهب

شريد الحب

فهمرت دموعي لهذا الكلام وقلت: لست انت المذنب بل
انا المذنبه

— كلانا مذنبان باعتبار انفسنا وبمجرد شعورنا نحو حسن
ولكننا لسنا كذلك يا حبيبتي في نظر الله الذي خلقنا احدا
للاخر والظروف التي جمعتنا صدقة فحصل من هذا الاجتماع
ارتباط قلبينا احدهما بالآخر ارتباطاً لا يقبل حلاً . وهل نلام
اذا لم تقو على محاربة امرٍ وضعته في قلوبنا يد اقرب من
يدنا ؟

— وما هو ذنب ذلك المسكين فيذهب ضحية هذا الحب
ونحن نسعد به بعده ؟ ان الظروف ظالمة عاتية

— ان هذه الاسرار غامضة لا تقدر على معرفتها فالأوفق
ان لا نبحث فيها فضلاً عن ان موقفنا مفرح لا محزن الآن
ويجب ان اغتنم هذه الفرصة لاستطلاع افكارك

— اخفض صوتك واعلم بان للجدران اذاناً ونحن الآن
داخل بيوت من الشعر فقد يكون في الخارج من يسمع
حديثك الآن

فخرج متظاهراً بافتقاد فرسه وبعد هنيهة رجع وعلى ثغره
ابتسامة الرضى فقال :

— اني لم ار احداً واطنهم قد ذهبوا للتفتيش عن الفرس

فابتسمت انا ايضا وقلت : انها حيلة لطيفة
 فقال : وسببها ألطف ولكن يا فاطمة هل نسيت وعدك
 الاخير لي ؟

فاحمر وجهي خجلاً وقلت كلاً !
 — إذن وعد الحر دين عليه وقد حان وفاءه
 — ولكنني مريضة لا اقوى على المشي
 — ولا انا اريد منك ذلك لان صحتك تهمني قبل كل
 شيء . أفلا ترين ذاتك احسن الان ؟
 فأجبتة بنجل : حالاً رأيتك رجعت اليّ قوتي . ولو طلبت
 مني ان امشي الان لفعلت مع انني لم اكن اقدر على الجلوس
 في فراشي هذا الصباح . خشيت الموت قبل قدومك فلما
 رأيتك قلت ان الموت لا يحسر على الدنو مني وانت بجانبني
 فمن اين اتيت هذه القوة التي تجعلني اعتقد استحالة وقوع كل
 ما يفصل قلبي عن حبك مع انني اوجس خيفة من كل فكر
 جائل وكل تصور عارض ؟
 فابتسم وقال : ذلك لانك قد تكونين تشدين بلساني
 هذا البيت

اغار عليك من نظري ومني . ومنك ومن مكانك والزمان
 فتنهدت وقلت : ان هذا القول يليق بي بالاولى على ان
 خوفي بالاحص هو من عدو واحد أعني التفاوت الكائن بيننا

فابتسم وهو يمرّ يده من فوق شعري ويقول :
— اطردني عن فكرك هذه الاوهام فنحن متساويان

بالحب وكفى

ولم يكذّ يسمّ كلامه هذا حتى سمعنا صوت رابّتي تقول :

اربطه الى هذه الشجرة لئلا يفلت ثانية

فقال لي سليم : يظهر ان الفرس لم يراع عواطفنا وقد اتوا

به فيجب ان اذهب الآن ولكن اين واي متى الملتقى ؟

قلت يوم الاحد المقبل وفي المكان المعهود اذا تعافيت

والآن ، فبعد العجوز الخبر اليقين .

فأخذ يدي بيده وقبلها بسرعة اذ دخلت والدتي وهي

تقول :

— لقد كدنا نهلك عدواً وراء الفرس وقد كان متوجهاً

بكل سرعة واهتمام الى المدينة

فاظهر سليم اهتماماً وناولها قطعة ذهبية فأبت قبولها . في

بادئ الأمر ولكنها ارجعتها اليه بهيئة من يضطر الى مفارقة

روحه فكانت تنظر اليها كأنها قطعة من قلبها واخيراً قبلتها

شاكراً

✽ الفصل السادس والعشرون ✽

— آخر اللقاء وأول المصائب —

من لم يكن عقله مودعه لم يفقه واعظ من النسب
ولما اشار اليّ مودعاً شعرت كأنه أخذ فؤادي ووضع مكانه رسمه
فسررت بهذه المبادلة وانغمضت عيني حالاً لعلّي أرى الخيال
مضت ايام ذلك الاسبوع وكنت اسرع بها اسراعاً نحو
الصحة وكان يوم الاحد عندي كعمود بني اسرائيل الناري و
كنجمة المجوس، يهديانني في طريق الصحة والنشاط
فارتديت نهار الاحد اجمل ثيابي وبعد الحاج كثير سمح
لي والدي بالذهاب الى المدينة ولم اصدق ان خرجت من بين
الخيام . وكان قلبي يسرع امامي شوقاً الى مرأى الحبيب .
ولكن لما بعدت عن البيت قليلاً شعرت كأنني بعدت عنه الى
الابد . فظننت الى ورائي وكاني اودع ذلك البيت الشعري
الذي ربيت وشببت فيه على البساطة والقناعة والعفة الطبيعية .
فحجب الدمع المالى عيني منظر تلك الخيام عن ناظري فلما اعد
راها بل رأيت مكانها فضاء واسعاً اجمل ما فيه . فلحال —

تحرّكت عواظني وكنت على قرب من قبر حسن فخرجت عليه
وجلست على حجر بقربه ابكي بكاءً مرّاً ليس عليه فقط بل على
نفسى ايضاً لأمر لم اعرفه

مضى عليّ وقت لم ادر طولهُ وانا على تلك الحالة وقد
نسيت المهمة التي أتيت لاجلها واذا بيد القيت على كتفي
بلطف وصوت يخاطبني قائلاً :

— خفني عنك الحزن يا بنيتي فانك خارجة من مرض
رنّ ذلك الصوت في اذني فارعيني في تلك الوحدة
فالتفت واذا المعجوز خديجة واقفة بجانبي ويدها على كتفي وفي
عينها دموع الوداد فقلت لها مبعوثة

— ما أتى بك الى هذا المكان ياخاله ؟
قالت : لقد تبعتك لاسرّ اليك اموراً تهملك
فاضطرب قلبي لعامي بانها رسول فيما بيني وبين سليم
فقلت :

— ما هي هذه الامور يا ترى ؟
— اتقين بحبي واخلصي كل الثقة ؟
— نعم أثق

إذن قل لي كل ما ترومين قوله لوالدك عن ذهابك مع
سليم حتى اذا لم ترجعي يكون لي ما اطمئن فكره به .
فاختلج قلبي في صدري كالطائر المذبوح ونظرت الى قبر

حسن مذعورة كأنني اخاف ان يسمع كلامها وقلت :
 — بالله عليك ياخاله لا تذكرني مثل هذا الكلام في
 هذا المكان

ثم نهضت من مكاني وذهبت نحو الطريق وكانت هي
 تتبعني فلما وقفت وقفت وقالت :

— شدي عزيزتك يا فاطمة وكوني شجاعة

— من انباك بانني لست براجة ؟

— اخبرني سليم ذلك . فاذا كان لك كلام لواندك
 فقولي له وانا ابلاغه اياه بعد ذهابك . فرجعت الى البكاء وقلت لها :
 اواه ما الذي ا قوله لوالدي وقد اتيت نحوه مثل هذا الذنب ؟
 — لم تأتِ بحبك ذنباً وانت سعيدة لان حبيبك من
 اغنياء لبنان . فسألتها مدهوشة : ومن اين عرفت ذلك ؟

— انني اعرف بيت والده لاننا قد نزلنا مرة بجوار قريتهم
 وشاركناهم في قطع من الغنم

فتنهت وقلت لها : اذا كنت حقيقة لا تعدين عملي ذنباً
 فقولي لوالدي ما ترينه يناسب المقام وانت ادرى مني بذلك
 وكان قول العجوز ان سليماً غني قد اشغل فكري فقلت
 في نفسي . انا لم اترك لاجل سليم شيئاً او احدأ يهمني سوى
 والدي فهل يترك هو والديه وغناه ومجده من اجلي ؟

ثم شعرت بنبض الاسراع لعلمي انه لا يجب على سوءالي

غيره . فاقتربت من العجوز وقبلت يدها وقلت لها بصوت مرتجف :

— اذا لم ارجع ياخاله فاطلي لي الصفح من والدي
وبردي سورة غضبه وقولي له ان اليد التي انتزعتني من تحت
ساطته قوية جدًا لم استطع ردها
فأمر الحب ليس له مرد

يصول بمرهف في كف أعمى

فرجعت العجوز نحو الخيام اما انا فتابعته المسير وافكاري
في كلام العجوز وقد تصورت انه بعد زوال العوائق من جهتي قد
اصبح سليم ابعد عني مما كان سابقاً . وكنت امشي ولا ارى
ما امامي لانشغال افكاري فلم ادر الا وقد صرت بجانب سليم
اسمع صوته العذب فاضطرب قلبي واصطكت ركبتي وللحال
طرق ذهني آخر حادثة جرت لي مع سليم وحسن في ذلك
المكان قد شاءت جدًا اما سليم فأخذ يدي بين يديه وقال :

— اهلاً وسهلاً بالحبيبة الصغيرة فما بالك ترتجفين

وَمِمَّ انت خائفة ؟

— خائفة لانني اراك ابعد عني الان مما كنت قبل

الآن .

— ولم ؟

— لانك غني ووجيه كما اخبرتني العجوز

فقال ضاحكاً : وهل غناي يخيفك ؟ انه اعظم واسطة
 تعينني على ايصالك الى السعادة التي أريدها لك
 — ان سعادتي في حبك ولكن هذا الغنى سيكون عقبة
 في سبيل رضى اهلك عني . اخاف انك لا تقدر على تميدها .
 — لاهلي المشورة وليس لهم الرضى وحسبك رضاى
 وحدي فهلمي الآن واركي هذا الفرس لئلا يكون تأخيرنا مضرّاً
 بنا فهل تحسنين ركوب الخيل ؟

فقلت له : قليلاً . ثم التفت فاذا بفرسين مسرجين كان
 قد اعدهما لركوبنا فحدث مرآهما قشعريرة في جسمي لانني
 شعرت بانتهائي الى الحد الاخير من المسألة ولكن لم يسعني الا
 اعطاءه ذراعي ليرفعني الى ظهر الجواد لأن استسلامي كان قد
 بلغ اقصى الدرجات فلم اقتكر في المعارضة
 سرنا متحاذيين وكنت انا شأن كل خائف التفت الى
 الوراء في كل فترة واخرى ولحظ ذلك سليم فمدّ يده والقاها
 على عنق جوادي وقال :

— ما دمت معي فلا خوف عليك قبل ان اصرع وهذا
 لا يتم بسهولة فشددي عزمك . ولما غابت الشمس اشتد
 خوفي فكان سليم يشجعي ويطرد جيوش اوهامي بلطافة
 حديثه الحبي وعذوبته وبعد الغروب بنصف ساعة ظهرت امامنا
 انوار البلدة منبثة من النوافذ فرقص لها قلبي طرباً وتقلص ظلّ

خوفي فنظرت الى سليم قائلة :

— ايّ من هذه الانوار هو نور بيتكم ؟

فاوماً باصبعه وقال انه في تلك الجهة — ولكنه سيخفي

عند ظهور نور وجهك الذي هو اشدّ ضياء منه

ولما بلغنا أوّل بيت من بيوت القرية اوقف سليم جواده

ففعلت انا فعله فقال :

— انني لا استحسن اصطحابك معي الى البيت الان

فالافق ان اذهب بك الى بيت عمّي وهي محبة مخلصه لي

ثم امضي وحدي فأخبر والديّ بالامر

فقات له بانسحاق انني لا اقوى على فراقك

فلاصق بجواده جوادي وطوّقني بذراعيه والجوادان تحتنا

واقفان لا يتحرّكان كأنهما يشعان بما هو جارٍ فوقها

والكواكب شاخصة اليها كأنها تشهد علينا — هذا وسليم ينعشني

بقبلاته ويقول :

— انني افارق روحي قبل مفارقتك ولو لم اكن على ثقة من

إخلاص عمّي لما امنت على تركك عندها



* الفصل السابع والعشرون *

— شعور المرأة مع المرأة —

ولا يألف الانسان الاّ نظيره
 وكلّ امرئ يصبو الى من يشاكله

وبعد هنيئة وصلنا الى دار حسنة البناء وامامها حديقة غناء
 فترجلنا وربطنا الجوادين خارجاً ومشينا في تلك الحديقة في هدوء
 الليل الى ان بلغنا منتصفها حيث اجلسني سليم على مقعد هناك
 ودخل هو تلك الدار وبعد دقيقة خرج منها ووراءه امرأة في
 نحو الاربعين ربيعاً طويلة القامة جميلة الوجه عليها سياء الكبرياء
 والعظمة فلما رأتني وانا مطرقة حياء اقتربت مني ووضعت يدها
 على كتفي وقالت يبشاشة :

— اهلاً بك ايها العزيزة تفضلي ادخلي البيت
 ثم قالت لسليم : اذهب وارجع حالاً ولا تضع الوقت

سدى

فتبعت السيدة الى غرفتها وانا اقدم رجلاً واوءخر اخرى
 وقد شعرت بانني بدون قوة بعد ذهاب سليم لولا انني قد

انست من السيدة لطفاً في اخلاقها هو مشتق من رمها فلما
دخلنا الغرفة اوصدت الباب وراءها وبعد ان جلسنا قالت لي
بلطف :

— يجب ان تغيري ثيابك يا عزيزتي

فاطرت خجلاً وانا اقول — لنفسي ، وبماذا غير هذه
الثياب ؟ ، فلحظت ذلك مني فعمدت الى خزانها واخرجت
منها ثوباً حريراً ناصع البياض حسن ، ، التخريج “ خيّل
اليّ انه اثن من ان يكون لي .

ولما اقتربت به مني قالت ارجو ان يكون سليم قد اعطاني
القياس الصحيح لقامتك فتساقطت دموعي فرحاً فوضعت يدها
اللطيفة على كتفي وقالت :

— لم البكاء يا فاطمة فهل ندمت على ما فعلت ؟

— كلا ولكنني خائفة من غضب والدي سليم علينا
وانا اخاف ذلك ايضاً لان اخي رجل متعصب لا يحسب
الحب والشعور القلبي من الامور التي تستحق الاعتبار اما انا فاعذر
سليماً على عمله واساعده لان الدنيا كلها تحب المحب الصادق
فانست منها اخلاصاً جرأتني على الكلام فقلت :

— ولكن اذا لم يرض والداه عني فماذا افعل ؟ انني لا
اتجرأ على الرجوع الى اهلي لانهم يقتلونني فهل تقبليني خادمة
عندك ياسيدي

فضحكت من كلامي وقالت : وهل سليم أتى بك لهذا الامر ايها العزيزة ؟

ثم نزعَت يديها ثيابي عني ورتبت لي شعري والبستني المشدَّة
وكنت امام المرأة انظر فيها مدهوشة وكلما ألبستني حاجة اتغير
هيئةً في عينيَّ حتى اذا انتهت كدت لا اعرف نفسي — واذا
ذاك طرق الباب ولم يلبث ان دخل سليم فلما دخل نظر اليَّ
مدهوشاً وقال باسمًا بكل فيه

— اهذه انت ؟ انك لست اجمل مما كنت في عيني
ولكن ما أليق الزيّ الحصري بك يا فاطمة !

ومع تظاهره بالسرور فقد قرأت على وجهه سطور الغمِّ
والهمِّ فاسرعت نبضات قلبي لعلمي بان والديه قد غضبا عليه
ولكنني لم اسأله عن الامر خوفاً من استماع الجواب اما هو فنظر
الى عمته قائلاً :

— هل رأيت ياسيدي كيف خدعني والدي عندما جرى
الحديث بيننا في حضرتك ذلك اليوم بقوله انه لا يمنعني عن
التزوج بمن اريد من النساء بشرط ان احبها ؟
ألا تزال لا تعرف ان القول شيء والفعل شيء آخر ؟
— وما العمل الآن ؟

— هل يثبَّت من استرضاء والديك ؟
فنظر الى وجهي الذي كان يصفاز من دقيقة الى دقيقة

من سماع حديثها واجابها :

— ان والدي ابى كل الاباء حتى الاصغاء الى حديثي
او قبولي في بيته اذا اصررت على عزمي اما والدتي فقد كانت
شاخصة اليّ تبكي ولا تقدر على الكلام خوفاً من غضبه
وعندي انها لو قدرت لساعدتني
وعلى اي حال تركته ؟

— كجبل النار في ابان ثورانه يقذف على رأسي نار
اللعنات ورماد الغضب — وقد قلت له وانا خارج من
الباب: لقد قت بواجبي نحوك فلم ترض بالسعادة لي فيجب
ان اقوم بواجبي نحو قلبي
فاطرقت السيدة لطيفه هنيئة تم رفعت رأسها الى ابن اخيها
وقالت :

— ماذا اقول لك يا عزيزي سليم؟ فلو قدر الله ان يكون
الحب صنع الايدي لكان حلاوة دائمة لا تشوبها مرارة ولكنه
في حالته الحاضرة سعادة البعض وتعاسة البعض الآخر . فانت
الآن بين حديقة غطاء وواد عميق مظلم فاذا اطعت قلبك تعيش
في الاولى متقللاً ما بين ازهارها وملتذذاً بأكل اثمارها طول
الحياة وان تطاع والديك ترميك يد الدهر في الوادي حيث
تعيش في الظلمة طول حياتك ايضاً . فاختر لنفسك ما يحلو .
فاما ان تضحي ذاتك وهذه الفتاة واما ان تضحي والديك .

فان للأثنين واجباً واحداً عليك . وما يرجح كفة احدهما
الأميل نفسك فبع اي فريق هو ؟

وكنتم اسمع كلام تلك السيدة واشعر كأن قلبي اخرج
من صدري ووضع امامي فأكد ارى نبضاته السريعة وفوران
دمه بعيني — وهممت بان اقول لسليم ، اذا اردت تركي فاقتلني
لان الموت اسهل عليّ من مرارة بعدك وعار لقاء اهلي فخانني
النطق لشدة اضطرابي ولكنه هو كفائي مؤنة التوسل اذ اجاب
بصوت المحب الهائم :

— ان ميل نفسي مع سعادتها . فانا اترك والديّ مرغماً
واتبع حبيبتني مختاراً ولي عذر من انه لولا تساهل والدي معي
في اول الأمر لما اطلقت لنفسي العنان في حب هذه الفتاة . ولولا
تسبيله لي العتبات برضاء السابق كنت حسبت لوعورة الطريق
حساباً . فانا قد اقتطفت هذه الزهرة من بستان حب أهلها
وعنايتهم ولا اقدر ان ارجعها اليه كما كانت — انها زهرة قد
قطفت لتوضع على صدري ولا استطيع اعادتها الى غصنها
لاستحالة الامر فعليك ان تساعدينني .

وكان كلامه مؤثراً فبكى وأبكائنا فقالت له عمته بانعطاف :
— انك شريف وصادق يا ابن أخي وانا مستعدة لمساعدتك
فماذا تريد مني ؟

— اريد ان تذهبي معنا عند الكاهن فقد عزمتم على الاقتران

العاجل والسفر الى امريكا هذه الليلة
فامتقع لون وجهها وقالت له بتآن :
— لا تعجل في السير يا عزيزي فان غضب والدك لا
يلبث ان يهمد

قال لا بد من سفري على كل حال في أول فرصة لاني
لا اقدر ان اعرض نفسي واياها للخطر من عداء اهلي واهلها لنا
قال سليم هذا وخرج من تلك الغرفة وهو يقول ١١ عجلي
يا فاطمة ! “ فاقتربت مني تلك السيدة الفاضلة وهي تمسح دموعها
فقبلتني وقالت :

— انني اشفق عليك جدًّا • فارجو ان يكون نصيبك
حسنًا وان تكوني سعيدة فقلت لها وقد وجدت دموعي سيلاً
لزيادة الانسكاب •

— انني سعيدة بجانب سليم اينما وجدنا •
فتنهت وقالت : انا اعرف ذلك جيداً فياليت الذي يجعلك
ترضين بكل حالة لاجه يلقي في قلب اخي شفقة على قلبكما •
ولكن الآباء لا يشعرون بقلوب الابناء وما يراه هؤلاء نعمة
يحمده اولئك تمة متى اختلفت المشارب والاذواق والعكس
بالعكس

* الفصل الثامن والعشرون *

— الكاهن المأمور —

الشَّرَّ كلَّ الشَّرِّ ما بين العمائم والقلاص

وكان سليم يلتفت الى الخارج وزفراته تتصاعد بشدة فتخرق قلبي كالسهام اذ لم اجهل مقدار اضطرابه وكنت بنوع ما احسب نفسي مسبية لها

وبعد مضي دقائق معدودة كنا في طريقنا الى بيت الكاهن يتقدمنا خادم بيده مصباح ووراءه سليم ومن خلفها عمته وانا. وكنت امشي واخاف السقوط ولما وصلنا قرعنا الباب فخرجت منه امرأة كهلة سمراء اللون حادة البصر طويلة القامة قيل لي انها زوجة الكاهن او الخورية " فترجبت بسليم وبعمته كثيراً اما انا فلم تعرني انتباهاً بل كانت تنظر اليّ بعبوس كأن وجودي قد اقلق خاطرها .

وبعد ان جلسنا قليلاً في غرفة ادخلتنا اليها سألتها السيدة عن الكاهن فاجابت

— قد ذهب الى اخيك بدعوة معجلة منه

فتبادل سليم وعمته البصر ونظرا كلاهما الى فشاركهما بصر
الخورية وهي كأنها مرتابة بأمرى وللحال تركتنا وذهبت لتعد
لنا قهوة فقالت السيدة لطيفة لابن أخيها

— هل سمعت ؟

هذا ما كنت اخشاه ولكن لنتظر رأي الخوري نفسه
في الامر . وبعد هنيهة دخل علينا الكاهن بجيئة السوداء
فهنأنا له على الاقدام احتراماً وبعد تبادل التحية قال له سلم .
— لقد اتيت اليك في غرض ضروري يامحترم —

فقاطعه هذا بقوله — كفى . كفى ! انني اعرف غرضك ولا

اقدر على القيام به

— (بلطف) لم يا أبانا ؟

— (بغضب) لان وظيفتي لا تسمح لي بذلك !

— الا تسمح لك وظيفتك بمباركة اكليلي ؟

كلا ! في الظروف التي انت فيها . فان عروسك فتاة

مسامة وابوك غير راض عن زواجك هذا .

— (مبتسماً) ! ما عروسي فانها تتبع ديني وهي تريد

منك ان تعمدوها قبل ان تكلمها واما رضى ابي فلا اراه يتف

حاجزاً لانني انا والفتاة راضيان باتحادنا الابدى وكلانا بالغ

من الرشد

فازداد غضب الخوري مقابل لطف سليم وقال له آمراً

متحمساً :

— قلت لك اني لا اقدر على الامر . فأرجع الفتاة الى اهلها وارجع انت الى صوابك لترجع اليك بركة الله ورضي والدك

— (برقة) : لم آتاك مسترشداً الان ياخوري جرجس بل طالباً قضاء فرض ديني يتحتم عليك قضاؤه ولو اغضبت كل الناس لان رضى الله وحده يهملك

— (بجدة) : الا تعلم يا مغضوب ان الله يصب جام غضبه على رأسك اذا تزوجت فتاة على غير دينك وخالفت والدك ؟

— (متحمساً) : كلا ! انني لم اعلم ولا اريد ان اعلم بان الله الذي كله عدل وحق وحب يغضب على شاب لانه احب فتاة طاهرة واراد ان يعيش معها عيشة سعيدة في رضاه تعالى وهي تعبد الله مثله فضلاً عن انها ستسبع دينه بملء ارادتها . اما والدائي فقد استشرتهما فرفضا فسقط عني واجب طاعتها في هذا الأمر

وكان الكاهن كأكثر صفاتة بسيطاً جاهلاً يعرف ان يفتح ابواب المواضيع ولكنه لا يعرف ان يدخل منها فلما افحمه سليم قال بغضب وهو ينفض طوق جيبه — لا يعنييني . فانا لا اقدر ان اكللك فاذهب الى غبطة

البطيريك

— ان وقتي لا يسمح لي فارجو ان توفر عليّ مؤنة التعب
فانك وكيل لغبطته ولك السلطة الكافية .

— انني لا افعل ذلك ولو كنت البطيريك بذاته
فضحك سليم متهمكاً وقال له

— عافاك الله يا كاهن الرب ! انت تعلم بان واجباتك
تدعوك الى ان تكون اميناً عليها ولكن مراعاة خاطر وجيه تمنعك
عن ذلك انت تسمع صوت الضمير الحيّ يناديك ، كن
اميناً على واجباتك تحت كل الظروف ، ولكن صوت غضب
والدي قد قوي عليك . . فاعلم يا خادم الرب انني لا اترك
هذه الفتاة قبل ان تترك روحي جسمي وقد اتخذتها رفيقة لحياتي
لعلمي بان الزواج الحقيقي الذي اوصى به الله والكنيسة والذي
يتبارك في السماء هو الذي يباركه الحب على الارض — فزواجنا
الآن بحسب الشريعة الروحية الالهية مسجل في السماء ومسجل
في قلبينا ولم يبق سوى تسجيله في دفترِكَ فاذا أُبيت تسجيله
تكون كل مسؤولية تقع علينا في المستقبل ، بذمتك “
وانت وحدك تجازي عليها

فما سمع ذلك الكاهن كلامه لانت حدته واقبل جفاؤه
الى تالطف وغضبه الى تذلل اذ قال لسليم متوسلاً :

— يجب ان لا تعتب يا ابني لانني رب عائلة كبيرة كما

تعلّم واذا عرضت نفسي لـغضب والدك بعد أن نهاني عن مباركة
الكليك ،، يقطع معاشي “ من هذه القرية ويغلّ يدي عن
كل عمل

— اذن انت تحسب وظيفة الكهنوت حرفة لتحصيل
المعاش . . . بحيث انك لا تقدر ان تخدم الا من ،، تنفعك
خدمتهم “ ولو خالفت بذلك وظيفتك — فما شاء الله . كاهن
يتاجر في الدين لأنه سلعة تباع وتشترى وذلك ليطعم عياله !
وفي تلك الدقيقة دخلت ،، الخورية “ التي كانت قد
سمعت بالامر حديثاً واخذت تؤنب سليماً على مخالفة والديه
وتظهر الغيرة على مصلحته ولو لم يكن كلامها ،، اثقل من دمها “
لا حسنت القيام بوظيفة الارشاد والوعظ أكثر من ،، الخوري “
ولم تلبث ان انتقلت اليّ توبخني بكلام استمطر ادمعي فطار
رشد سليم وقال لها :

— ان الامر لا يعنيك ايها السيدة فانت ،، خورية “
ولست ،، خورياً “ ولا سلطة دينية او دنيوية لك علينا
فقلت بنزق : لا عجب من تمردك على الذين لانك تعلمت في
مدرسة الكفر فصرت من جملة اولئك الذين يعتقدون ان كل
من عبد الله وعمل بوصاياه يخلص ويكون ابناً له فيا لحية
الامل فيك

— نعم هذا هو اعتقادي تماماً . (قال ذلك باسمًا)

ثم التفت الى الكاهن وقال :

— ان وقتي قصير جدًا يا محترم ولا اقدر على استماع وعظك ووعظ خوريتك فهل انت قائم بما انتدبتك اليه ؟

— (بانكسار) برضى الله عليك يا ولدي انطلق الى البطريك او الى المطران وأرحني من تبعة هذا الحمل الثقيل
— ثم وجه سليم الكلام اليّ ،، أنذهب الى المقام البطريكيّ
يا فاطمة ؟،،

— افعل ما تراه موافقاً

وباليتقي ياسيدي أيت ذلك فرمما كان إلحاحه على الكاهن
سبب زواجنا الكنسيّ وانتدني من بعض شرّ هذه المصائب
والنوائب

وقبل ان نخرج من بيت ذلك الكاهن قال له سليم بغضب :
— لا يخامر ضميرك يا محترم ان تساهلي معك هو الخوفي
من ،، غضبك ،، او لشفتي عليّ ،، انكسارك ،، فالامران لا
يهمانني ولكنهما يدلان على خلتين فيك الاولى ضعف العقل
الذي يزين لك التوهيم والتهديد والتغضب على البسطاء لارهابهم
واخضاعهم (وانا والكلام بسرّك لست من هذه الطبقة) والاخرى
احتقارك للدين الى حدّ انك تجعله وسيلة لاسترضاء فلان
واستدراخ خيرات ،، فليتان ،، ،، لتميش العائلة ،، وانا لا الومك
لانه من فضلة قلبك يتكلم فمك انما رغبت في وظيفة الكهنوت

حباً بالخبز الذي كثيراً ما يأتي منها بطريق الكسل وليس حباً
 بالخير الذي يأتي عن طريق الاعمال الصالحة بل الوم رؤساءك
 الذين ساعدوك على احتقار الدين بسيامتك خادماً له . فالويل
 لك ولا مثالك من شعب اذا هبّ إعصار غضبه يلفح بطريقة
 الصالح والطالح ! . وغاية ما ارجوه ان يأتيك بعدي من لا
 يكون وقته ضيقاً كوقتي فيكلمك أكثر مما كلمتك به
 ثم خرجنا من البيت والخوري يتبعنا الى الخارج وهو
 يتوسل الى سليم ان لا يغضب عليه ويردد على مسامعنا
 عبارات الحزن ، على قطع رزقه “ بواسطة ابي سليم .

* الفصل التاسع والعشرون *

— السفر —

اذا لم تستطع امراً فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

رجعنا الى بيت السيدة لطيفة فوجدنا العربية بانتظارنا امامه
 ولم نلبث ان تهيأنا للسفر فودعنا تلك السيدة الفاضلة اللطيفة
 بالدموع السواكب وأبينا ان نجيب طلبها بالسماح لها بمرافقتنا

وفيا نحن في الطريق قلت لسليم بشيء من القلق
— واذا رفض البطريك تكليتنا كما فعل ذلك الكاهن
فكيف تعمل ؟

— طمئني بالك من هذا القبيل يا حبيبتى فان سيدنا
البطريك رجل مصلح غيور على الدين وعادل فيه وهو لو قدر
على الاصلاح التام لنزّه خدمة الدين من كل شائبة ولكن هذه
الطبيعة البشرية لا يصلحها غير الله

— وما معنى خوف ذلك الكاهن من والدك وهو مطالب
بالقيام بحق وظيفته ؟

— انك لا تعرفين أمر ذلك الكاهن فهو رجل فقير العلم
والمال والفضائل قد سيم كاهناً على بلدة كثر فيها رجال العلم
والمال فاستعبدت قوتهم ضعفه حتى امسى ^{١١} بالخاتم على الخنصر ^{١٢}
وهو كاهن لا يفهم من امور الدين ما يوقفه على كنه عظمته
وواجب طاعته . ولو فهم لما قدر لضعفه على مقاومة من هم
^{١٣} سبب نعمته ^{١٤} كما قال لانه يخدم ارادتهم لا نفوسهم

واقعة اكثر قرانا اللبنانية هذه هي ان الكاهن يكون غالباً من
خشارة القوم وهم يسمونه كاهناً لانه لا يقدر ^{١٥} على عمل ما ^{١٦}
او لانه ^{١٧} ذو عائلة كبيرة ^{١٨} لا يملأ بطون افرادها الحارة سوى
^{١٩} اموال العموم ^{٢٠} فيجىء هذا الكاهن ^{٢١} عبداً ^{٢٢} لمن سعوا في سياسته
لانهم اقاموه في هذه الوظيفة التي لم يدع اليها من فوق . ولهذا

يكون الكاهن مختصراً في خدمة النفوس بين قوم أجابهم أعلم
 منه واضعفهم اقوى منه . فهل ترين ان كاهناً كهذا قد ألف
 العبودية من صغره يتدر على التحرر من سلطة ذلك الوجهه
 او سيادة هذا الغي اللذين ألقيا نير العبودية على عاتقه ؟
 فقد جاء في كتبنا الدينية ان الكاهن مرآة الشعب .
 والأحرى برجل يخدم اعظم شيء ان يكون من اعظم الرجال
 ليقوى على تلك الخدمة ويقوم بها عن معرفة . فالكاهن يجب ان
 يكون مدعواً الى وظيفته من الله فيطلبها لذاتها وليس من اجل
 ما ينتج عنها من السطوة والمال والجاه . يجب ان يكون
 اعلم واقو . وافضل واشجع رجال القرية التي يخدمها حتى لا
 يضطر الى الخوف من أحد او الى مراعاة خاطر احد في قضاء
 واجباته الدينية . فاذا ذاك تعرف الرعية بان لنفوسهم ، مرشداً ،
 معتبراً لا ، خادماً ، مطيعاً لأغراضهم في ثوب اسود كثيراً
 ما يجيء فوق سواد مثله من الاخلاق فيصبح سواداً على سواد
 وكذلك فان كثرة الكهنة تنقص من قيمة الدين وإيمان المتدينين
 فان كاهناً واحداً كالذي اصفه خير من ألف كاهن كالذي
 لثمينه هذا المساء لان الناس يحتاجون خادماً لنفوسهم وليسوا
 ملتزمين ، بخدمة ، الكسالى الذين لا يقدرّون على أكل خبزهم
 الا بعرق جبين سواهم

— لقد فهمت كلامك عن ، الخوري ، ولكن ما هي

دعوى ١١ الخورية “ وحققا في اهاتني وتأنيك ؟
لقد عرفت وقاحتها ولكنني لم ارد اهاتها لكونها امرأة
ولكن امر بعض هؤلاء ١١ الخوريات “ عجيب غريب يافاطمة
فانهنَّ ينتقلن غالباً من جحيم الفقر الى نعيم اليسر بواسطة
احسانات الشعب وكرمه فيحسبن ان اكرام الرعية لهنَّ انما هو
بعض الواجب فتصبح الواحدة منهنَّ ١١ خوريتين “ لا خورية
واحدة .

— أليس هذا فساداً في الدين ؟
— لا تقولي ذلك لان الدين صالح في كل آن وأين
ولكن خدمة كل دين فريقان صالح وطالح ومعلوم انهم من
البشر وليسوا من الملائكة والذنب على الشعب الذي لا يفرق
ما بين اللؤلؤة والصدفة
وكنْتَ اسمع كلام سليم واحسبه وحيّاً لفصاحة الابهجة
وحلاوة المنطق وبلاغة المعاني فسألته

— وما هو الكاهن الحقيقي في اعتقادك انت ؟
- في اعتقادي انه قد مضى الزمان الذي كان الكاهن
يطاع فيه لمجرد ترمّله بثوب الكهنوت وحمله ١١ عصا الرعاية “
يضرب بها من غير شفقة

وخلفه زمان فتح العلم فيه عيون الشعب فأبصر وعرف
بان الله عمل وحبّ وحقّ وان خادمه يجب ان يكون مقتدياً

به . وان الكاهن يعتبر لشخصيته أكثر مما يعتبر بوظيفته
لان الصفات الراقية هي كأس بلورية لجوهر الوظيفة والعكس
بالعكس .

فكاهن العصر اذن يطلب منه ان يعلم الدين لا بلسانه
فقط بل بقلبه ايضاً وان يدرّس الفضيلة بمثاله لا بأقواله . لان
القول : " اسمعوا اقوالهم ولا تفعلوا افعالهم " هو تعليم
" شيطاني " لا يقبله العقل السليم والعين تنظر الى الافعال قبل
الاقوال .

ويجب ان يُنظَر للحاجيات الجسد مع حاجيات النفس لان
الانسان يعيش في هذه الدنيا قبل ان ينتقل الى تلك فاذا ارتاح
بهذه الدنيا اعد من اعماله موءنة صالحة للآخرة والا فلا
اذ ماذا يهيم الفقير الذي يكون بات من دون عشاء
وكساء هو وعياله اذا قال له الكاهن : " صم وصل لتكسب
الآخرة " انه يجيبه بكل جرأة يكون قد أوجدها اليأس
" انني احوج لخيرات هذه الدنيا مني للآخرة يا محترم . فمتى
حصلت على قسم من هذه اسعى في الحصول على تلك " ولكن
اذا اتاه ذلك الكاهن بقوله " انني خادم روحك وجسدك
يا ابني وقد دبرت لك عملاً تحصل منه رزقك وتسدد عوزك
وتشبع جوع عيالك فاعمل واجتهد ولا تنس ان تشكر الله على
انعامه فان ذلك الرجل ينادي باعلى صوته اذ ذاك " هذا هو

رجل الله فاحترموه !

ان الكاهن الحقيقي هو الذي يكون قدّام الرعية لدى كلّ
ملة فهو كالتأند الذي ان لم يقد جنوده الى ساحة الحرب
مخاطراً بنفسه لا يتحمس الجنود فيستهلكوا في سبيل المحاماة
عن وطنهم اقتداء به

واهم خلة تجعل الكاهن محبوباً من شعبه ولا سيما في
هذه الايام هي حبه لمصلحتهم وغيرته على روحياتهم وجسدياتهم
وتعاونهم واياهم على كل ما به خيرهم وخير بلادهم

وعند هذا الحد سمعت خرير دواليب عربة تجري بسرعة
وراء مركبتنا فأمسكت بذراع سليم وقلت له مرتجلة :

— ما هذا ؟

ولم اتم كلمتي حتى جازت تلك العربة مركبتنا وطلب راكبها
من حوذينا ان يتف بنا فأمره سليم ان لا يفعل فلما سمع
ذلك الرجل صوت سليم قال له :

— ليقف ياسيدي لان لي معك كلاماً ضرورياً

وكان الرجل خادماً للسيدة لطيفة فاوقف سليم المركبة حالا
فخرج الرجل من عربته ودنا منا قائلاً بصوت منخفض

— لقد أتى جمهور من العرب في طلب الفتاة وهم متسلحون

متحمسون وقد ارسلتني سيدتي لاختبرك بالامر

فقال سليم هذا ما كنت اظنه يحدث ثم قال للحوذي :

— اذا اوصلتني الى بيروت بساعة اعطيك خمسة ذهبات
انكليزية فبهزّ الرجل سوطه واجاب بسرور ,, أمرك ياسيدي “
اما انا فانتقلت من الارتجاف من كلام الخادم الى تفهم
كلام سليم للحدودي فقلت له سائلة :

— وهل المركز البطريكي في بيروت ؟
(متبسماً) ان لم يكن فيها مقرّ بطريكي ففيها باخرة
فرساوية او انكليزية

— وماذا تعني بهذا ؟

— ألم يقرّ رأينا على ان تتكلل ونسافر حالاً الى اميركا ؟

— بلى

— وما الفرق كان السفر قبل الاكليل ام بعده ؟ ,, كل
الدروب توصل الى الطاحون “

— وهل اسافر برققتك هذه المسافة الطويلة وانا غريبة
عنك ؟

— اننا خطّيان حبيبان .

فسكتّ لانني لم اقدر على غير السكوت مع انني شعرت
بوجوب الاعتراض على رأيه . وبعد سكوت عدة دقائق
والمركة تجري بنا كالسهم في هدوء ذلك الليل بين بساتين
التوت قلت له :

— ربّما طاردونا الى هناك ايضاً ؟

— ان استبدادهم لا يسلك في بلاد الحرية
 — يا الله انهم يطاردوننا كأننا لصوص او قتلة .
 — ان جريمتنا في اعينهم اعظم من القتل .
 — ولم ؟ أليس الزواج محلاً للبشر ؟
 — بلى ولكنهم ظلام عتاة فهم يلعنون ما يباركه الله
 و يباركون ما يلعنه . هم يسكرون و يطربون و يرقصون في
 عرس عروسين قد ظاموهما بان اجبروهما على الزواج لغاية تجارية
 ولو عدلوا لبكوا بدل ان يطربوا اذ يكونون يجترّون قلبي
 هذين العروسين لقتلهما فيهما عاطفة الحب وربما الفضائل ايضاً
 لأن الظلم يجرّ الى الشرّ و يضطهدون زواجاً قد بنى العروسان
 فيه قلعة سعادتهما على اساس الحب الحقيقي . فكأنما الموت في
 ائتمارهم حياة والحياة موت ، قتل الانسان ما اكفره “ !

✽ الفصل الثلاثون ✽

— العالم الجديد ونتائج المواعيد —

غداً توفي النفوس ما كسبت ✓
 ويحصد الزارعون ما زرعوا
 وقام الحوذي بوعده بل وبأكثر منه لانه اوصلنا الى بيروت

قبل الوقت المعين بخمس دقائق ولا تسألني كم كان دهشي عظيماً اذ كانت العربة تطوي بنا شوارعها المضائة فقد كانت هذه المدينة الاولى التي رأيتها في حياتي وفيها من ادلة الحضارة والعظمة ما فيها

ولما بلغنا الرصيف ورأيت تلك القلاع البحرية الراسية في الميناء خيّل اليّ انني ارى عالماً غير العالم الذي ربيت فيه وذلك لانني لم اكن قد رأيت من قبل بحراً الاّ عن بعد شاسع ولم اكن قد شاهدت باخرة قط

ولم نكد نزل من المركبة حتى تجمع حولنا من الرجال الذين لحفة حركاتهم وذلاقة سنتهم وحدة نظراتهم ظننتهم من غير اهل هذا العالم الجديد الذي كنت انظر اليه مأخوذة ولما سألت سليماً عنهم قال لي :

— هؤلاء هم ١١ بحرية بيروت “

وبينا سليم يكلم احدهم جاء اليّ اخر وأمسك ذراعي وضغطها فصرخت باعلى صوتي فاسرع اليّ سليم ولكنني ندمت حالاً على خوفي هذا ولم اذكر له الحقيقة خوفاً من وقوعه في بليّة .

وكان قد اتفق مع احدهم ان يهرّبه الى احدى البواخر مقابل ليرتين فقط فلما كنا في منتصف الطريق اوقفوا الزورق وقال احدهم :

— اذا لم تدفع لنا خمس ليات نرجعكم من حيث أتيتم
وكانت الباخرة على اهبة السفر وظروفنا لا تسمح لنا
بالتأخر فاضطررنا الى ان ندعن للظلم الفادح الذي عرفت بعد
ذلك من سليم ان لا بدّ للمسافر من احتماله سواء كان من جهله
ام من معاكسة الظروف له ام من خوفه

ولما تحركت بنا الباخرة اتكأ سليم على الحلق الحاجر
وارسل نظرة طويلة الى مدينة بيروت وقمم جبال لبنان البارزة
من ورائها . وقد عرفت ما كان لتلك النظرة من التأثير في
قلبه لما ظهر على وجهه من دلائل الشجون وفي عينيه من
آثار الدمع

فتقدمت اليه بقصد تسليته فقلت له

— انني لو كنت مكانك لما تأسفت على تركي بلاداً ✓
تلبدت في سماء قلوب بعض حكامها وروءسائها غيوم الظلم
والاستبداد فامطرت على سكانها مطر المصائب والشقاء بل كنت
بالعكس اسرّ لتخلصي منها

ان الانسان الشر يا حبيبي لا يسرّ اذا نجا بنفسه وترك من
يحب في بحر المخاطر فالجندي الشجاع يفضل الف مرة ان
يصرع في ساحة الحرب من ان ينكسر رفاقه ويخلص هو بنفسه
وانا اترك وطني الآن وبقلي حسرة عليه فانه من اشرف
بقاع الله واجملها ولعل هذا الفكر من اكبر آفاتنا لاننا نعيش

على ذكر ،، تلك آثارنا “ ونحن فضلاً عن ان نزيد عليها قد شوّهنها تشويهاً قبيحاً وفاتنا ان ،، المطحنة لا تطحن بالماء الذي جرى بل بالذي يجري “ . على رأي احد شعراء الانكلاز فانا اذن لا اعدّ ذاتي ،، قد تحرّرت “ وقلبي لا يزال مقيداً بهذا الفكر

وكان سليم قد استأجر غرفتين في الدرجة الاولى من الباخرة فكنا ننام ليلاً كل واحد في غرفته وفي النهار نصعد الى ظهر الباخرة نتحدث بالحديث الوحيد — حديث حبنا وبعد سفر ثلاثة ايام وصلنا الى مدينة الاسكندرية ومن هذه اشترينا كل ما نحتاج اليه من الامتعة والحوائج وبالحقيقة فأنني عند مناظر هذه المدينة الفخمة تركت تذكارات كل ما مرّ بي من الامور الاّ حب سليم لانه كان سبب حياتي ووجودي

فقلت لها اليس : لا شك انه كان بهذا المقدار عظيماً حتى انه سهل عليك تسليمك ذاتك اليه على هذه الصورة فتنهت فاطمة وقلت : ولعله يكون لي الشفيع على آثامي الماضية امام الديان العادل.

فقلت اليس . لا تقولي ،، اثيمة “ لانك لست كذلك وانت امرأة احبت فجّهات فاستوثقت من الرجل فخانها — لو لم تقولي ،، جهلت “ لما جاء كلامك لي عذراً اذ

لولا جهلي لما عذرت على عملي مطالعاً وانا احسب نفسي اثيمة
سواء عدني او لم يعدني الناس كذلك
— انا اعدك بريئة لانك انما اتيت ما اتيت عن

الخداع .

فرجعت فاطمة الى حديثها

— لما خرجنا من الاسكندرية كان قلبي مفعماً حياةً
جديدة انستني حياتي القديمة والمستقبلية ايضاً وهذه هي الطبيعة
البشرية . متى كان الانسان مسروراً لا يعود يظن الحزن
موجوداً ومتى كان حزيناً يفتكر من انه باقى له سرور في الحياة .
ومتى أتى امرأ فريئاً تظهر له خطارته في اول الامور ولكن ندمه
عليه وسروره به يتوقفان على ما يحدث عنه من النتائج فان
كانت حسنة يسر به وينسى او يتناسى الذنب وان كانت
سيئة يندم عليه باكياً متوجعاً . وهذا دليل حب الذات في
اكثر البشر الذين لا يفرقون بين المحرم والمحلل من الامور
بشرط ان يكون لهم من ورائها نفع شخصي . فلو اتى
الانسان امرأ مهما كان شريفاً وحصل له منه ضرر يتركه .
وبالعكس ان كان قبيحاً وحصل له منه نفع يتشبث به .
وهكذا فان حبنا لنفوسنا هو المحور الذي تدور عليه كل اعمالنا
ولم يكن اندهالي من مدينة مرسيليا وباريس الجميلة اكثر
منه من بيروت والاسكندرية لان الانسان متى تعود الشيء

ألفه الى حد الاستخفاف

فقلت آليس مازحة . اذن انت تقدرين على حب ايه
كان بسهولة الآن ؟

فنظرت فاطمة اليها وقد ترقق الدمع في عينيها وقالت :
— انك تمزحين ياسيدي مع انك تعلمين بان المرأة الشريفة
العواطف ليس لها سوى قلب واحد تحب به مرة واحدة في
الحياة

— نعم يا عزيزتي فاطمة لان النساء اثنتان : واحدة لها
قلب واحد كما قلت تحب به مرة واحدة رجلاً واحداً واخرى
,, بلا قلب “ او ان قلبها ,, بلا عواطف ,, فهي تحب
,, لاجل الحب “ فقط فهذه لا تجد الذ من التلاعب بقلوب
الرجال والضحك من عقول الجاهلاء . ومن تلاعبها وضحكها
ينتج ما نراه من البلاء

(بافتخار) : وانا من النوع الاول ياسيدي

— انا اعرف ذلك يا فاطمة وترينني رفيقتك في هذه
الطريق الضيقة فقد قسم اله الحب لهذا النوع من النساء ان
يكون اقل حظاً في الحب واكثر عذاباً لان كل نفيس عزيز
— وصلنا الى مدينة نيويورك كعبة المهاجرين وارض
ميعادهم وذهبنا تَوّاً الى بيت نسيب لسليم وهو تاجر كبير في
هذه المدينة فاستقبلنا الرجل بكل اكرام وتوافدت الناس للسلام

علينا . واطن ان ذلك النسيب قد ظنني زوجة سليم الشرعية وما ذكري للحوادث التي مرت عليّ اذ ذاك الا كذكر السكران للامور التي تمرّ عليه ابان سكره فانه بعد صحوه يذكرها كما لو كانت حلمًا مبهمًا ولم يعلق في ذهني غير تلك الحوادث التي كان لها تأثير شديد على نفسي

منها انني في تلك الليلة التي حضرت فيها للمرّة الاولى مجلساً كذلك المجلس لم اكن احوّل بصري عن سليم ولا سمع هنالك غير صوته ولا غرو فهو كان كل الدنيا عندي وكنت احياناً امرّ ببصري على اهل المجلس فأرى ابصارهم كلها موجهة اليّ ولم تكن كلها سارّة — فني بعض العيون كانت حراب تشق قلبي غيظاً وقد كنت اخاف من اصحابها لان تحديقهم فيّ كان داعياً الى النفور وابتساماتهم كانت شريرة غير مقبولة

— يوجد بعض فاسدي الاميال من الرجال ممن يحسبون ان الجمال مشاعّ فهم اذا ابصروا امرأة جميلة يظنون انها ثمرة شميّة المنظر لذينة الطعم يقدرّون على قطفها من اي بستان مهما كان مصوناً وما دروا بان الجمال الحقيقي عند المرأة الفاضلة الشريفة هو جوهرة يتيمة في حصن حصين من الصيانة اسواره من العفة والحشمة والتحذر والشرف لا يقدر اي كان على اقتحامها ولا تهتدّم والمرأة تعقل . ولا ارى اسفل من الرجل الذي

ينظر ان عرضه وحده يجب ان يصاب فيتعرض للأعراض
الغالية الممتعة ويكون جزاؤه الخزي والشم والطرء — وجزاء
قليل هو

— لا فُضَّ فوك ياسيدي فها هو لسان حالي وقد نمت
تلك الليلة على احمر من الجمر ولم اصدق ان اصبح الصباح
فالتقيت بسليم فطلبت منه ان يسافر حالاً الى حيث لا يشوش
افكارنا فكر ولا تدنس حبا المقدس عين بالتفتها او لسان
بنطقه وفي ذلك النهار عينه سافرنا الى بلدة صغيرة في الولايات
الشرقية

* الفصل الواحد والثلاثون *

— ١١ — كلنا في الهوى سوا —

وعند هذا كانت السيدة آليس قد شعرت بالنعاس ففتحت
ساعتها وقالت لفاطمة بدهش :
— اتدرين كم هي الساعة الآن ؟
— كلا .

— الساعة الثالثة ونصف صباحاً فيا للعجب كيف مر هذا
الوقت ولم نشعر به ! يجب ان نريح انفسنا بالرقاد القليل وغداً

نكمل حديثنا .

فودعت احدهما الاخرى وذهبت آليس الى غرفتها وفاطمة حملت ولدها الذي كان قد نام في ارض القاعة اذ لم يكن يقلقه حديث امه وذهبت ايضاً الى غرفتها وكانت قواها منهوكة من التأثر الشديد الذي هاج عواطفها واضطجعت بجانب طفلها على السرير لكنها لم تقدر على اغماض جفنها ثم اخبرتها رسماً صغيراً لسليم كان لا يفارق صدرها واخذت تنقل بصرها منه الى ولدها النائم كلاك طاهر . فترى في الاول صورة مصغرة لسليم وفي الثاني صورة كبيرة له فهاج بها الشوق واضمرت في قلبها النوى ناراً افارت دمه فصعد الى مدامها حيث تكرر واصبح ماءً صافياً امطرته تانك العيان فجاء مبرداً لنار قبالتها الرسم الكبير وجسم الصغير - قبلت فاطمة رسم سليم على ورق وقبلته على لحم ودم - فقبلت بذلك الوهم والحقيقة - ولم تكن تحسب ان في الغرفة غير سليم حبيبها لان افكارها كانت كلها متحولة اليه ولأن الانسان متى فقد عزيزاً له يظل ذكره ملازماً له فلا يصدق انه فقدته وكان ساكناً كهربائياً وصل افكار فاطمة بافكار مضيفتها وعينها بعينها فنبه الحاسنين فيها معاً ذكر الحب الذي كان بمثابة زر لفتح مجاري الكبرياء - فان آليس جلست في فراشها ايضاً ولم تقدر على النوم لأنها لم تكن خالية - هي كانت

اشد من فاطمة عذاباً في الحب لان هذه كانت قد نالت من حبيبها لقاء اما تلك فقد وقفت ملايينها وشبابها وحياتها له ولم تنل منه كلمة رضى او نظرة عطف — فاطمة كان لها ابنها ذكراً من الجيب — اما آليس فكل ما كان لديها منه رسمه وكتابه الذي قطع فيه آخر حبال آمالها — ولكنه كان اشرف ذكر واحب أثر وكان لا يفارق صدرها لجهة قلبها لحظة وصورته التي كانت قد دهنتها بالزيت بيدها وهو واقف امامها وهي تنظر اليه الآن وقد تهيّجت عواطفها الى حد الجنون وهذه الساعة — ساعة هياج الشوق بتبيج الذكرى — هي اهمّ ساعات الانسان في الحياة وقد يأتي فيها اعظم الامور من خير او شرّ لان عواطف النفس ترتفع فيها الى قمة طود الحدة والاستسلام فتجد هنالك قوة غير اعتيادية لا تيان كل أمر — فالويل للذي يطلق لنفسه عنان الشرّ اذ ذاك لانه بعد ان يهد يندم ولات ساعة مندم

✓ ومن خاصات النساء انهنّ متى اجتمعنّ وسمعن حديثاً حبيباً يكون ذلك المحدث كأنما لديه اسلاك كهربائية يصل كل سلك بقلب واحدة منهنّ فن ضغط على الزرّ في حديثه ينير او يظلم قلوب الجميع بحسب مجرى الحديث . ولا غرو فظالما قلب المرأة هو كالقمر لا يخلو من صورة رجل فهو لا يخلو من حادث حي . فتي سمعت امرأة قصة حب سواها تتذكر

حبها وهكذا يعم الحزن او الفرح كل القلوب
 فلاله يا ايها الحب ما اعظمك واحلاك شريفاً سامياً
 واحترق واقبحك منحطاً — انك داء القلب ودواؤه بوقت
 واحد .

وعندما صاحت ديوك الفجر رقدت المرأتان بوقت
 واحد — وكل منهما تجهل حال الاخرى وهما متساويتان
 بالشعور — ومن الامور الطبيعية في البعض انه ولو بات
 كل ليلة ساهراً لمرض او حزن او خوف فانه يجد عند الصباح
 راحة ان في النوم وان في سواه كأن هذه الفترة من الوقت
 وجدت لتزيل اضطراب الليل عن النفس وتدفع عنها تأثير
 ظلمته كما يدفع الفجر من امامه جيوش الظلام
 وأفاقت آليس أولاً على صوت خادمتها الخاصة التي كانت
 متعودة المجيء الى غرفة سيدتها في كل صباح لمساعدتها في
 حمائمها ولبس ثيابها وقد تعجبت اذ وجدت سيدتها لا تزال
 نائمة على غير عادة فنادت بلطف قائلة :

— هل تشعرين بألم ياسيديتي ؟
 ففتحت آليس عينيها وكانتا تميلتين متورمتين من تأثير
 البكاء واجابتها
 — انني لا اشعر بألم بل بنعاس شديد ولكن يجب ان
 انهض حالاً

وبينما الخادمة تهتم بترتيب شعر سيدتها حانت من هذه
التفاته فرأت بريد الصباح على الطاولة ففقت كتاباً عرفت
من عنوانه انه من نسيب لها ولم تتمّ قراءته حتى ظهرت على
وجهها لوائح الغيظ فرمته من يدها حالاً

ولما تلاقى بصرا آليس وفاطمة ذلك الصباح عرفت كل
منهما ما قاسته الاخرى في ذلك الليل فاليس كانت تعرف
سبب تورم عيني فاطمة كما هو اما هي فقد لحظت ان ١١ كاتيهما
في الهوى سوا “

وتفرست آليس تسأل فاطمة عن سبب بكائها وهي
باسمة فقالت :

— بيم تفكرين ايتها العزيزة ؟

— افكر في كيف انني كنت سبب انزعاجك وبكائك

فتنهت آليس واجابت : ان دموعي قد همرت على نفسي
اكثرا مما هي عليك فهل تظنين انك وحدك التعيسة في
هذا العالم ؟

— هل انت تعيسة ياسيديتي ؟

— بكل معنى كلمة التعاسة ياأختي

— وهل تعدّ تعيسة من كانت مثلك تقدر ان تحصل على
كل ما يحصل بالمال ؟

— نعم اذا كانت سعادتها الوحيدة في امر ١١ لا يشري

بالمال “

— وما هو ياترى ذلك الشيء في ارض يطاق على الريال فيها لقب ١١ كَلِّي القدرة “ ؟

— ان اولئك الذين يطلقون على الريال هذا اللقب هم ١١ وحوش البشرية “ ايتها العزيزة فهؤلاء الناس لا يفرقون بين الصحيح والفساد من الامور ولا يهمهم غير ملذاتهم وشهوات نفوسهم معها كانت دنيئة وقصيرة الوقت ومن لا يهيمه الشيء كيف أتى وبأي طريقة أتى لا يكون بتأليه للريال مخطئاً لان هذا يشتري كل شيء الا ثلاثة امور .

— ما هي ؟

— هي الجمال الطبيعي (واعني هنا الجمال المطلق المختص بالنفس والجسد) والحب الصادق . والشرف الحقيقي . وهذه الامور الثلاثة هي سعادة النفس السامية الوحيدة

— ما اندر وجود مثل هذه النفوس بين البشر ؟

— نادرة جداً ولكنها على ما يعترضها من المكاييد في الحياة سعيدة فكان افكارها بسموها على باقي النفوس البشرية تكون دائماً بلسماً لجروح قلبها المسببة عن وجودها بين تلك النفوس

وبعد سكوت دقائق رفعت فاطمة رأسها وقالت بهدوء

وجرأة :

— لو خيرتني ايّ امر اريده من الامور الثلاثة التي ذكرتها
لاجبتك، الحب الصادق، "لانه شمس منيرة في قبة نفس الانسان
يهبها الحرارة والنور — حتى في وقت تعاستها — ومن كان قلبه
مملوءاً حباً لا يعدّ محروماً من الفضل

فابتسمت فاطمة ابتسام من يعرف في نفس الآخر ميلاً
الى تأييد مبدئه ويريد مساعدته وقالت :

— لقد صدقت . فالحب استاذ البشر ولا توجد فضيلة
الآ وهو موجدتها فهو الاساس الذي بنيت عليه النفس البشرية
فالله كله حبّ يا فاطمة وهو قد خلق الانسان على مثاله ولكن
متى عكس مبدأ الحب عكست له نتائجها الشريفة اما الآن
فهاقي لنا كمال قصتك التي اضافت الى جروح قلبي جرحاً بليغاً
— انك كريمة الشعور ياسيديتي

— لا فضل لي بذلك لانني امرأة قد ذقت طعم الحب
مثلك ومتى رأيت امرأة تشعر مع الاخرى شعوراً حقيقياً في
شيء من الاشياء فاعلمي بانها قد عاتته قبلها .



* الفصل الثاني والثلاثون *

— شيخ المائدة —

✓ كم نعمة زالت بأدنى زلةٍ ولكل شيءٍ في قلبه سبب

عند ذلك قرع جرس الفطور فقالت آليس لضيفتها
 — ان وليمي بسمع قصتك كاد ينسيني الاكل فهلمي بنا
 الى غرفة المائدة الآن. ولما دخلتا حدّق الشيخ الى فاطمة
 تحديقاً غريباً ثم رجع الى عمله على المائدة فابتسمت آليس
 من نظراته وقالت بلطف :

— اعذرني يا عمّ فقد بدا مني تقصير بعدم تعريف ضيفتي
 السورية الجميلة اليك ثم اخذت يد فاطمة بيدها وقالت لها :
 الخواجا جان كراهام — السيدة فاطمة — ونظرت الى وجه فاطمة
 بخجل وقالت — اعذرني فاني اجهل باقي اسمك
 فقالت فاطمة بجزن : هذا هو اسمي بكامله ياسيدتي — ادعيني
 فاطمة فتمط او فاطمة التعيسة او الشريفة اذا شئت
 فأحنى الشيخ رأسه لفاطمة علامة الاحترام وقال لا آيس .
 — قلت انها سورية ؟

نعم

ظننتها ايطالية — انها تشبه بنات وطني

فسألته آليس قائلة وهل انت ايطالي يا عم ؟

قال نعم انني ايطالي . ورمى آليس بعينين حادتين فارتجفت
واحمرت وجنتاها وجلست الى المائدة حالاً تحاول اخفاء
عواطفها بالنظر الى صفحاتها

اما هو فرجع الى عمله ففتح قنينة من الشراب الفاخر ووضعها
على المائدة وهو ينظر الى آليس وهي مطرقة وقد رجع الى عينيه
بريق الصبا وفي هذه المرة غلبته عواطفه فلم يعد قادراً على
البقاء هناك فقال لا آليس متلعثماً :

— هل تحتاج سيدتي اليّ الآن ؟ فاني اشعر ببرد منذ

هذا الصباح فما اقوى على الوقوف

— انا تقدر على خدمة انفسنا يا عم فاذهب الى غرفتك

وأرسل استحضر الطبيب .

فخرج حالاً من تلك الغرفة وهو يقول : لا ارى نفسي في

احتياج الى طبيب الان

وبعد خروج الشيخ نظرت آليس الى فاطمة وقالت لها :

— ان هذا الشيخ قد تكلم الآن اكثر مما تكلم في

نهار كامل منذ شروعه بخدمتي

اذن هو كالأخرس

انه احياناً يتكلم كلمة او كلمتين فقط وذلك عند الضرورة
 لكنه يطالع كثيراً وغرفته عبارة عن مكتب نفيس فيه خمسةائة
 مجلد ويتف من لغات شتى وقد صار له في خدمتي سنة
 وأمره فيها عجيب غريب فاني اعلنت مرةً باحتياجي الى خادم
 للمائدة يكون سنه فوق الخمسين فأتاني مكاتيب طلب كثيرة
 من جهتها كتاب بخط جميل يقول صاحبه فيه انه ماهر في
 هذا الفن ولكنه يشترط عليّ ان لا اجبره على الكلام ولا
 أكله الاّ حينما يريد هو ذلك فقبلت خدمته رغبة في شرطه هذا
 العجيب فوق كل شيء وقد قضى كل هذه المدة بخدمتي ولم
 يحوجني الى الشكوى من شيء كما انه لم يكلمني فوق الخمس
 الى العشر كلمات في النهار ولكنني احبه جداً ولا ابدله بسواه
 تحت كل الظروف

— لله ما اعجبه !

— للناس في ما يرتأون مذاهب يا صديقتي ولا اظن
 سكوت الشيخ لغير سبب موجب ولكنني ارى انك خرقت
 بوجودك نظام لائحة حياته فلعله وقع في شرك هواك . . .
 فابتسمت فاطمة من مزاح اليس التي كانت تقصد به
 تسلية خاطرها وقالت :

— يمكن للناس ان يهووني بكل ما في قلوبهم من
 العواطف اما انا فلا عاطفة في قلبي اهوى بها احداً بعد الآن

— هذا ما يدعونه الحب من جهة واحدة
 — وحب عقيم هو لان صاحبه يذيب قلبه الشوق الى
 من يهوى وهذا لا يكون دارياً به او انه يدري ويتجاهل .
 — ما اشبه هذا بشخص يرى شخصاً آخر يحترق امامه
 وهو واقف ، يتفرج ، ويقول ما اجمل منظر هذا
 اللبيب !

كفى ! كفى ! ياسيدي العزيزة . ان كلامك يذكرني
 بحالتي الماضية مع حسن التي تعذبني اكثر مما تعذبني حالتي
 الحاضرة فان المسكين كان يحترق بنار حيي وانا ازيد ضرامها
 في قلبه برش ماء تهكي البارد عليها — فلما صيرته تلك النار
 رماداً وقت تجاهها العن يد حيي الغادرة التي اضرمتها — وهنا
 غصت فاطمة بطعامها ودموعها واخذت تشهق حتى تفتت لها
 قلب آليس فقالت لها بلطف وهي تضع يدها على كتفها :
 — انني لم اقصد تعكير صفائك بقولي يا عزيزتي ولكن
 المجروح ينكأ جرحه اقل شيء ولكن ما هو ذنبك انت الى
 حسن ؟ لأنه احبك ولم يجد في قلبك ما هو مثل حبه تعدين
 مذنبه ؟ انه مات بارادة الله .

انا اعلم ذلك ولكنني ابكي اسفاً على كوني سبب
 موته وسبب عذاب نفسي وجزر العار عليها وعلى قومي وسبب
 وجود هذا الطفل التعيس في محيط الشقاء

— لا ذنب في ذلك لاحد فانها ارادة الله فيجب ان
تتم وان نختلمها بصبر
— وهل الله الذي يقولون عنه انه كله حب للبشر يأمر
بعذابهم؟

— انا لا اعتقد ان الله يحب ان يتعذب ابناؤه ولكن
جهلنا يجرّ علينا بلايا كثيرة تنسبها الى ارادة اقوى من
ارادتنا .

— ولعل هذا اصل افتكار البشر ان كل شيء يجلبه الانسان
على نفسه يكون من الله رأساً او انه مقدر لا يحول ولا يزول
فلا يسمعون هم لتغييره او اصلاحه .

— ان يد الله فوق كل يد ايتها العزيزة ولذلك فقد قيل
"لا تسقط شعرة من روءوسكم الاّ بارادة ايكم السماوي" .
والكتب الدينية والعقل تعلمنا ان الله خالق لكل منا عقلاً يعرف
الخير والشرّ واطلق لنا حرية العمل في دائرة تدبيره الابدّي
ولكن مجرد كون الله خالقاً لهذا العقل لا يجعله تعالى مطالباً
توّاً باعمالنا الدنيوية التافهة . واعتقادي ان اكبر نعمة يرسلها الله
للشّرع في العقول الكبيرة واكبر نقمة هي في العقول
الصغيرة وان الجهل وحده سبب تعاسات واضرار البشر

ولكن الانسان مهما بلغ من العقل يظل جاهلاً اموراً

كثيرة ويظل الجهل سبب اضرار البشر فسبحان خالق
الخالق .

﴿ الفصل الثالث والثلاثون ﴾

— الزواج المدني —

وهنا نهضت آليس وفاطمة وذهبتا الى قاعة الاستقبال
وبعد ان جلستا عادت فاطمة الى حديثها فقالت :
مضى على وجودنا في تلك البلدة شهر كنت ابيت في
نزل وسليم في آخر ونجتمع في النهار نفتش عن عمل نتعاطاه وقد
اصابنا من اليأس والقنوط ما يصيب كل مهاجر لاول عهد وصوله
الى اميركلا ومع ان سليماً كان يحسن الامة الانكليزية لانه خريج
الكلية الامريكية في مدينة بيروت فقد كان قليل الخبرة في فنون
التجارة وعاجزاً عن مواولة الاعمال الشاقة شأن اولاد الاغنياء الذين
لا يليق بهم سوى الاعمال العظيمة الشريفة على زعمهم وهذه لم
تخلق لـ " لكل الناس " فالرجل الذي لا يقدر ان يعمل او لا يحب
ان يعمل الا العمل الذي يسهره ويربجه المال الجزيل ويكسيه
الشرف الاثيل " هو واحد من الالف من الفائزين في هذا
المعترك الانساني اما الذي يعمل اي عمل حسن يقدر عليه

بشرط ان يدرك عليه المال فهو الذي عناه شاعرنا العربي بقوله :
 وإنما رجل الدنيا وواحد

من لا يعول في الدنيا على رجل
 وقد رأيت ذات يوم يتدمر من دهره ويلعن ظروفه
 فخفت جداً من ذلك لئلا ينسب نحسه اليّ ويقول اني كنت
 السبب في عذابه فيغضني لاجل ذلك فتقدمت اليه وقلت
 له بجنون :

— ألا تشتري لي كمية من البضائع ؟
 — لم ذلك ؟
 — لأخرج متجوّلاً ابيعها
 فتصاعد شرر الغيظ من عينيه ولو لم يطفئه ماء الحب فيها
 لاحرقني وقال :
 — انت تخرجين للتجوّل والبيع ؟
 — نعم وهل انا احسن من غيري ممن يتعاطين هذه
 المهنة ؟

— انت احسن من كل نساء العالم عندي
 — هذا ما لا اجهله وهو سبب كاف يحمني على مساعدتك
 في اوقات ضيقك فاني متعودة المشتات اكثر منك واكون
 سعيدة اذا مهلت لك سبيل النجاح
 فأطرق مفكراً ثم رفع رأسه اليّ وقال بتأنٍ :

— ان اخلاصك يهيني قوة جديدة يا فاطمة العزيزة ولكن هل تظنني الى هذا الحد جباناً لأتكل في تحصيل رزقي على امرأة؟ وهل تحسبن حيي بهذا المقدار ضعيفاً حقيراً بحيث اني اسمح للمرأة التي اصطفيتها لان تكون ريحانة قلبي من بين كل النساء بالنزول الى ميدان الاشغال حيث تصبح شوكة تدميه؟ فكيف يمكنني انا الذي عاهدت نفسي وشرفي على المدافعة عنك بكل قواي في معترك هذه الحياة ان اسمح لك بمحاربة الدهر واقتحام المخاطر والتعرض للاهانة، لتطعميني؟ فخير لي ان اتجمع سماً زعافاً من ان اعول برزقي على ساعدك الذي وجد ليساعدني قليلاً ولكنه لم يوجد ليشغل عني ويريحني . فيا للجبانة واللعار!

فأثر في نفسي كلامه وبكيت وقلت له :

— اصفح عن ذنبي ياسليم فانا لم انظر الى الامر من هذه الجهة وقد جراني على هذا الطلب ما رأيته من معاملة أكثر الرجال السوريين لنسائهم هنا فحسبت الامر زيباً لا بأس من اتباعه

— ان بعض الرجال لا يهمه سوى الريال كيف وبأي واسطة أتى فهو بدلاً من ان يحمي المرأة يلتجئ الى كنف حمايتها شأن الزعديد الجبان .

— ومن ترى يلومه وهو حرّ بامرأته ؟

— وهل المرأة أمة يتصرف الرجل بها كما يريد ؟ ان
الهيئة الاجتماعية يجب ان تقاصه باحتقارها له ويجب على امرأته
مخالفته اذا طلب منها ما يشينها . فليس من العدل ان تشقى هي
ليرتاح هو في معاهد القمار وأندية الكسل والعار .

— وقد تكون المرأة محبة فترضى بالشقاء لينعم من تحب
— آه من هذا الحب كم من الجرائم تفعل باسمه ! فهل
الحب سوء ارادة الخير للغير ؟ او بلغتنا نحن العشاق محبة
الحبيب فوق النفس . فأين هو إذن حب رجل زالت المروءة من
رأسه والعطف من فؤاده . فتأنت “ بعد ان “ رجل
امرأته ؟

— لا اعلم . لا اعلم . وكما اعلمه انك بطلي الشجاع
الشريف وأنا اعبدك .

قلت هذا وحولت وجهي عنه حياءً فوضع يده على كتفي
وقال :

— اراك نسيت أمر زواجنا أيتها الحبيبة فما هو الشغل حتى
انه يشغلك عنه ؟

فصبغ وجهي حياءً وقلت له :
انني لم انس ذلك ولكنني لم اتقدم عليك بالرأى بل
تركت الامر لتدبيرك
لقد افكرت في امر فيه راحة لكلينا .

— وما هو ؟

تقترن بحسب الطريقة المدنية فيكون زواجنا شرعياً وبعد وقت تتكلم على يد كاهن مسيحي فاضطرب قلبي لكلامه ولكنه لم يسعني سوى الامتثال فقلت :

— وهل يكون زواجنا على هذه الصورة شرعياً ؟ وهل تعتقد انت بهذا الزواج ؟

— ان زواجنا يكون شرعياً بحسب الطريقة المدنية وللحال ذهبنا توّاً الى المحكمة فأخذنا اجازة الزواج المدنية فصرت زوجته وصار زوجي ولكنني كنت طول الطريق افكّر في قبولي الزواج على طريقة لا افهمها ولكن ما عسى ان يكون اعتراض فتاة محبة جاهلة على آراء رجل تحسب ان ارادته شريعة ولكن عاطفة داخلية كانت تنبئني بان زواجنا هذا غير متين الاساس .

ولما رجعنا الى المنزل ضمّني سليم الى صدره وقال :
— لقد اصبحنا الآن جسداً واحداً لا يفصلنا غير الموت .
فانظري الى هدوء هذا الاقتران يا حبيبتي اذ لا يوجد فيه آلة طرب ولا قدح مدام ولا اصدقاء يفرحون معنا به ولكن فيه شيئاً اعظم واسمى من كل هذا فيه هدوء الثبات وصوت نغمات الحب وطعم مدام الرضى والسعادة أليس كذلك يا فاطمة ؟

او ليس هذا البخور الذي نحرقه الآن وحدنا على مذبح حبنا
اكثر قبولاً لدى الله من كل ضوضاء العالم وضجيجه للذين
يكون حشوها التديليس والمخادعة والكذب ؟

وكنت متكئة على ذراعه ورأسي على كتفه وعيناي
مرفوعتان الى عينيه وهو ينظر فيهما بحنو فقلت :

— انني اسعد النساء بمحبك . وهذا الحب هو قوتي وقوتي
كما انه شقائي وهنائي . ولكنك تقول انه لن يفصلنا غير الموت
وكنت اظن ان هذه الجملة لا تقال الا في صلاة اكيلكم كما
اخبرتني مرة

فابتسم قائلاً : كل الطرق تؤدي الى الطاحون “

— وهل كنيسة تقرر بهذا الزواج وتعتبره شرعياً ؟

— ان الكنيسة الكاثوليكية تعتبر زواج الكاثوليكي
بالكاثوليكي على هذه الصورة لغوياً واما ان كان احد الزوجين
غير كاثوليكي وكانت ديانته تعتبر الزواج المدني شرعياً فان
الزواج يعدّ عندها صحيحاً لا يقبل فيه الطلاق

ففرحت بهذا القول ورفعت ذراعي فطوّقت بها عنق سليم
وقبلته لأول مرة لانني في ذلك الحين حسبته زوجي الشرعي
الوحيد الى الابد .

* الفصل الرابع والثلاثون *

— أعن معرفة أم عن خداع —

إذا ما أتيت الأمر من غير بابه
ضلت وان تدخل من الباب تهتد

وكانت أليس تصغي الى حديث فاطمة الاخير بكل انتباه
فهزت رأسها وقالت :

— اذا لم يكن قول سليم لك عن صحة زواجكما عن
جهل فانه قد خدعك

— ان سليماً لم يفكر قط في امر خداعي الا في آخر
ساعة من ساعات اجتماعنا واذا التقيت به اعرف سبب تركه لي
على تلك الصورة واضن ان الداعي شيء مهم جداً وربما الى
وقت قصير — لأنه كان يحبني

— ارجو ان يكون الامر كما ذكرت ولكنني اعيد ما قلته
لك من ان سليماً قد خدعك اذا لم يكن جاهلاً لقوانين
الكنيسة الكاثوليكية في سر الزواج المدني فان زواجكما فاسخ

لأنك غير معيّدة والطلاق يجوز في مثل زواجكما في هذا
الظرف الوحيد فقط

٤ فلما سمعت فاطمة كلام هذه السيدة التي وثقت بها صرخت
بأعلى صوتها قائلة :

— لقد خدعني إذن — لقد تركني الى الابد — لقد
هجرتني — آه من غدر الرجال ! انه كان يمّوه على عقلي بان
زواجنا شرعيّ لأعامله معاملة زوجة لزوجها اما هو فلا
يهمه كيف عاش لان العالم لا يحسب له ذنباً وهو رجل .
وبلغ التأثير من فاطمة مبالغاً عظيماً فأغني عليها مدة عشر
دقائق كانت آليس ترشّ عليها فيها من دموعها ماءً فوق الماء
الطبيعيّ

فلما استفاقت فاطمة اخذت آليس تعتذر لها وتظهر أسفها
على تأثرها فقالت لها تلك :

— لست أول من قال لي هذا القول ياسيدي فقد نصحتني
احد المخاصين ولم اقبل نصيحته حتى ولم اذكرها لسليم لفرط
ثقتي به وظني انها سعيّة . فآه من الجهل متى كان قائد المرأة
في حياتها !

فقالت آليس ان الجهل سبب اكثر اضرارنا ايها العزيزة
وسيزل كذلك ما دام الانسان غير قابل الكمال ولكن من
الضرورة الكلية ان يكون الانسان ذا اختبار قبلما يثق لان هذه

تكون طريق تعاستنا المملوءة من شوك المصائب والالوجاع

— وهل ألام على جهلي اذ ذاك ؟

كلّا ثم كلّا بل المطالب بتعاستك انما هو الرجل سواء
كان اباك الذي اهتضم حقوقك (اذ انه لم يعرفها لجهله هو
ايضاً) ام حبيبك الذي داسها . انه هو المذنب لانه اضر
بيده مشعل الحب في قلبك وبكل قساوة تركك تحرقين
بناره .

ولم يكن تأثر آليس من الظلم الواقع على فاطمة وان تكن
لم تعرف كامل قصتها بعد بأقل كثيراً من تأثر فاطمة نفسها
لان قلب المرأة الشريفة لا ينبض باكثر تأثراً وصدقاً في
وقت من الاوقات نبضاته وقت شعورها بظلم بنات جنسها
قالت لفاطمة :

— دعينا من سرد قصتك الان وهلمي الى الحديقة

لتنشق الهواء النقي

— ان الذي يمتتي حسرة هو ان اكون محترقة من رجل
احتقرت كل شيء حتى نفسي من اجله وهو وحده الذي اوجد
لي سبب هذا الاحتقار اولاً

— انا لا اومك بل اشعر معك لان هذا اهم ما يجرح

عواطف المرأة ويذبل زهرة كبريائها وهل اقبح والألم من
الرجل الذي تجاريه امرأة بشيء يكون قد زينه لها وأغواها فيه

حتى اذا شاركته فيه يحتقرها في سره وكثيراً ما يجاهر
 باحتقارها كأنه هو بمشاركتها في العمل ذاك او بايقاعها فيه
 قد أتى فضيلة يشكر عليها وهي أتت رذيلة تعاب بها وهو بيد
 جريئة ولكنها مدنسة ينتزع رداء العار عن منكبيه ويضعه على
 منكبيها الضعيفين والهيئة الاجتماعية تنظر اليه بعين هادئة مطمئنة
 ولكن اعلمي ياأختي بان فوق يد البشر يداً اقوى واعظم من
 يدهم وهي التي تضرب بعضاً من حديد على رأس الباغي
 وتنصف البريء وترحمه . فنظرت فاطمة الى طفلها وللحال
 امتلأت عيناها بالدمع وقالت :

-- اواه ياسيدي اني عندما افكر في صنيع سليم بي
 وبهذا الطفل التمس الذي كان هو سبب وجوده في هذه
 الحياة طعاماً للشقاء وعرضة للبلاء اكاد ابغضه . ولكن ماذا
 ينفع نداء الانتقام اذا كان القلب اصم لا يسمع الشكوى
 واخرس لا ينطق بكلمتي ,, البغض والسلوان “ ؟



* الفصل الخامس والثلاثون *

— هل السعادة في امر مخصوص —

ربّ أمرٍ يسوّه ثمّ يسرّه وكذلك الزمانُ حلّو ومرّه

دخلت فاطمة الحديقة وراء آليس وهي تسقي ازهارها
بدموعها الحارّة فتساعد الشمس التي كانت حرارتها في اّبان
اشتدادها اذ ذاك — على إذبالها وجلسنا على مقعد حديدي
بازاء شلال اصطناعي من الماء المتدفق من افواه الاسود
الرخامية والنمورة المرمرية . وكان ذلك المنظر الطبيعي الذي
عظمته يد الانسان وتلك المياه المتدفقة وشذا انزهور الفائح
ارجعت الى فاطمة ذكرى ايامها الماضية ايام كانت تسرح
وتمرح في ظلال الطبيعة وهي خالية من الهمم كصفورة الحقل
فاصعدت من صدرها زفرة لتخفف قليلاً من اتعابه وقالت
لا آليس التي كانت ترنو اليها :

— اني بنت الطبيعة ياسيدي ولا يسرّني شيء مثل
الاحتماء تحت كنفها .

— ليس كالطبيعة هيكل تتجلى فيه قدرة الخالق او
مكان تهلأ فيه النفس وترتفع بشعورها عن المادة الى سماء
السمو

— ولا يوجد رضى او قناعة او سعادة الا فيها
— ولكن نفوس البشر في عصرنا هذا لم تعد تجد في
الطبيعة ما يسدّ مطامعها لأنها تمتغي الشهرة والتوسع والخروج
من دائرة القناعة والمعيشة الهنيئة البسيطة والولوج في باب
البذخ والفخفة المدنية التي اكثر انواعها تشبه بقرة حلوباً لبنها
الصافي سمّ نافع لعقول وقلوب الامة

— وأي عيشة تفضلين انت ؟

— تسأليني ماذا أفضل لنفسي ام للبشر كافة ؟

— للبشر كافة ولنفسك

— (مبتسمة) هذا سوءال لا اجد الجواب عنه سهلاً
لان كلامي لا يقدم ولا يؤخر في معيشة البشر وذلك لأن ما
يراه الواحد موافقاً لا يراه الكل كذلك فسعادة الانسان
ليست في شيء معلوم بل هي تتوقف نوعاً على مطالب نفس
الانسان وامياها الغريزية ولكل نفس نوع من المطالب والاميل
يختلف عن الآخر . وانما كلامي في السعادة الوقتية الجزئية
لان السعادة الكلية الدائمة لا وجود لها في هذا العالم .
— ان كلامك حق لانني انا احسب الحب وحده هو

السعادة الحاصلة والحياة

— هكذا تقولين انت واظن ان الكثيرين من رأيك لان الحب للنفس كالزيت للآلة يجلو صدأها ويسهل حركتها ويطيل بقاءها ولكن كثيرين من البشر ايضا يبيعون الف حب وحبيب بريال واحد . وغيرهم يسمعون ترنيمات السعادة خارجة من صرير اقلامهم كأثما من افواه وقلوب اعز الاجباء وآخرون يجدونها في رءوس الحراب او فيما بين الغيم والضباب . حتى ان بعض سيدات العصر يجدن سعادة في ملاعبة الهررة والكلاب وهكذا فالذي يحب شيئاً اكثر من غيره في الحياة يجد فيه سلوى عن سائر ما فيها ولا يجد في كل ما سوى ذلك الشيء سلوى عنه . أحبي شيئاً او شخصاً كل الحب فيكون لك كل شيء — اما انا يا عزيزتي فاني من مبدئك فان سعادتي في ذكرى الحب — في خياله ووهمه — لا أني لم ار حقيقة قط

وكانت أليس تتكلم وهي تنظر الى الماء المتدفق امامها وقد حلت افكارها من تلك الدائره الضيقة الى فضاء افسح واجمل ولكنه اظلم فخافت ان تهيج عواطفها الى درجة لا تأمن معها الضرر وهي لا تزال منزوعة من حوادث الليلة الماضية فحوّلت وجهها نحو فاطمة وكانت هذه متعمقة في لجة التفكير وقد اتخذ وجهها هيئة الرزاة والهدوء — ولا هدوء الموت —

فسألتها أليس عن سبب ذلك فأجابتها

— انني حينما اسمع كلامك الدرّي وأقف على ارائك
السديدة اشكر التقادير التي اوقعني في يد سيدة فاضلة صالحة
نظيرك وفي الوقت ذاته اودّ لو كان قدّر لي هذا الحظ قبل
سقوطي في وهدة الانحطاط والشقاء اذ لا اقدر على الاستفادة
الآن لانني كما قلت حضرتك احببت شخصاً كل الحب فاصبح
في عيني الدنيا كلها وما قد فقدته ففقدت بفقدته جوهر الحياة
وكل جميل حسن فيها .

— انك مصيبة ومخطئة معاً يا فاطمة : مصيبة بتقديرك
نصائح المرأة للمرأة حق قدرها لان المرأة بارشادها لاختها في
الجنس تنشلها من وهدة الشقاء والنقائص اذا أحسنت والاّ فانها
تضلّها فالمرأة اذن مهلكة المرأة ومخلصتها واما يأسك من اصلاح
حالك فهذا ما لا اقبله منك لان الحياة اذا اصلحت في آخر
ساعاتها تعدّ كلها صالحة فضلاً عن انك بريئة من كل ذنب مقصود
ويجب الآن ان تنزعني اوهاملك عنك وتعيشي لاجل ولدك
— قد يكون ذلك بعد وقوفي على امر سليم لا قبله
— اراك في كل شيء ناعمة كالحرير يا صديقتي الا في
هذا الامر فانك صلبة كالصخر

— انك لو عرفت ما في قلبي لعذرتي
— اعرف ما في قلبك لانني ذات شعور كشعورك ولكن

هل تعديني بانك متى عرفت امر سليم ويئست من الاجتماع
به لا تسمحين للتغوط ان يساعد على قتل مستقبلك ومستقبل
ابنك ؟ انني احببتك يا فاطمة . وسوف ترين مني مساعدة
تعينك على السلوان وتعين ولدك على مستقبل عظيم مجيد .
فلم يسع فاطمة عند سماعها هذا الكلام الا ان تجثو امام
تلك السيدة المحسنة كما يجثو المؤمن امام تمثال الالهة وتقول —
ودموعها تتساقط كالطر:

— انني اعدك — اعدك . ياسيديتي الكريمة اذ من
يجازي النعمة برفضها ؟ ولكن بشرط ان تعديني انت بانك
تسمحين لي بالذهاب هذه الليلة
فأمسكتها اليس بيدها لتساعدتها على النهوض وهي تقول
بلطف :

— وهل نسيت انك لم تنتهي من سرد قصتك بعد ولم
تسمعي قصتي ؟

— اذن أكل لك قصتي الآن اذ لم يبق منها الا القليل
— كنت افضل ان تبقيا الى الغد لانك متأثرة تأثراً
شديداً الآن .

— ان كل كلمة أقولها لك هي كنبرة تخرج من قلبي لانني
اجد في سرد قصتي راحة لم اشعر بمثلها بعد ابتداء مصائبي .

* الفصل السادس والثلاثون *

— الفرق بين العلم والجهل —

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

فتنهت فاطمة وقالت : في اليوم الثاني من اقتراننا حظي
سليم بمحل مناسب فعزا هذا الامر ,, لوجهي المسعد “ لان
السوري مفلطح على الرجوع بنتيجة سعيه الى اشياء غير منظورة
وهو يلتذ بعزوه امر نجاحه ,, للسعد “ لا للاجتهد ولو جرّد
نفسه من وظيفة المعرفة والنشاط . ويمسلي ان ينسب فشله الى
,, النحس “ ليكون له بذلك سلوى عن التقاعد والكسل وما
كان نحس الانسان وسعده غير جهله ومعرفة كيف يتصرف
بالاحوال ويكون مع الظروف

وبعد ان ملاّ المحل بضائع تمشّى شغلنا رويداً رويداً على
قدم النجاح وكان سليم يحب العمل وانا اساعده كما كان يقول
بوجودي معه وبالحقيقة لم اكن اعمل كثيراً الا اذا حسبت
مسايرته ومسامرته عملاً . وتلك الايام كانت اسعد ايام حياتي
لانا نسينا فيها الماضي واهملنا امر المستقبل وكانت سماء الحاضر

صافية من غيوم الأكدار فوق رؤوسنا
 لم تمض مدة قصيرة حتى أوفينا ما على المحل من الديون
 وزدنا فيه بضائعه . اما انا فقد كان لي من الحياة مقصدان الاول
 ارضاء سليم باتيان كل ما يأول الى راحته وسعادته . وهذا كان
 سهلاً لان الحب ابو الرضى . وقد كان سليم يريني هذا الرضى
 عن اعمالى بكل كفة وحركة وابتسامة وقبله . ولا سعادة توازي
 سعادة المحب يرى حبيبته يمتبر خدماته له ويرضى عنها . والامر
 الثاني كان سعيي المتواصل لرفع نفسي الى مقام نفس سليم
 واجلاسها معها على عرش العلم والتهذيب

فقد كنت اجتهد لبلوغ هذه الامنية متفانيةً لأعزز مقامي
 عند زوجي بالمساواة من جهة ولأعترز واقتخر بانى قدمت له في
 امراته ما يليق بمقامه واما لذاتى فلم اكن اطلب شيئاً الا ان
 يكون في نفسي وجسمي وقلبي كل ما هو جميل من اجله فقط
 واول درجة صنعتها من سلم الارتقاء هو اني ألححت
 على سليم بتعليمي القراءة فسرّ بهذا الطلب لانه كان يجب
 المرأة الراقية واي رجل مرتق لا يجب الارتقاء لامراته؟ فسررت
 بسروره لانني كنت دائماً اخشى زوال جمالي الجسدي مع
 السنين بحيث يشف هذا الزوال عن هيكلي نفسي العاقل من
 حلي العلم والتهذيب فتفتر محبة سليم من نحوي
 وعند ما صرت اعرف قراءة اللغتين العربية والانكليزية

قليلاً اخذت حقيقة اشعر بان المرأة لا تحسب شيئاً بازاء الرجل
ما لم تدانه في المعرفة .

فقضت علينا خمس سنوات كانت في اثنائها اشغالنا سائرة
على قدم النجاح فاستأجرنا بيتاً للسكن في تقطة جميلة وفرشناه
بالفرش الثمين والاثاث الجميل وزرعنا حوله حديقة غناء كنت
انا وسليم كطائر ين نغرد بين ازهارها في كل مساء باصوات حبنا
وغرامنا وكان بيتنا مركز اهل العلم والادب من الامريكان
والسوريين وهذا مما زاد في تقدمي العقلي لان المجالس الراقية
هي اعظم مدرسة للمرأة

فهنا سألتها اليس قائلة : انك انتقلت من وسط البداوة
الطبيعي الى وسط المدنية ، الاصطناعي ، فايهما تفضلين ؟
— كلما عظمت الاشياء عظمت ايمانها ياسيدي ولقد دفعت
ثمناً للحضارة العظيمة ما هو عظيم مثلها بل اعظم لي انا بحيث لم
اعد قادرة على التمييز بين الحالين

— ولكن ايها احسن في نظرك أمدنية العرب قومك ام
مدنية الامريكان ؟

— انني تربيت في حضن الطبيعة تربية تقيّة بسيطة قنوعة
فشغلت بالرضى بها عن معرفة مجد العالم وعظمة الدنيا كلها
فعمشت قناعة خاطر ناعمة البال ارى ان اطماري البالية هي
رئيتي وحلاي النجسة كانت ثمينة عندي وكانت الماشية التي

لأبي سلواي ومنظر الطبيعة البهيّ قرّة لعيني وصوت البلابل
 الشجيّ "انتعاشاً قلبيّ — فلما ان انتقلت من طور الاحلام الى
 طور اليقظة وجدت ان جوهره الحب التي حصلت عليها تساوي
 اضعاف اضعاف ما ذكرت لانها حقيقة في حين ان تلك على
 الاكثر وهمية — كان ذاك اذ كانت نفسي في ابان اضطرامها
 بنار السعادة فلما أطفأت يد الدهر العاتية شعلتها من قلبي وجدت
 ان ثمن تلك الجوهرة كان عظيماً جدّاً وها قد خسرتها معاً
 — انا لم اسألك سوءاً خصوصاً يا فاطمة وندع الحب
 جانباً الان واخبريني ألسنت الان احسن من ذي قبل بفضل
 المعارف والعلوم ؟

— نعم ياسيدي ولكن انظري الى خسارتي الباهظة مقابل
 هذا الربح ؟ فقد ذكرني سوءالك هذا بأخر اجتماع سعيد
 لي مع سليم قبل ان ولد هذا الطفل باسبوع فقد خرجنا
 مرّة للنزهة في البرية واذا جلسنا على بساط سندسيّ من بسط
 الطبيعة تجاه ينبوع من الماء المتسلسل وتحت شجرة يجعل النسيم
 من اوراقها اوتاراً فيجىء حفيفها انغاماً مطربة لقلب المحبين نظر
 اليّ سليم وقال :

— ألا تذكرين تلك الارض الجميلة التي كانت مهد محبتنا
 يا فاطمة ؟

فلم اتمالك عن البكاء وقلت: وكيف لا اذكرها ؟ أفليست

هي التي لها اكبر فضل عليّ بجعلي اسعد امرأة ؟
 قال دعينا من الحب وكليني بالحقيقة المجردة فهل انت
 الآن بفضل العلوم اسعد مما كنت بدونها ؟

— بدون ادنى شك ياسليم فاني الآن اصبحت امرأة
 ,, تسوى اسمها “ وقد كنت قبلاً شبه دمية

— اذن بماذا تفضل المرأة العالمة اختها الجاهلة ؟

— تفضلها انها متى كانت عالمة تكون حرة مطلقة الفكر
 ومتى كانت جاهلة تكون سجينه مقيدة بل أمة وانتي اعجب
 ياسليم في كيف تعيش المرأة الجاهلة إلا لكونها ,, جاهلة “ مقدار
 العلم ولا سيما ان كان زوجها عالماً

— انها عيشة مرّة ايتها الحبيبة يقاسي فيها الرجل اكثر من
 المرأة لان هذه لا تكون قد ذاقت لذة العلم فلا تعرف معنى
 طعمها اما هو فبالعكس

— كم اتمنى ان يذوق هذا الطعم كل النساء كما ذقته انا !
 — هذا واجب على الرجل ان يقضيه لانه لخير نفسه اكثر
 مما هو لخير المرأة . فليس اسعد من الرجل الذي يجد في
 شخص امرأته شريكة عالمة عارفة تساعد على حمل نصف اعباء
 المهات في حياتهما كما انه ليس اتعس من الرجل الذي يضطر ان
 يقوم بكل شيء ويدبر كل شيء بنفسه لجهل امرأته
 واجباتها . فان تعاسة هذا الرجل ليس اعظم منها لولا ان

١٠ حب السيادة " يجعله ان يرضى بان يكون ١١ عبداً " وهو
يلتذ بالافتكار ان المرأة ١١ عبدة " عنده

— اوآه من هذه السيادة التي يحسبها رجل سوريا ١١ سوط "
المرأة وزمامها كأن الرجل الذي يتركني في جهلي ويمسك قيادي
يسكون اقوى مني على تهذيب نفسي لو هذبني وجعلني امسك
انا قياد نفسي !

— هذا حق ولكن للرجل اوقات معلومة يجب ان
يكون فيها متسلطاً على المرأة ضماناً لعقد العائلة من الانتثار

— انا لا انكر ذلك ولكنه استبدت بجملتها فاصبح الحاكم
المطلق لها اي وقت اراد وكيفما شاء كأنها ملك عقاري له ٠٠٠

— هذه نتائج الحكم المطلق يا عزيزتي اذا كان رائده
الجهل والاستبداد ولكن المرأة الجاهلة التي تتسلم قياد نفسها
تجلب عليها عين الضرر الذي يتأتى من استبداد الرجل الجاهل بها
لان الحرية بيد المرأة الجاهلة هي سلاح حاد ضد الفضيلة
والسعادة والارتقاء

— اوآه من الجهل انه سبب كل عاة !

— نعم لانه بيد الحاكم الظالم آلة متلفة تحت أمر الارادة
الجائرة ويبد المحكّم اداة لاجراء وحى البغض وحب الانتقام
وعلى كل حال فانا اشكر الله الذي أنار بالعلم فكر فاطمي المحبوبة
وفتح به بصرها

بعد ان قضينا ساعات ونحن نتنقل من حديث الحب الى
حديث ,, الفلسفة “ رجعنا الى البيت ويدي بيد سليم وانا
اثب فرحاً وسروراً وساء قلبي الصافية تنيره بنور السعادة

* الفصل السابع والثلاثون *

— بعد ولادة الطفل —

ما طارَ طيرٌ وارتفعَ الأَّ كما طارَ وقع

في احدى ليالي حزيران المقمرة ولد هذا الطفل التمس
ياسيدي (وياليتَه لم يفتح عينيه النقيتين على شرور هذا العالم)
ظاهراً بقلب طاهر وجسم ملائكي ليتعرض لقسوة الدهر وجور
الايام هذا ما اعرفه الان وقد جهلته في تلك الليلة ووجوده على
ذراعي أنساني ما مرّ من الآمي المرة التي اذا لم يكن من عذاب
للهرة غيرها فكفى بها تماسة لهذه المخلوقة التمسية التي تعطي
كثيراً ولا تأخذ الا القليل

وفضلاً عن سروري به لذاته فقد فرحت به من اجل
ذاتي لانني كنت اخشى هجمات جيوش الفراق والفتور فيكون
هذا الغلام سلاحي القوي الذي يردّ عني شرّ غاراتها .

وقد تقلبت على مثل جمر الغضا شوقاً الى مجيء سليم الى
مخدعي ليشاهد ابنه الجميل فلما اتى ناولته اياه صديقة لي قائلة :
، انظر ما اجمله “

فأخذه بين ذراعيه وقبله قبله حاره شعرت كأنه اصعد معها
كل دم قلبه فتحول لون وجهه الى الـصفرة ثم ارجع الصبي الى
المرأة واقترب مني وقبلني قائلاً :
— احمد الله على سلامتك

وكانت هذه الجملة عنوان الشفقة فجعلتني اشعر حالاً بأن
حب سليم لي قد ابتدأ يدخل في طور الرحمة “ فقلت له
فرحة مرتابة من لهجته

— ألت سعيذا بهذا الغلام ؟

— ان صحتك وحدها تهمني وحوّل وجهه عني قليلاً .
فشعرت كأن حربة تطعن قلبي وشككت فيما اذا كانت هذه
الحلقة التي ظننتها تصل حياتي بحياته الى الابد قد سرته بقدر
ما سرتني . ولكن المحب لا يدع للارتياب بمن يحب سيلاً
لدخول قلبه واذا دخل يطرده حالاً ولعل هذا اصل سعاد
وراحة بعض المحبين وشقاء غيرهم . ولذلك فقد أخذت التمس
لاضطراب سليم اعذاراً في نفسي

ولكن مع هذا كله فقد اصبحت عواطفني منذ ذلك اليوم
في تعارك مستمر فكنت تارة اقول ان هذا الطفل جعلني حملاً

ثقيلاً على سليم يجب التخلص منه وطوراً اغالط فكري واقول
بل هو وسيلة لزيادة حبه لي

ولكن افكاري هذه التي حسبتها اوهاماً تَمَثَّلَتْ لناظري
بصورة الحقيقة لان التغيّر كان قد بدا على سليم بهيئة التفكير
والاهتمام بعد ان كان جَدلاً بشوشاً وكانت هيئة حزنه الداخلي
تبرقع وجهها فنحجب عنه نور الحب مع اجتهاده في تمزيق ذلك
البرقع الذي لم يكن ليتمزّق بسهولة .

ففي ذات يوم ذهبت الى محل عمله وابني على ذراعي
وكان عمره شهرين فدخلت المحل بغتةً ووجدته واقفاً يقرأ
كتاباً وهو يبلاّه بدموعه فلما رأيته رأيتُ بُغْتاً وأنزل يده الى جيبه
والكتاب فيها ونظر اليّ فاقتربت منه وقلت له بصوت مرتجف :
— مِمَّ البكاء يا حبيبي ؟

— من تأثير نتائج حياتي على نفسي

— اظن ان فاطمة اصبحت لغنة على حياتك يا سليم ؟

— ان فاطمة هي بركة حياتي الملعونة من اعمال

وكان قلبي يخفق اضطراباً وشوقاً الى معرفة ما في الكتاب
ولم اجراً على سوءاله عن ذلك اما هو فناولني ذلك المكتوب
يد مضطربة

وكان المكتوب من والده وكله تأنيباً وتوبيخاً وتسخطاً
وينتهي بوعد والده له انه يُصَفِّحُ عنه ويحبه ويرضى عنه

١١ اذا محا عن ذاته العار ورجع الى والده وتركني “
 فلما وصلت الى هذه النقطة هاج الدم العربي في اوداجي
 فرميت الكتاب من يدي وقد نسيت ان الحب اذلني ولم أنس
 قط انني مستدلة مهانة وقلت له بخنق :
 — ان أهلاك يحسبون زواجنا عاراً عليك وانك قادر
 على حله

— نعم
 — ولكن هذا الزواج قد تم الآن وسواء اخذتني معك
 ام تركتني ورائك فالعار واحد لا يتغير
 — انهم يعتقدون بان العار عليّ ما دمت معك فمتي
 تركتك زال عني

فابتسمت متمرمة متبهكة وقلت: وهل يعاملونني انا بالمثل ؟
 — كلا لانك امرأة
 — اذن للمرأة شريعة خاصة بها وحدها فلا ينزعون عنها
 ثوب العار ولو هي نزعت بيد اعمالها الشريفة . أليس كذلك ؟
 — بلى كذلك

— ولكن لماذا لا تجري هذه الشريعة على الرجل ايضاً ؟
 فان كان في الامر الذي اتيناه معاً ذنب فيجب ان يقاصّ به
 او يُبرأ منه الاثنان معاً
 — ولكن تبعة القصاص لا ترجع الى الرجل لانه ١١ فوق

الشريعة " في مثل هذه الامور
فصرخت كلبوءة قد انتزع منها اشبالها وقلت وقد حسبته
خصمي

— ليس هكذا . ليس هكذا . بل لان الرجل لا يحاسب
على عار لانه غير مطالب بشرف !
فضحك من كلامي وطوق عنقي بذراعه واجتذني نحوه
قائلاً

— اننا نتكلم عن اعتقاد المستبددين يا حبيبي واما اعتقاد
ذوي المبادئ الشريفة والضامير الحية فهو اعتقادنا الخاص
فكان كلامه هذا كقطعة كبيرة من الجليد القيت في قليل
من الماء الغالي فبردته فنظرت اليه نظرة ملؤها الحب والحنو
وقلت له :

— انت كل البشر عندي يا حبيبي وانا اثق بمعرفتك
وشرفك وصدقك فهل انت تقول بان زواجنا شرعي ؟
فكان جوابه ان اخذ ولده على ذراعه الأيمن وكان ذراعه
الايسر يطوق عنقي فضم اثنينا الى ان التقى رأسانا على صدره
وقبلني اولاً ثم قبل الطفل وقال :

— لو لم يكن زواجنا مقدساً وشرعياً عند الله لما باركه
بهذا الطفل الجميل كأمه . ولم اجراً على رفع رأسي من على
صدر سليم خوفاً من ان تنتزعي يد الدهر الظالمة من كنف هذه

السعادة وقد كنت ابكي من تأثير كلامه بدون ان ادري الى
ان قال لي :

— لقد احرقني دموعك ايتها الحبيبة
فاشفقت عليه ومسحت دموعي متظاهرةً بالتبسم
والرضى .

ومضت على هذه المحادثة شهور نسي سليم في اثنائها كل همٍّ
ورجع الى حالته الاولى فرجعت اليّ سعادتي وكان لا همّ لي
سوى زوجي وولدي وواجباتي البيتية وانا اشكر الله على رجوع
سليمي اليّ وحسبت ان الدهر قد عقد معي عهداً بالمسالمة مدى
العمر ولم اعلم ان عهد الدهر كظّل زائل

ولكن منذ اسبوع فقط كسفت شمس حياتي كسوفها الدائم
الابدي (كما اظن) ففني صباح الاثنين الفائت نهض سليم
باكراً وقبل خروجه ضمني الى صدره وقلني كثيراً وبجراحة ثم
تركني وذهب الى الطفل وفعل به ذات الفعل وخرج من
البيت مسرعاً فارتبت من عمله لكن لم يمرّ في خاطري شيء مما
حدث لانني لم اكن احلم بحدوثه وللحال رجعت الى اعمال
البيتية وتعزف سليم الاخير ملء افكاره فلما حان وقت
ايابه ارتديت ثيابي النظيفة ورتبت ذاتي وولدي حسب العادة
ولبت منتظرة قدومه وكنتي قلوباً تشعر بحبه وتبض شوقاً
اليه فلما قرع الباب شعرت كأن القرع كان على باب قلبي

فتزايدت نبضاته وقت لافتح وعلى شفقي ابتسامة الحب—ولكن
ماذا رأيت — رأيت ما ابدل تلك الابتسامة الحلوة بدمعة
مرة لن تنشف الى الابد — رأيت غلاماً صغيراً ناولني مغلفاً
باسمي وهرون راجعاً

بدأت يدي بالارتجاف يشاركها كل جسمي فألقيت نفسي
على كرسي بجانب الباب وفتحت المغلف فاذا فيه ورقة صغيرة
مكتوب عليها بخط سليم ما يأتي
يافاطمة الحبيبة .

١١ انا شقيّ فلا استحقك . وانت كريمة شريفة فلا
تزيدني عذابي بذكرك اياي . السبب الذي ابعدي عنك
موجب وعظيم — فلا تطلبيني لانك لن تجديني بعد . لقد
تركت كل شيء مع قلبي — ربي الصغير على اخلاقك ولا
تذكرني امامه اسم والده الخائن — انا لا اطلب صفحك
لاني لا استحقه ولا استحق حزنك علي . فانسيني لانني لست
اهلاً لغير النسيان — انا الشقي التemis ١١ سليم “
فاذا تظنّين حلّي بعد ان قرأت هذا الكتاب ؟ انا
نفسي لم اعرف ولم افق الاّ من ظرف ثلاثة ايام فوجدت
نفسي في المستشفى ولما رجع اليّ بعض صوايي ذهبت الى
البيت فوجدت ان زوجي كان قد باع المحل وترك لي كل
ثمنه فبعت انا حالاً اثاث البيت واستخبرت في المحطة عنه

فعرفت انه اخذ جواز سفر الى هذه المدينة فتبعته كالمجنونة
 وحين وصولي ذهبت تَوًّا الى بيت نسيبه فقيل لي ان هنا
 خارج المدينة ويرجع بعد يومين او ثلاثة وكأن الجنون لم يكن
 قد فارقني بعد فترت محل الرجل وصرت امشي في الشوارع
 وولدي على ذراعي الى ان قسِم لي الحظ وشاهدتني على الحالة
 التي تعرفونها

هذه قصتي المحزنة ياسيدي فهل سمعت بقصة توازيها
 تعاسة؟ وهل رأيت هيكلاً يتمثل عليه ظلم الرجل وخداعه
 وحب المرأة واستسلامها كهيكل جسمي هذا؟

* الفصل الثامن والثلاثون *

— قصة السيدة آليس —

وقسْ على الشيء بأشكاله يدلك الشيء على الشيء

اذ ذاك كفكفت آليس دموعها وقالت لفاطمة :

— ان قصتك اعجب واحزن قصة سمعتها ولكنها واحدة

من بين الالوف بل الملايين التي يمثلها ظلم الرجل على ملعب
 جهل المرأة وضعفها والذي اظنه هو ان زوجك قد رجع الى وطنه

وهو يحسب الابتعاد عنك شرفاً لان في البقاء مذلة وكيف
تلومينه وحده ايتها العزيزة وهو سيرجع غداً الى الهيئة
الاجتماعية كما كان قبل ان عرفك ؟ فمن مثل هذا تكثر
الجرائم ومن هذا يحسب الرجل انه لا عار عليه ما دام قادراً
على اقتطاف زهرة حياة المرأة في بستان الشرف وبعد ان يغذي
قلبه وامياله بزهو جمالها مدّة ينتقل الى سواها من بنات جنسها
فتقبله كمثال لشرف النفس وراموز للعنة بعد ان يكون رمى
باختها في احوال العار فتلوّثت في نظر الناس الى الابد .

ان الرجل الخائن يا اخي يتجراً على تمزيق شرف المرأة
ولكنه لا يتجراً على المناضلة عنه متى كان في يده الحق كما هي
اخالة معك واذا فعل فالى وقت قصير اما انت فانك بريئة
طاهرة امام الله ومن يعرفونه من الناس لان الامور بالنوايا
وقد كانت نيتك شريفة

فكانت فاطمة تسمع كلام آليس وهي مطرقة تسقي الارض
بدموعها كخاطيء يتوب وهو يصغي الى صوت الضمير او صوت
مرشد صالح فلما انتهت آليس من كلامها رفعت اليها رأسها قائلة :
— حين ابتدأت بقص قصتي عليك كانت نفسي كحزمة
من الحطب اليابس في ابان اشتعالها فأخذت النار تضطرم
وتأكله الى ان اضمحل واصبح رماداً ولكن لم يزل تحت الرماد
بعض الجمر وهو شوقي الى الوقوف على مقرّ سليم وخبره فاسمحي

لي بالذهاب ليلي اراه ولو لساعة فقط او اعرف عنه شيئاً . وبعد
ذلك لا تعود حاجة في نفس يعقوب فأرجع واقضي عمري
في خدمتك .

— ولكن اخاف ان يكون اجتماعك به اذا تم سبب
وقوعك في وهدة اعظم من هذه

— انا اعلم بانك تظنني من اولئك العاشقات ذوات
الشجاعة في البعد والجبانة في القرب . كلاً فاني متى قصدت
افعل

— ولكن هل نسيت انك لم تسمعي قصتي بعد ؟

— كلاً واذا تكرمت بها فاني كلي آذان صاغية

— اني احدى اولئك اللواتي دخلن معركة الحب فصرعن فيها
ولكنني بقيت على شرفي لان حبيبي كان من اولئك الرجال الذين
اذا احبوا المرأة يضحون كل عزيز حتى هوى النفس ولذتها
والحياة ذاتها احياناً حفظاً لشرفها . والرجال اثنان واحد يضحى كل
شيء في سبيل المحافظة على شرف المرأة اذا رأى في طريق
الوصول اليها حائلاً يحول بينها وبين ذلك الشرف وفريق
آخر يضحى الشرف وكل فضيلة حباً بالحصول عليها . فالحب
الاول هو الحب السماوي الشريف الذي يوضع مع الواجب
في كفتي الميزان فيرجح هذا عليه ولو كان في رجحانه ألم
للنفس وصرم لحبل السعادة ولكن من يعرف مثل هذا الحب

ن ؟ أنه اندر من النادر ولكنه موجود وقد اختبرته بنفسني
ولكن وجوده قليل جداً في عصر يسود فيه حب الذات
والرغبة في بناء سعادة النفس على اقراض سعادة الغير

اراني اطلت المقدمة ويجب ان اقرأ عليك الفصل . فاني
قد ولدت من ابوين فاضلين احدهما والدي المتحدث من تلك
السلالة التي تفتخر بها امريكا لانه لا يزال يجري في عروق
افرادها الدم ، الانكوسكسوني “ النقي ووالدي من ذلك
الدم الارلندي المعروف بكل فضيلة وشجاعة وكنت انا
وحيدتهما ووارثة ملايينها فتعلمت ما تتعلمه الابنة الامريكية من
هذه الطبقة من العلوم بأجمعها . وبعد ان انهيت دروسي في كليات
أمريكا واوربا رجعت الى البيت وانا في سن التاسعة عشرة
من عمري وهذا العمر هو الدرجة الاولى من سلم الحياة عند
الفتاة الامريكية

وكانت والدي من المحافظات على اصول الحشمة والعظمة
النسائية والفضيلة العائلية . وكان يوعلمها ما تراه من بعض اهل
الطبقة العالية من ضروب الملاعة والتساهل واصحابها من اهل الثراء
الحديث الذين طمت عليهم ملايين الدولارات وهم لا يزالون
في افتقار كلي للاداب والتهديب فأفسدتهم واصبحوا مجرمين
نحو نفوسهم ونحو الغير

كان والدتي ترى تيار معاشرة هؤلاء الناس مقبلاً نحوني

وهي تخاف ان يحرف من قلبي أسس الترية والفضائل المسيحية
ولم تكن تقوى على رده عن وحيدتها التي كانت مقبلة على
بهاج الدنيا ومبهجتها تعاقبها عناقاً ربما عقبه للفضائل فراق
او طلاق : وكانت قد زرعت في نفسي في صغري تلك الالية
الشريفة ، ماذا ينفع الانسان اذا ربح العالم كله وخسر
نفسه ؟ واخذت تعبهدها بالاعتناء فتمت لحسن الحظ اذ
وجدت تربة جيدة

وجدت والدتي في نفسي المادة فصقلتها فكان الصقل امرأ
ثانويًا إذ لولا وجود الاثر لما كان له من سبب والسبب يعد
لغواً اذا بقي على حالته الاصلية الطبيعية

وقد كان هذا من حسن حظي وحظها لانها لو ارادت ان
تضع في نفسي عواطف واميالاً لا اصل لها فيها وتضطرنى
الى الجري بموجبها لاقتضى لها مع اميالى المضادة حرب شديدة
قد تكون وقد لا تكون فيها الفائزة ولكنها وجدت في نفسي
مبلاً غريزياً الى الجري بحسب ارادتها فتعاوننا معاً على كبح
جراح الاميال المضادة وانماء الموافقة منها . وشتان ما بين نجاح
من يعمل مدفوعاً بعامل السليقة ومن يتقاد لحكم الواجب .

ولا ارى اننى اقدر على ان اكون غير ما انا وانا أفهم معنى
الحياة الحقيقي . فان حياة الانسان أعزّ شيء اليه فاذا رأى
من يريد بها شراً يدافع عنها بكل ما عنده من الوسائل

والقوة وهكذا قد فعلت انا حينما رأيت نفسي معرضة لخطر الوقوع
بين ذئاب البشرية من عديمي الفضائل وقوعاً يكاد يحرمني
حياة الروح السامية التي ضحيت لاجلها كل ملذاتي

* الفصل التاسع والثلاثون *

— وصية الامّ العاقلة للابنة العاقلة —

ثمّا قرن الفتي شيئاً بشيءٍ كمثل العلم يقترن بتقوى

ولما خرجت من المدرسة ولي من عمري نضارة الشباب ومن
ملاييني جمال يفوق كل جمالٍ عند صيادي المال خافت
والدتي لئلا تكون بذرتها قد ماتت في تربة نفسي او ان يكون
ثبت مكانها سواها فاستدعيت اليها ذات مساء فلما مضيت
وجعلتها جالسة الى النافذة المطلة على الحديقة وهي تتأمل فيها
يتفكر فما وقع بصرها عليّ حتى بادرتني بالكلام

— لقد عزم والدك على الذهاب بنا الى مدينة لندن في

الشهر القادم يا عزيزتي

— ليس هذا بالخبر الجديد

— انا اعلم ذلك ولكن هل تعلمين بان على هذه الزيارة

تتوقف سعادة أم تعاسة قلب والدتك ؟

— أفصحني يا أمّاه فما معنى كلامك ؟

— لقد علمت يا أليس بان اشهى شيء اليّ كان ان
تربي على اخلاقي وامياي وقد نجحت في هذا الامر لحدّ الآن
لكن عواطف المستقبل تهتديني باقتلاع هذه العواطف من
قلبك اذا هبت على مكان ضعيف وخوفي يتزايد كل يوم من ان
ينازعني الدهر اياك

— ماهذه الاوهام يا أمّاه ؟ ومن ذا الذي يقدر ان
يجعل نفسه أفضل منك اينزعني من بين ذراعي حبك ؟

— ان والدك نفسه يجرب ذلك بغير قصد منه

— حتى والدي لا يقدر على الامر ولكن ما هو المراد
بكلامك ؟ ارجوك الايضاح

— المراد ان في نية والدك الذهاب بنا الى لندن رغبة في
مقابلة ملك انكلترا وملكتها لان هذه المقابلة هي اعظم اماني
النفس الامريكية لان الذي يُفتح بوجهه باب قصر ملك انكلترا
تفتح بوجهه ابواب كل القصور الاوروبية كأنّ لكها مفتاح واحد
— وماذا يهمك انت من هذا الامر الشريف ؟

— ليس الامر ذاته ما يزعجني وهو شريف بل ما يعقبه
من النتائج لانني اخاف ان توغلك في هذه الاجتماعات قد
يفضي الى انتزاعك مني اما جسدياً على يد بعض الملقين

الاوروبيين واما روحياً باقتدائك ببعض النساء من الطبقة العليا
اللواتي يأتين اقبح الاعمال تحت ستار المال

— انا اطمئنك بانني اقوى من ان اخدع ياوالدي ولكن
ما الذي يضطرني الى ولوج هذه الابواب وانا قادرة على تجنبها
ان مجرد وجود القوة في شخص لا يحمله على اقتحام المخاطر
رغبة في ,, التجربة “

— ولكنك مرغمة على دخول هذه المجتمعات لانك قد
خلقت لها وخلقت لك

— ولكن كيف يكون الناس احراراً في اتباع ما يضرهم
ولا نكون نحن احراراً في اتباع ما ينفعنا ؟

— ذلك بحكم العادة

— بثت العادة التي يضطر المرء فيها الى عمل ما يمس
آدابه ويأسر نفسه . انها عادة غير حرية بالاتباع
فابتسمت والدي من شدة ارائي وقالت :

— انك لم تفهمي معنى كلامي كما قصده فانما احب ان
تكوني زهرة المجالس وزينة الاندية ولكنني اظن بياض هذه
الزينة الناصع تسوده يد الشرور والذائل فلذلك اطلب منك
ان لا تدخل في مجالس النبل والفضل ولا تعاشري غير
عشراء الشرف

— ليس لنفسي مطلب غير الشرف ياماما ولكن قل لي

من هم اولئك الاشرار وكيف هم . انني لم اكن احلم بوجودهم
في عالم متمدن مرتقٍ كعالمنا هذا

- ما اسلم قلبك ايها العزيزة ! فهذا الذي يخوفني
عليك الآن لانك خارجة من عالم طاهر نقي وانت تحسبن
ان العالم الذي تدخليه مؤلف من امثالك فقط فاذا كنت لا
تكذبن ولا تخادعين ولا تأتين عملاً منكراً فذلك لانك
لم تري من هذا المحيط العالمي العظيم سوى موجوداته النقية
البيضاء التي هي اولاد المدارس ولم تسبري غور شره بعد لتعرفي
ما قد رسب في قاعه من الشرور والفساد اما الذين سألني عنهم
فهم بعض من النساء والرجال الذين لا يعتبرون سوى شريعة
الدولار ، فالنساء يحسبن ان لا جمال سوى جمال الجسد
فيعبدنه ويكفرن بجمال النفس ولكن مع شبه عبادتهن له لا
يخجلن من عرضه على موائد القمار وبين اهل الخلاعة والعار
فان حريتهن عبودية وفضائلهن رذائل تتسرب منهن الى دم
الامة النقي فتفسده رويداً رويداً كما فسد الدم الروماني واليوناني
من قبل

واما الرجال فمنهم الملقبون الاوريون الذين ليس لديهم ما
يفاغرون به سرى لقب موروث وهم فضلات شعوب مسكينة
تعوّدت أكل خبزها بعرق جبين البسطاء فلما نفد من خزائنها
مال الشعب الذي فتح عينيه فلم يعد يزيدها منه اخذت تطلب

رزقها من باب آخر فالذي لا ينجح منهم في النصب والقمار يجيء
 هذه البلاد حاملاً قطعة تاريخية يسمونها ,, لقباً “ وهنا يجد
 الفتاة الأمريكية متلعة العنق الى الشرف الموهوم لان الشرف
 في هذه الارض هو شرف الاعمال لا الاقوال فتسلمه يدها
 مبادلة اياه ملايينها بقلبه او بالاحرى يشتري هو ملايينها باللقب
 ويبقى قلب كل واحد منهما في صدره — فلا تمضي مدة طويلة
 على اقترانهما حتي يفضي الامر اما برجوع الفتاة الى بيت والدها
 مطلقة واما ببقائها مع ,, ملقبها “ مهانة معذبة .

— ان وصفك يقشعر له بدني يا والدتي لانني كنت اجهل
 وجود مثل هذه الحيوانات البشرية التي تسمن اجسادها وتهزل
 ارواحها

فلما سمعت والدتي كلامي ضمتني الى صدرها وقبلتني لانها
 سمعت مني اكثر مما كانت تؤمل وقالت :
 — استعلمي حريتك الحبية على والدك فلا يرغبك على
 امر المعاشرة لكي اقتخر بان وحيدتي هي من اولئك الملائك
 بين البشر

* الفصل الرابعون *

— الاحسان الحقيقي —

ألا انما مالي الذي أنا منفق
وليس لي المال الذي انا تاركه

ولكن وأسفاه فاني لم أرَ والدي بعد ذلك اليوم لانه في تلك الليلة ذاتها وجد ميتاً بالقلب فيما بين اوراقه في مكتبه .
وتبعته والدي بعد اسبوع من الهم والحزن فكدت اتبعهما من حزني عليهما لو لم يشاء الله بقائي لأقوم بالخدمة التي انتدبني لها واذوق مرارة الحب وحلاوته

وهنا توقفت أليس فمسحت دموعها وقالت : كان موت والدي ضربة قاضية على بقية ما كان في قلبي من السرور بهارج الدنيا فجاءت كختم ابدي لمقاصدي التي نويتها امام والدي . وإقدام الانسان او إجماعه على اتيان أمر ما كثيراً ما يتوقف على أول شيء يطرأ عليه منه . فانا كنت احب الدخول من باب العالم الهادي فكانت الضربة الاولى اعظم مرغّب لي في ذلك واقوى معين .

ترك موت والدي في حوزتي ما ينيف عن الخمسين مليوناً
من الدولارات فرأيت انها كثيرة جداً على شخص واحد او
اشخاص عديدين بحيث ان ذلك يكاد يكون جريمة ولذلك
عزمت على توزيعها تدريجاً على ذوي الاستحقاق من اهل
الفاقة .

وبما انني امرأة والامراة تعرف معنى الشعور الحقيقي مع
كل طبقات البشر اكثر من الرجل شرعت في العمل مبتدئة
من الأهم الى المهم من الامور . وكان فكري موجهاً الى نقطة
مهمة جعلتها اساس الاحسان هي ١١ اطعم الفم تستحي
العين “ فكنت اسعى جهدي اولاً لاشباع بطون الفقراء
واكساء عريهم وتسهيل طرق الاشغال والمعيشة لهم من كل
وجوهها لانني بعد الفحص المدقق وجدت ان اكثر الجرائم
الامريكية متأية عن الفقر ١١ فالدولار هو قائد الشاب الى معاهد
القمار ورائده في محلات العار وموقعه في الشجون والسجون كما
انه موصل الفتاة الى مجالس الشرور ومواقع الغرور ووجدت
ان الفاقة تحمل الانسان على الكفران بدينه وخلع رداء حشمته
وآدابه لان المرء مفطور على حب الذات فاذا رأى من دهره
ضيقاً يحسبه متأياً من ربه فيثأر لنفسه بان يكفر بنعمته تعالى
وعوضاً عن ان يجتهد في التخلص من الغرق في محيطه يزداد
فيه غرقاً . فلهؤلاء لغة خاصة بهم لا يقدر الانسان على اصلاحهم

الأبها ومن مبادئ علومها ، تفضل كل .
أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم

فظلما استعبد الانسان إحسان

ولم اكن اطعم الجياع الكسالى بل كنت ادبر لهم عملاً
يأكلون منه بتعب ايادهم لان الذي يحسن على صحيحى
الاجسام من اهل البطالة يعودهم الكسل والذل ويضر بهم من
حيث اراد نفعهم . فكنت حيث وجدت جسماً قوياً انشطه
للعمل او دماغاً مستعداً اساعده على ملء فراغه بالعلوم والخلاصة
اننى اعتنيت اولاً بالاجسام لانها هياكل العقول

وقد بنيت مستشفيات ومدارس ومكاتب كثيرة ولكنى
لم افرح بشيء مثل فرحى بتأسيس جمعية نسائية عاونى على
انشائها نخبة من ذوات الفضل والفضائل وقد خصصت لها
خمسة ملايين دولار يصرف ريعها على بناء بيوت حسنة الهندسة
والموقع والمناخ لتكون مأوى لذوات الامراض الروحية والبدنية
يعتنى بهن فيها

وترين هذه الجمعية الآن من اكبر جمعيات هذه البلاد
ولها فروع في اكثر المدن الامريكية وتحت عنايتها عشرات
الوف القتيات من كل من قذفها امواج محيط الفقر والتعاسة
على شاطئ شقاء هذا العالم وفساده فأما انت اعمالهن الفاسدة
ارواحهن وخشنت شعورهن وحرمتهن كل سعادة . فان هؤلاء

يجدن ملجأً يلجئنَ اليه بعد ذلك الجهاد القاتل
وتريني بتقطع النظر عن تعاسي الخصوصية سعيدة جداً
لاني في مقام أقدر فيه على إسعاد غيري . وما هي النفس
لتقاس مع الغير عند ذوي الانسانية ؟ ان الذي يضحي نفسه
لإسعاد الوف الانفس هو هو السعيد وليس ذلك الذي يضحي
الالوف لاجل نفسه

ومع انصرافي بكليتي الى عمل الخير فلا يزال فيَّ قلب
المرأة المحب وعواطفها الحساسة فكنت حينما افرغ من قضاء
واجباتي العمومية اخصص بعض الوقت لنفسي فادرس ما لي
إلمام به من العلوم واتعلم ما لا اعرفه منها وكان لي رغبة
عظيمة في اتقان فن التصوير وكنت قد سمعت بخبر استاذ
ماهر في مدينة نيويرك (ومن ينبغ في مدينة كنيويورك بين الوف
ومئات الوف من رصفائه فهو حقيقةً نابغة) فارسلت استحضره

* الفصل الواحد والاربعون *

وليس فراغ القلب مجداً ورفعةً
ولكن شغل القلب للمرء رافع

— المصوّر —

لا انسى اول يوم مقابلتي لذلك الاستاذ فقد كان يوماً من

ايام الريع جميلاً مبهجاً وانا اتمشى في الحديقة وافكاري تحوم
حول تذكاري والدي. المؤلم وسعادي بالقيام بواجباتي ولم اكن
احلم بان امرأ ثالثاً سوف يكون اهمّ منهما قائم على ابواب
حياتي الآن الى ان جاء البواب ببطاقة على طبق ذهبي عليها
هذا الكلام

برناردو روزاتي

فلما دخلت البهو وجدت بانتظاري رجلاً في نحو الخامسة
والثلاثين ربيعاً طويل القامة جداً مستطيل الوجه حنطي اللون
اسود العينين والشعر مهيأ رزيناً يخيل الى الناظر اليه انه عبوس
وربما كان عبوسه نتيجة هموم داخلية رافقت حياته مرافقة الظل
للانسان فلم يقدر على طردها .

فلما مددت اليه يدي شعرت كأنني اناوله بعض عواطفني .
ومنذ ذلك الوقت شعرت بان كهربائية نفسه اقوى من كهربائية
نفسي فتغلّبت عليها

تحدثنا مقدار نصف ساعة في امور شتي جعلتني اشعر كأن
ذلك الرجل صديقي من زمان ولما همم بالنهوض قال مبتسماً :
— لي الشرف الاعظم بالمهنة التي انتدبتني لها ياسيديتي
وكم انا سعيد لانك على غير مذهب اكثر السيدات النيوييركيات
اللاتي يطلتن علي لقب ,, التلياني الحشن ,, لانني لسوء حظي
لا استطيع ان اكون غير ما انا

فاجبته باحترام : انني انا سعيدة ايضاً لانني افهم واعرف
اكثر من اولئك السيدات

وحالما خرج الرجل من القاعة بدأت افكاري تتخذ لها
مجرى ثالثاً هو ،، الافتكار فيه “ فعزوت هذا في بادىء الامر
الى شدة ولوعي بفن التصوير وعلاقته به ولكنني بعد مضي
اسابيع قليلة على تدريسه لي عرفت بل حتمت ان علاقتي معه
كانت قلبية لا يدوية

ذلك لانني حالاً اخذت اشعر ذلك الشعور الذي يفقد
المرأة كل شعورها — وكنت حينما اجلس بجانب استاذي وريشتي
بيدي تصور انني ارسم له بها صورة قلبي وعواطفني — واخط
امام عينيه آيات حي — بل اشعر ان روعي ارتفعت الى جانب
روحه تناجيها وتمازجها

فأخذت اسأل ذاتي — ما هذا ؟ هل انا مغرمة ؟ انني لم
اذق طعم الحب من قبل ولكن ما اذوقه الآن جديد الطعم
تحت اضرامي ولذيد جداً فبل هو ذلك السبات العميق قد
استولى على افكاري . او ذلك المخدر العظيم قد استولى على
عواطفني ام ذلك المنبه الاعظم قد مد يده الى قلبي وحواسي ؟
ثم اقول لنفسي ولكن ما هي ايتها النفس نتيجة هذا الحب
فهوذا الرجل الذي احبه كهل على ابواب الشيخوخة وهنا كل
ما عندي من خبره فماذا اعلم من امر نسبه وماضيه وحاضره ؟

ان افكاري حلم مزعج يجب ان استيقظ منه حالاً
ولكن هيبات • هيبات • استرجاع ما فات ! فقد تسرب
هذا الروح في كل جسمي فتشرب به دمي وعظامي واصبح جزءاً
من قلبي وهل يقدر الانسان على انتزاع قسم من قلبه ؟
اخيراً اذ عجزت عن مقاومة اميالي تركتها تجري وسلمت
للمستقبل زمامها وهنا ترين ان حالتي شبيهة بحالتك يا فاطمة من
هذا الوجه

— ان الحب كالموت ياسيدي يتساوى بالشعور به
الوضع والرفع والقوي والسقيم

— نعم يا فاطمة • ويشعر بسعاده او تعاسته من يكون
على غبراء الفاقة كما يشعر بها من يكون في سماء اليسار فان
لذته لا تؤثر فيها الظروف والآله لا تخففها الوسائط مهما
كانت عظيمة

— ذلك لان علاقته روحية كما اظن والارواح متساوية

بين البشر

— نعم يا عزيزتي فطوبى لمن يسأله دهر الحب وويل
للذي يعاكسه لان البشر مهما تشجعوا او تفننوا فانهم قد يقوون
على منع اظهار السعادة فيه ولكنهم لا يقوون على منع الشعور
بها وعلى الصبر في تعاسته وليس على منع وجودها
فتمهدت فاطمة وقالت : ياله من إله عظيم السلطة على

القلوب ! ولكنه يعدل أكثر ممّا يرحم ويقسو أكثر ممّا يحنّ
 -- نعم يا عزيزتي لان طريق الحب ضيقة كطريق

السماء

ثم قالت أليس : وكان لي شاب نسيب يظن ان صلة النسب
 اقرب واسطة لديه الى قلبي ويتظاهر بحبي لان من كانت مثلي
 فقيرة الجمال غنية المال لا تقدر ان تنال الحب الطبيعي الا
 في النادر

— انك في نظري اجمل السيدات ولكن من اين عرفت
 انه لا يجبك ياسيديتي ؟

— عرفت ذلك من قلبي . فالقلب الصادق دليل الانسان
 يا فاطمة . الا تجددين كثيرين من البشر يمثلون دور رباّتهم بكل
 اتقان حتى ان الناس يكادون يصدقونهم ضدّ معاكسة قلوبهم ؟
 فاذا ظهر لك من احد حب فاما ان تبادليه الحب اذا توافق
 قلبكما واما ان تشفقي عليه اذا لم تقدر على حبه كما كانت
 الحالة معك ومع حسن هذا اذا كان حبه لك خالصا والا فانك
 تشعرين بنفور منه

فتنهت فاطمة عند استماع ذكر حسن واكملت أليس
 حديثها قائلة : اما انا فقد كنت اشتهز من نسيبي هنري
 واكرهه لانه كان من اولئك الشبان الذين اماتت الخلاعة
 ضمائرهم وخشنت المعاشرة الفاسدة عواطفهم وبردت العادات

المضرة شواعرهم

وكان هنري يلاحظ امري بدقة فعرف في ما لم اعرفه انا
جيداً من حيي لاسناذي ولا غرو فاننا قد كنت اغالط اميال
قليبي وهو كان لا يغالط نفسه بشعور ذلك القلب الذي كان يراه
في عيني حينما تنظران الى الاستاذ

ففي احد الايام دخل نسيبي غرفتي الخصوصية بدون
استئذان وكنت اقرأ كتاباً فبغت من دخوله على هذه الصورة
ورميت الكتاب من يدي وكظمت غيظي اما هو فجلس على
كرسي امامي وقال بلهجة جدية :

- لقد اتيت لاحصل منك على القول الفصل يا آليس .

فقلت مبتسمة : باي امر يا هنري ؟

- بالامر الذي لا تجهلينه - امر حيي لك الذي كررته

على مسامعك حتى ملته

- ان الانسان لا يمل ما يرغب فيه فلو كان حبك

مطلبي لما ملته بل بالعكس كنت اُسر به .

- اذن انت لا تجهليني ؟

- انتي احبك كنسيب وصديق وليس كخطيب

- حسبي ان اكون لك صديقاً فاصبح بعدها حبيباً

- كلا يا عزيزي لان الحب يتبدى حباً ولا يتغير نوعه

- بل كثيراً ما يتبدى بصورة صداقة بسيطة تطبخها

الايام فعتى نضحت تصبح حباً محرقاً
 — هب ان مذهبك صحيح فقد مضى على صداقتنا
 سنون عديدة هي كافية لان تحولنا ,, حباً محرقاً“ لو كانت
 التعاسة تتحول الى كمثرات مع كرور الايام
 فلما سمع كلامي اقترب مني فانتشرت رائحة المسكر من
 فمه فضاعت منها انفاسي ولما اراد ان يأخذ يدي بيده ابتعدت
 عنه قليلاً وقلت له بلطف :

— لا تعالج المستحيل ياهنري فاننا لا اقدر ان احبك
 اذ ليس لقلبي ميل الى ذلك ولا لعقلي مأرب في ارغامه
 — انك تهينني وتجرحيني معاً يا ليس . وهيبات ان
 تعودى تجددين قلباً يكن لك ما يكنه قلبي من المحبة والاعتبار
 — أنني أتأسف جداً على رفضك هذا ياهنري ولكنني
 لست خائفة لاأخذ منك ما لا اقدر على اعطائك مثله اذ ما هي
 الفائدة من حب من جهة واحدة ؟ وهل النار تشعل بقطعة
 واحدة من الحطب ؟

— انا راض ان يكون الحب من جهتي فقط .
 فانت شريفة فلا تبقين مغلفة القلب بازاء تضرعاتي الحبيبة
 وتوسلاتي الغرامية طويلاً . فضلاً عن ان اهم ما يُنظر فيه
 الى الزواج الآن انما هو الاتفاق ولا سيما بين الاهل
 — نظر فاسد هو لان اساس الزواج هو الحب واذا لم

يكن اساسه الحب فلا يبنى عليه للسعادة بناء

— دعينا من الفلسفة وقولي ان نعم فنعم وان لا فلا

— اذن اقول ,, لا “ بكل صراحة

فاكد وجه الشاب وظهرت عليه علامات الكدر تتخللها
دلائل حب الانتقام فتحققت اذ ذاك ان هنري لم يكن في
ادعائه حي صادقاً لان المحب الحقيقي ان رُفُضَ بحزن لا
يستقم اما انا فاقتربت منه ومددت اليه يدي قائلة :

— اذا لم تقدر ان نصير زوجين فلنبقَ نسيبين صديقين

فقال بغضب : اذا لم اقدر على الكل فانا اهلك البعض .

وخرج من الغرفة غاضباً

* الفصل الثاني والاربعون *

— المتحف —

تأنّ في الشيء اذا رمتهُ لتعرف الرشد من الغي

وبعد خروج هنري بقليل اتى استاذي فوجدني مضطربة

الفكر لا اقوى على امساك ريشة التصوير فلحظ ذلك وقال :

— ما بال تلميذتي الشريفة مضطربة ؟

لم اكن بعد دخلت مع المصور من باب ,, الالفة “ لانه

لم يسمح لي بذلك نظراً الى معاملته الرسمية لي ولكن لما سألتني
عن سبب اضطرابي شعرت من نفسي بالميل الى الاعتراف له
بكل ما جرى ففعلت بدون تردد

— كنت وانا اخبره انظر الى وجهه لاقرأ آيات افكاره
عليه فرأيتها قد ظهرت ولكنها بلغة لم افهمها —

استلقت على فراشي تلك الليلة فكانت افكارى تحوم
حول حوادث النهار فذكرت حديث هنري واستعددت لمقابلة
انتقامه بشجاعة • ثم ندمت على افشائي اسراري لرجل لا أعرفه
سوى معرفة بسيطة — فغضبت من نفسي اذ حسبت ان ذلك
الرجل الذي ملأ قلبي سيحتقري لطيشي •

ومن جهة ثانية كنت اشعر بانني اعرفه منذ دهور — وان
افشائي بسري له كان واجباً فلم ادر اي فكر اغالط

وما زالت هذه حالة المحبين من القدم اذا اجتمعوا يفشون
اسرار قلوبهم حتى اذا تباعدوا يندمون على افشائها ولكنهم لا
يلبثون ان يفعلوا ذات الامر اذا تقاربوا ثانية

انتي كنت دائماً سعيدة بعمل الخير لانه واجب كنت
ارى في قضائه سعادة عظمى وقد ساعدني الله بوجود قوة المال
معي اذ انها هي اليد التي تدبر آلة فكر الانسان ولكن لما
رأيت استاذي يشني على اعماله ويحبها تضاعفت في نفسي
تلك القوة وتلك السعادة •

وبعد مرور شهرين على تعارفنا قلت له:
 — لقد عزمت على امر ارجو ان تساعدني برأيك فيه
 — انا ؟

— نعم انت فقد عزمت على ابتناء متحف للتصوير اليدوي يكون
 شبه مدرسة وفيه اساندة لهذا الفن تعلم فتيات وفتيان الفقراء
 مجاناً

ففكر في كلامي هنيهة ثم اجاب قائلاً :
 — ما اشرف عزمك هذا ياسيدي ! فان هناك حاجات
 للارواح لا يستعاض عنها بحاجات الابدان فكثير من اولاد
 الفقراء يصرفون اكثر ايام حياتهم في السعي وراء ما هو ضروري
 لحياة اجسادهم في حين ان نفوسهم تتضور جوعاً وهم من ذلك
 في حسرة ولكن ما هي علاقتي انا بالامر ؟
 — ان لك اكبر علاقة به لانك ستكون مديراً لشؤون
 المتحف ومولياً لادارته اذا اردت ذلك

— اذا رأيتي سيدتي اهلاً لذلك فاكون سعيداً بخدمتها
 وبعد ثلاثة اشهر تم بناء المتحف وبلغت أكلافه فوق
 المليون دولار وللحال امتلأ من مئات الفتيان والفتيات ممن يحبون
 الفنون الجميلة ويمتعهم عن تعلمها قلة ذات اليد
 وقد سررت بهذا المتحف سروراً عظيماً لانه اشبع رغائب
 نفسي وقلبي معاً وذلك لان حب الذات من قواعد النفس

الاولى يا فاطمة والانسان مهما ضحى من سعادته لاجل الغير لا يزال في نفسه عاطفة حب لها ولكن سعادته هذه قد تتأني عن طريق خصوصية لا تنفع منها سوى النفس او عن طريق عمومية ينتفع منها الكثيرون

فالشاعر الذي ينظم قصيدة رنانة تنتعش بها قلوب القراء ويسمو تصورهم يكون قد ارسل لهم من فضلات لذته لذة بعد ان تكون مرت على طريق نفسه والموسيقى الذي يطرب الناس من الحانه يكون يشاطرهم السرور وهكذا قلتي عن الجميع وانا قد كنت في اول الامر اشعر بسرور للعمل لا نه مفيد فلما احببت صرت احبه لانه يسرّ الحبيب

فاذا قيل لك ان كل ما تعمله المرأة يكون لاجل ارضاء الرجل فصديقي لان هذا الرضى هو محور اعمالها دائماً

﴿ الفصل الثالث والاربعون ﴾

— الصورة الرمزية —

مضت كل تلك المدة ولسانانا صامتان عن النطق بكلمة حبية واحدة ولكن هل كانت روحانا صامتتين ايضاً ؟ كلاً فانهما تفاهمتا جيداً بلغتهما فعرف كل منا ما عند الآخر اما انا

فقد كان الحجل عذري في عدم مخاطبته بالامر ولكن ماذا كان عذره هو ؟

انتي عرفت وقوفه على امر حي له من عينيه ووجهه ولهفته ولكن ما معنى سكوته ؟ ان هذا السكوت كان يمزق قلبي حينما اكون بعيدة عنه فلما أقرب منه أنسى كل شيء واطلق روحي من قيد الافتكار لتذهب الى روحه فتجلسان امام بحر الحب العظيم تتشاكيان وتتناجيان بما كنت احسبه الى ذلك الوقت اقدس من ان يكون لغة تتناولها اللسنة بدلاً من القلوب .

ففي احد الايام ذهبت الى المتحف فوجدت الاستاذ في غرفته وبعد انتظار طويل في القاعة مضيت الى غرفته وقرعت بابها فلما فتح الباب عرفت سبب انشغاله فانه كان يصور صورة طبيعية جميلة وقد داني الانتهاء منها فلما رأيته قال بصوت حزين :

— كيف رأيتها ؟

— انها جميلة جدًا ولا شك انها اشفائك وقتًا طويلاً

— لقد ابتدأت بها منذ شهر ولكنني لم اتم منذ خمس

ليال اكثر من ساعة واحدة لانتهى منها

وكنت انا الآن امام الصورة انظر اليها . وهي تمثل فتاة في نحو الخامسة عشرة من عمرها بارعة الجمال جالسة على حجر

في ظلّ جسر حجريّ صغير يمرّ من تحته جدول من الماء الصافي وقد وضعت رجليها الحافيتين في الماء وهي تنظر فيها وتصفي الى كلام فتى في نحو السابعة عشرة كان جالساً على حجر بازائها وهو يحرك الماء امامها بقضيب في يده وحوّلها الطبيعة تتجلى بحلّها الخضراء والسندسية والحمرّاء وعلى قيد اذرع منهما بقرة وشاة ترعيان

وكأن منظر الشاب والفتاة يتكلمان في وسط تلك الطبيعة الهادئة حيث لا يعترض حديثهما سوى خرير الماء وحفيف ورق الشجر وقرط البقرة والشاة للعشب حرك قلبي فطار في فضاء تلك البرية فوق رأسيهما ولم استفق الاّ لموت برناردو القائل :

— ترى ماذا ينشر هيئة الراحة والرضى والسعادة على وجهيهما ؟

— وجودهما في تلك الطبيعة الهادئة
— ان هذه امور تسرّ العين ولكنها لا تملأ القلب .
— اذن خلّوها من الهموم لحداثتهما
— متى كان القلب خالياً من الهموم يكون خالياً من الجوهر ايضاً لان سرور الاولاد وقتي

فكانت الكلمة التالية تدنو من في مدفوعة بقوة من قلبي فأخذها عقلي بشدة ويرجمها اليه واخيراً تغلب الاولى

فقلت متلثمة :

— اذن حبهما المتبادل

— لقد اصبحت . ولكن ليس الحب وحده ما يسبب
سعادتهما بل مساعدة الظروف لهما فيه . انهما في اول الطريق
الآن ولم يجربا سلوكها بعد ليعلما

فقلت باضطراب ولكن ربما سلكاها بكل سهولة
فتنهذ مرة ثانية وقال : من نظرك اليهما ترين هيئة الحب
الحقيقي . وهل سمعت بحب كهذا سالك اصحابه طريقاً سهلة ؟
فان من الامور ما يكون ثمنه باهظاً جداً ومنها ما يوجد
له ثمن

— ولكن ما ليس له ثمن قد يقدم هدية . . .
— نعم ولكن هناك ظروفاً تمنع المرء عن ان يشتري او
يقبل الهبات لان الانسان اسير الظروف
— وهل من كان له عقلك وحكمتك وشجاعتك يعتقد
بأسر الظروف وحكم الدهر ؟ انا اعتقد ان الارادة تبلغ المراد .
— اذن فأتاك ان المرء يقع في حياته تحت سلطتين
قويتين لا يستطيع معها تنفيذاً لارادته ؟
— وما هما ؟

— هما اولاً سلطة اهله عليه حين لا يكون مدركاً وحين
يكون كالشمع يصنع منه المرء التمثال الذي يريده وثانياً سلطة

جهله امر مستقبله فالمرء كثيراً ما يكون مقيداً بقيد قويٍّ من
اهله يصل ماضيه بمستقبله فيصرع بينهما بحكم التقادير
— اظنك تتكلم عن امور خصوصية

— نعم . نعم . انني اتكلم عن امور خصوصية تقيّد حياة
المرء مهما كانت افكاره مطلقة وتؤديها بفساد المصطلحات
والعادات الظالمة

فعرفت انه مقيد مظلوم فاضطرب لهذا الفكر قلبي ولم ادر
الّا وقد قلت وانا انظر في الصورة

— وهل تظن حبهما متبادلاً ؟

— نعم انه كذلك

ورماني بنظرة احمرّ لها وجهي حياءً ونبض لها قلبي شعوراً
فقلت :

— ان حباً كهذا يكون اعظم من كل شيء فلا يحول بينه
وبين القلوب حائل

فتفرّس في وجهي ثانية وقال بصوت متهدّج :

— صدقت يا أليس . لانه حب روح لروح والارواح
تتحد بالرغم عن معطس الدهر وانوف اهله وفي اتحادهما
مسرّة لله .

وكانت هذه هي المرة الاولى التي لفظ فيها اسمي مجرداً
فاضطرب كاضطرابي حين سماع كلامه وخرج حالاً من تلك

الغرفة فخرجت وراءه .

* الفصل الرابع والاربعون *

— الكتاب —

على أغصانها ثمرٌ شهِيٌّ ولكن أكله موتٌ زوأمٌ

رجعت ذلك النهار الى البيت وافكاري كلها كمشعل ناريّ مُضيّ في هيكل حب ذلك التلياني الذي كان يطلق عليه اسم ,, التلياني الحشن “ واما عندي فقد كان الطف البشر . وقضيت نهاريه وليلي وقلبي كعباد الشمس يدور بعواطفه معه كيفما تصوّرتُ انه دار فلما جلست على الكرسي واطرقت كنت ارى شخصه على الارض ولما استلقيت على فراشي واصعدت بصري الى سقف الغرفة اصبح هو هنالك فكأنه كان موضوع نظري وبصري وملء فؤادي وعيني لا افكر الاّ فيه ولا ارى سواه .

ولم اصدق ان طلع الصباح حتى اسرعت الى المتحف وحين وصلت لاقاني الرجل التميم على تنظيفه ورفع قبّعه وناولني سلسلة مفاتيح قائلاً :

— ان الاستاذ روزاتي ترك هذه لك واوصاني ان تنحني

غرفته وتنظري الى ما وراء الصورة • فقلت للرجل بصوت مضطرب • واين هو الاستاذ ؟
فقال ذهب البارحة •

لو انقضت ساعة على رأسي لما أحرقتني أكثر من كلام ذلك الرجل فذهبت الى الغرفة وركبتي تكادان تحواناني في المشي ولما فتحتها التفت الى ما وراء الصورة • فإذا وجدت ؟ وجدت ظرفاً معنوياً باسمي ومكتوباً بخط يده فأخذته حالاً وأفقلت الباب وخرجت الى حيث كانت سيادتي وقلت للسائق ،، الى البيت ! ،،

سجنت نفسي في غرفتي وفتحت ذلك المكتوب وقرأته أولاً وثانياً وعاشراً • وكنت كلما قرأته مرة ارتفع درجة عن حضيض المادة الى ان اصبحت بكائتي روحاً وحباً وصبراً واحتراماً لشخص ذلك المحبوب • ولما طويته ووضعت في صدري شعرت كأني انفصلت عن هذه الارض انفصالاً تاماً - وصغرت عندي المصائب وعظم الحب - حب الروح الابدی فعند ذلك اصبح الموت عندي يعني الدخول في حياة جديدة خالدة لأن الحياة اصبحت لغواً

عند هذا الحد مسحت أليس دموعها التي كانت تتساقط بهدوء وغزارة تقابلها دموع فاطمة المخلصة ثم مدت يدها الى صدرها واخرجت منه غلافاً من العاج يشبه قلباً وهو مرصع

بالحجارة الكريمة ففتحته واخرجت منه كتاباً وقالت لفاطمة :
 — انني أغار من كل عين ان تراه وكل اذن ان تسمع
 فخواه الا عينك واذنك يارفيقتي التعيسة فاسمعي لاقرأه لك .
 ١١ حبيبة روعي !

حينما دخلتِ غرفتي ورأيت تلك الصورة وسمعت مني ذلك
 الحديث كان قلبي قد طفح وما الرمز الذي في تلك الصورة
 والحديث الا ما فاض منه بعد امتلائه — بعد ان طفح
 بحبك

فاذا سألتني لماذا تركت نور الحياة في عينيك وابتسامه
 السعادة من شفتيك وحياة الفخر والشرف والحب بين يديك
 وفررت الى حيث تكتنفي الظلمة من كل جهاتي اجيبك بانني
 فضلت الظلمة على النور والتعاسة على السعادة لاجلك — لاجل
 شرفك

ما هو الحب ؟ ان من في عيونهم رمد لا يبصرون هذه
 الشعلة الالهية التي تضرعها يد الله وحده في القلوب . يسمون
 الصداقة البسيطة او الفسق حباً فيدنسون اقدس اسم وشيء
 يضعه الله في تلك القلوب التي يكون حطب المجد والشرف
 دائماً حاضراً فيها للوقود بنار — وقد لمست يد ابولون شعلة قلبي
 فأضرمتها فرأيت الخطر علينا من ذلك وفررت منه حباً بك اكثر
 ممّا بنفسي

والسبب انني مقيد . فقد زوجني اهلي وانا صغير السن ب ابنة عمي رغماً عني ففررت من بيتنا في ليلة العرس بينا الناس لاهون بطريهم وزهوهم واختبأت في بيت احد رفاقي في مدينة نابلي الى ان تيسر لي السفر فحُتت بلادكم هذه وتبعت مهنة التصوير اما اسمي الحقيقي فهو —

تركت اهلي منذ اكثر من عشرين سنة وتلك الفتاة المسكينة التي احبتها كأخت وليس كزوجة — يحسبون فراريه جريمة . ولم تنزل ابنة عمي في بيت ابي بانتظار رجوعي اما انا فماذا كان شعوري في تلك السنين الماضية ؟

انني مسيحي احب الله واعبده من صغري وقد كان ذلك الحب وهذه العبادة راقدين في نفسي رقوداً تاماً — وقد كنت رقيق الشعور اشعر بالظلم الذي وقع على اهلي بسببي ولا اعمل بموجب ذلك الشعور لانني انا ايضاً كنت مظلوماً — ولكنني كنت جباناً فلم احارب الظلم او اصبر عليه بل فررت من وجهه .

عشت كل تلك السنين الماضية كتمثال من لحم ودم — اذ لم ارغب فيها في فضيلة ولا أتيت رذيلة . لم اندم على عمل شاذ ولم أتنق الى عمل صالح — فقد كنت ميتاً عن الخير والشر وعن العالم بأسره — وكنت احسب انني خلقت لا لأفيد او استفيد بل ان حياتي صدقة على وجه الارض

وانما دقيقة واحدة كانت كافية لان تنقل دولاب نفسي
 من حيز السكون الى حيز الحركة — دقيقة واحدة قلبت حياتي
 بطناً لظهر وصيرت سلبية نفسي ايجابية — هي تلك الدقيقة التي
 رفعت فيها بصري الى بصرك باول مرة تلاقينا — وماذا
 حدث بعد ذلك ؟ حدث ان كل نظرة الى ذلك النور المنبثق
 من عينيك الطاهرتين كانت تحضر الى امام عيني جزءاً من
 اجزاء حياتي الماضية حتى صارت كلها امامي فنظرت فيها نظراً
 مدققاً كانت هذه نتيجته

انني احببتك كل الحب الذي يوجد في قلب رجل قوي —
 وقد كان هذا الحب راقداً في نفسي الى ان نبهته بصوت
 لطفك وشرف اعمالك وجمال روحك وعرفت انه اذا طال يوماً
 واحداً بعد هذا اللقاء الاخير فانه يطرحني على قدميك —
 ولكن هل انا استحق هذا المكان الشريف ؟ كلا !
 ما اعجب اعترافي هذا مع انني لم اكلمك كلمة بشأن
 الحب ولكن هل انا جاهل ؟ . ان روحينا قد تكلمتا وتعاهدتا
 بلفتها وها انا بهذه اللغة السامية اخاطبك الان اما الى اين هو
 ذهائي فهو الى وطني — فان وجدتها قد تزوجت — او
 ماتت — ارجع الى حياتي السعيدة التي اضعتها ثم وجدتها بعد
 طوال السنين بابهي منظر واجمل حلة والا فالواجب يقضي علي
 ان اضحي جسدي على مذبحه اكراماً لوالدي الذين تحملا

مرارة بعدي انا وحيدهما وزوجتي التي كانت امينة علي عهدي
وهي تحسبني خائناً مع انني لست كذلك .

اما روحي فهي لك في شرع الله ، لان الارواح تتحد
رغماً عن كل احد وكل شيء وكل ظرف واتحادها من الله وهو
يسره " كما قلت لك

فاصفحي الآن عن ذنبي يا أليس — يا حبيبة قلبي —
وياحياتي المملوءة سمادة وشرقا وفضلا — بل يا مشعلة مصباح
نفسى بزيت الفضائل والصبر والشرف الحقيقى — واعلمي انني
لو بقيت بين يديك لكان حدث امران اذا تزوجنا ولم تعرفي
ماضي حياتي وهما: خيائتي وعارك . وحاشا لي ان اكون حبيبك
وخائناً وان اعرض شرفك الرفيع للعار

فمن اجل شخصك المقدس قد ضحيت اعظم سعادة
ممكنة لرجل يحب امرأة لان في صيانة شرفك سعادتي —
او لاجلك احيا حياة الاناة والفضيلة والتضحية والتكفير — لانك
انت تحمين هذه الامور — ولاجلك سأجعل نفسي اهلاً
للسماء فاجتمع بك واقبل موطى قدميك الطاهرتين اذا لم اقدر
على ذلك على الارض .

فهل من رجل قد ضحى كما ضحيت ؟ وهل من رجل
احب كما احببت ؟ هذا سؤال لا يجيب عليه سواك يا معبودة
الرجل الذي احب وضحى وصبر اكثر من كل رجل على

سطح الارض

حيبك

.....

* الفصل الخامس والاربعون *

X — لا تعرف المرأة نفسها الا اذا كانت ازاء المرأة —

اني احبّي عدوي عند رؤيته
لأدفع الشرّ عني بالتحيات

ولما انتهت آليس من قراءة الكتاب طوته وارجمته الى
غلافه فإلى عبّها وهو مكانه من عشر سنوات ونظرت الى
فاطمة بعينين ناشفتين وكأن الفلسفة ابتلعت من قلبها الحب
اذ قالت :

— هل رأيت الفرق بين الرجال ياأختي فالمرأة استاذة
الرجل في اكثر الامور وهو استاذها في امر الحب لانه هو
الذي يطلب يدها

فقالت فاطمة وقد ترقق الدمع في عينيها :
— ما اسعد المرأة التي تحظى باستاذ شريف اذن يدرّسها
امثلة الحب بشرف وطهارة

— ولكن الرضى يمثل هذه المعاملة يتوقف على اخلاق المرأة نفسها فان كانت شريفة تباركها والّا فتلعنها ولكن لو فرضنا ان القسم الاكبر من الرجال يكون بهذه الخصال فكأن كانت الفضائل النسائية في الحياة كثيرة والنقائص قليلة — تلك النقائص التي تفسد دم الامة ويكون المسبب لها هو الرجل في اكثر الاحيان

قعطت فاطمة وجهها بكاتتا يديها واخذت تفتكر في عمل سليم معها ومع ذلك لم ترد اعلانه لئلا يلغنه الناس من اجلها ولا أنه كان لم يزل في قلبها كما كان في البداية وكما سيظل الى النهاية — الحبيب الواحد المفدى .

فمسيكينة هي فاطمة التي عملت بموجب تعاليم المسيحية الحقيقية بالمكافأة عن الشر خيراً وبمجازاة البغض بالحب والحق بالصفح والحيانة بالامانة فما هو سبب هذه القوة في نفسها ؟ أهو غير السبب الوحيد الذي حمل فادي البشر على إهراق دمه من اجلهم ؟ — أهو غير اساس الفضائل — أهو غير الحب السامي الشريف ؟

ولحظت أليس حسرة فاطمة فرقّت لها كما هو شأن الظافر مع المغلوب وقالت بلطف :

— خفني عنك يا عزيزتي بعد ان سمعت قصتي . ألم اقل لك انك متى سمعتها لا تبادليني مركزك ؟

فجاء هذا الكلام كسهم حادّ في صدر فاطمة انهضها نهضة
من يقوم ليقع وقالت :

— انت ياسيدي تحسدينني على موتي ؟ على مذلتّي —
على عاري — انت التي احترم حبيبك شرفك فلم يمسه تحسدين
من هي كوردة نضيرة ولكنها مدبوسة بالاقدام الان لا يرفعها
احد الى فمه ولا يضعها على صدره ؟ اواه ان هذا
تلطف عظيم من حضرتك ولكنه يزيد الآلمي ويوضح لي
صورة حياتي بأجلى معانيها • فرحم الله ملكنا الشاعر العاشق
القاتل :

هم يحسدوني على موتي فوآ أسفي

حتى على الموت لا اخلو من الحسد !

لا يؤثر في المرأة مثل المرأة ومن تكون شريفة الفطرة
والاخلاق وقد مُسّ شرفها لا تتأثر من ذلك المساس بوقت
ما مثلما تكون بازاء امرأة أخرى سليمة الشرف • فن يلوم فاطمة
اذن اذا حركها كلام آليس الاخير الى ان لغت جهازاً من كانت
لحدّ تلك الساعة تباركه — ولكنها لغنة لفظية لا قلبية
ثم ساد السكوت مقدار خمس دقائق الى ان خرقت
آليس حرمة بقولها :

ان اساس الحب الشريف هو اعتبار شخص المحبوب
مقدساً وشرفه مصوناً وما لا يبنى على هذا الاساس لا يكون

عَوْضٌ صَحِيحاً • ولكن شخصك انت في نظر العقلاء لم يزل مقدساً وان يكن قد جرب ذلك الرجل تدنيسه فلا تنسبي لنفسك ما ليس فيها واسمحي لي فانهي لك قصتي

لم يمض على ذهاب برناردو غير مدة وجيزة حتى خرقت ابصار الناس حجاب قلبي مع اجتهادي في التستر وكان هنري اول من درى بالامر واظن انه اول من اشاعه ايضاً وبعد سفر حبيبي يومين اعلن البواب وجود زائر في الردهة فذهبت واذا هو هنري ولما رأى اثار الشحوب في عيني شمت فيّ من جهة وسرّ من اخرى اذ ظن انني اصبحت الان اكثر تساهلاً معه فقال مبادرة :

— لقد ذهب من قدّمتني ضحية على مذبح حبه فهل تعلمت من ذهابه امثولة ؟ فانتهرته قائلة : انك وقع ياهنري بمخاطبتي بمثل هذا الكلام في بيتي فيجب ان تخرج منه حالاً ! قال متهمكاً منتقماً : وهل اخرج قبل ان اعلن لك خبر عزمي على الاقتران بالآنسة اوليفي اودكا — رفيقتك المدرسية وصديقتك القديمة ؟

وكان يظن انه بكلامه ينتقم مني • اما انا فابتسمت وقلت له :

— لقد صفحت عن كلامك الاول اكراماً لهذا النبأ السار •

ثم اخذت بالتحدث معه بجندل عن عروسه وعروسه ووعدته بانني اذهب لزيارتها في اليوم التالي وهو يتكاف الرضى عن الحديث تكلفاً . فالتقمت منه حيث كان هو قصد ذلك وفي اليوم التالي قمت بوعدتي من زيارة خطيبته فكان عملي هذا مجهزاً على بقية الشماعة في قلبه . لانه لا شيء يقهر خصمك مثل اظهار سرورك بالشيء الذي يظنه يقهرك . فتدّ بذلك انتقامه على نفسه

ولم يكن هنري صادقاً بقوله لانه بعد ذهاب برناردو اصبح اكثر املأً للحصول على يدي من ذي قبل فصار يؤجل زواجه من سنة الى اخرى حتى ملّت خطيبته وملّ هو ايضاً انتظار رضاي فتزوج في هذه السنة

وقد وردني منه كتاب اليوم يقول انه عن قريب يرجع من اوربا مع عروسه وصديق له من اشراف فرنسا هو الماركيز بورتيه ولربما كان له من اصطحاب هذا الماركيز غاية لم تنزل جنيناً في بطن الايام . . .

هذه قصتي يافاطمة وكل حادث فيها قد جاء ختماً ابدياً على مقاصدي فأنا صاحبة ملايين من الذهب ومع انني قد وهبت اكثرها او بالحري — جعلته في يد هي اكثر امانة عليه من يد الفرد — في يد العموم — في يد الانسانية — فاني احب البساطة الكلية في كل شيء واحسب ذاتي مجرمة ان

خالفت هذه القاعدة لاني اخالف هوى نفسي وميلها الطبيعي
فضلاً عن اعتقادي الديني .

اني في سجن مالي ياعزيزتي — اني في قفص ذهبي
ولولا وجود هذا المكتوب في صدي لكنت اتعس النساء —
فماذا يفيد المال لتحقيق الآمال ؟

انك أم الانسانية الرؤوف ياسيدي فلتكن تضرعات هذه
الانسانية كالبخور امام الله من اجلك — وليكن جزاءك عن
اعمالك العظيمة لقاء الحبيب وهو اعظم جزاء
فتنهت آليس وقالت :

— نعم فليكن ذلك اللقاء في دار البقاء لانه لا امل به
في دار الشقاء

* الفصل السادس والاربعون *

ذهاب فاطمة

عند ذلك قرع جرس الطعام فاسرعتا الى المائدة ولما لم
تجد الشيخ قالت آليس

— لقد نسينا شيخنا ويجب ان نذهب لعيادته
وبعد انتهائهما من تناول الطعام الذي تناولته بدون كلام

هذه المرة لان افكار كل منهما كانت تجول في الماضي المملول
والآتي المجهول ذهبتا لعيادة الشيخ في غرفته
وكان جالسا الى مكتبه مكباً فوق أوراقه فقالت آليس:
— لقد جئنا نسأل عن صحتك يا عمّ

فقال بدون ان ينظر اليها — هذا تطف عظيم فشكراً لكما
ولم رأت آليس هيئة الارتباك قد ظهرت على وجه الشيخ ظنت
ان وجودهما ازعجه فاومأت لفاطمة وخرجتا حالاً وهي تقول
— ارجو ان يزول مرضك حالا يا عمّ لان المائدة بدون
وجودك ناقصة

اما الشيخ فبعد ذهابهما نهض عن كرسيه ونزع عنه شعر
لحيته ورأسه الابيض المستعار ورمى بنظاراته الزرقاء فبان من
تحتها وجه جميل وعينان برّاقتان واقترب من المرأة واخذ ينظر
فيها ثم قال :

، ان المائدة بدوني ناقصة “ فهل الحياة كذلك ايضاً ؟
أواه اي متى اقدر على اكتشاف حقيقة الحال ؟ اي متى
تساعدني الظروف على إمساك حسونة السعادة وسحبها في قفص
حي ؟ اي متى يا الهي أي متى ؟

ثم اوصد بابه واستلقى على فراشه وقد سرّ موقتاً بنزع
تلك الاشياء المستعارة التي كانت تجلب عن قلبه نور السعادة
كما تجلب حقيقة حاله عن الابصار

ولما رجعت المرأتان الى البهو جثت فاطمة امام أليس
واخذت يدها فقبلتها على ممانعة الاولى وقالت لها ودمنة
الشكر في عينها

— انني لا اقدر على شكرك ياسيدي لان عمالك معي
لا يكافأ بشيء ولا يوفيه حقه كلام ولكن اتوسل اليك ان
تسمحي لي بالذهاب الآن — لقد احببت وعرفت فرقي لحالي
وكانت دموع فاطمة تتساقط — وكان الدمع قد اصبح بعينها
طبيعة — فأجابتها أليس باكية

— انني ليس فقط اسمح بذهابك بل اساعدك بكل
قوتي لانني مجبري كسر قلبك ارد لقلبي بعض سعادته والقلوب
متى تساوت تأخت ايتها العزيزة انما يصعب علي فراقك على
هذه الصورة ولكن بما ان الامر مطلب قلبك فلا ارى بداً من
ذلك لان دواء القلوب مشتهاها ولو كان سماً

— نعم ولا دواء لداء قلبي الا بمراه او معرفة امره

— ولكن اذا لم تجديه فهل ترجعين اليّ ؟

— وهل لي مأوى غير حى اخلاصك وحبك ؟

— انني اكون سعيدة جداً بقضاء العمر في عشتك
وولدتك الجميل يكون ولداً لكليتنا ولكن أليس الاوفق تركه هنا
الى حين رجوعك ؟

وقد كان حب أليس لفاطمة خالصاً وشديداً وعظيماً فلما

لم تقدر على اقناعها بالبقاء ارادت ان تبقي ابنها عندها كضمانة
لرجوعها اما فاطمة فمع شكرها لهذا التنازل والحب قالت بحزن :
— يعز عليّ ان اقول لمثلك هذا الكلام ياسيدي الكريمة ولكن
الصدق اقله لك انه اهون عليّ مفارقة روعي قبل مفارقة
ولدي — انه كل شيء لي ياسيدي فهو قوّة الحياة وثمره الحب
وصورة ذلك الحبيب الظالم

— انا اعلم ذلك ياعزيزتي وما طلبي الا حباً بتخفيف عذابك
وعذاب الطفل بندهابه معك

— اشكرك كثيراً يا مولاتي ولكن الأمّ تحب ان يرافقها
ولدها الى محيط الشقاء ولا ان يبعد عنها الى سماء الهناء

— هذا عين الغلط يا فاطمة فاذا كانت الظروف وهي
تملك قيادتنا تطرحنا ما بين مخالف العذاب والشقاء فمن الظلم
والجهل ان نطرح اولادنا معنا مختارين ونحن نملك قيادهم .
وما ذلك الا بدعوى حبنا لهم

— ان امري مثنى ياسيدي العزيزة . وانا لا اقدر على
تركه وفيّ رمق من الحياة

— انا لا ارغمك على امر لا تعقدين فائدته ياعزيزتي

✽ الفصل السابع والاربعون ✽

ذهاب فاطمة ورجوعها

اعود الى البيت الذي هو جنّتي
بما فيه من لطف وعطف وإيناس

وبعد دقائق معدودة كانت فاطمة بجانب آليس في
السيّارة ووجهة السائق الشارع الذي يسكن فيه نسيب سليم
التاجر

ذهبت فاطمة وقد اودعت في قلب تلك المثيرة العظيمة
الفاضلة محبة الانسانية حباً لمعاشرتها وشوقاً اليها وولعاً بجماها
وذكائها وإباء نفسها ووفائها فاصبحت بعد معاشرتها مستوحشة لها
كأنما لأ عزّ صديق لديها وهي تنتظر رجوعها في كل يوم تتمي
ذلك بكل شوق وبعد مضيّ عشرة ايام على ذهاب فاطمة كانت
آليس في الحديقة فرأت صديقتها العزيزة تخرج من مركبة امام
باب منزلها وعلى ذراعها طفلها الجميل فهرولت مسرعة اليهما
وبعد ان ضمتهما وقبلتهما تراجعت بعض خطوات عنهما ونظرت
الاميركية الى وجه البدوية وقالت لها بانذهال

— ما هذا ! ما هذا الشحوب في وجهك . وماذا
اصابك ؟

فنفرت اليها فاطمة بانكسار والدمع يجول في عينيها وقالت .
— اصابني ما هو اكثر من مصائبى
— وما هو ؟

— هو رأي الناس فيَّ
فعرفت آليس قصدها واخذت بيدها واتجهت بها نحو
الدار قائلة :

— دعي اراء الناس وشأنها فلناس في ارائها شوئون وحسبك
ان تكوني بريئة عند الله وعند ضميرك وهما يكفلان براءتك
عند عقلاء الناس وافاضلهم ولكن قل لي هل وجدته ؟
فتنهت فاطمة وقالت : كلاً لم اجده وسأخبرك بما حدث
عند ما ندخل اندار وفيما ارجلهما تطآن عتبة المدخل الكبير
سمعتا وراءهما وقع اقدام فالتفتا واذا بثلاثة اشخاص رجلين
وامرأة قادمين فقالت آليس

— ذاك هو هنري نسيبي وعروسه عن يمينه والذى
يتقدمهما هو المركيز روتيه الذى اخبرتك به سابقاً

دخلت آليس وفاطمة الى الغرفة التي كانت قد خصصت
بالاخيرة وكانت لم تنزل على حالتها التي تركتها فيها . وبعد
دقيقة دخل الخادم ببطاقات الزثرين على طبق ذهبي فتناولتها

آليس وقالت لفاطمة

— أتودين التعرف بهم ؟

— كلا . كلا ياسيدي لانني لا ارى شيئاً من العالم

كله الآن

وبعد مرور ساعة رجعت آليس ورمت نفسها على مقعد

بجانب فاطمة وهي تتنفس الصعداء وتقول :

— ما اقبح الرسميات الناشفة عندي . فانا افضل الجلوس

واياك نفرغ بعض ماء احزانتنا في احاديثنا من ان اكون مع

الف ملقب عظيم

— ولماذا ياسيدي . أليس الماركيز مهنياً ؟

— انه يظن نفسه آية اللطف والظرف ومثال الكمال

والجمال فهو يدعي الشعر والسماع وكل الكمال الادبي واما عندي

فهو تمثال لا روح فيه وهذا هو نظري في كل رجل

— وماذا تعنين بالروح ؟

— اعني تلك العاطفة التي تجذبني اليه فلربما يكون

له ارواح لا روح واحدة لغيري واما في اعتباري فكل الرجال

تمثيل لحمية فقط

— انا اشك بوجود ارواح كثيرة كروحك ياسيدي

— أوّاه يا فاطمة ! انني قد وجدت واحدة من تلك

الارواح ولكن يد الظروف انتزعها مني فلو تدرين كم افكرت

وكم تصوّرت وكم حدثت نفسي بهذا الامر في مدّة غيابك
لان قصّتك نكّأت جروح قلبي فأدمتها فقد كان يحملني تصوّري
احياناً على الشعور بانه شبه حمامة بيضاء ترفّ بجناحيها فوق
رأسي فحين امدّ يدي لاتناولها تهرب من امامي ولا اعلم ما
معنى شعوري الغريب بقربه مني في هذه الايام

— يقولون بان الشعور والاحلام كثيراً ما تجيء عكساً

فلعل هذا الشعور كان مقدمة لمجيء الماركيز . . .

مسكين الماركيز انه يحسبني كـ بعض بنات جنسي اللواتي
يفرّهن جوع قلوبهنّ الى الانقلاب والمقلبين فيتناولن ما لاتهضمه
معدهنّ من الطعام وهو يظن انه قادر على دخول فناء قلبي
من باب التزلف والتدليس وقد فاتته ان هذا القلب موصل
دون الحقيقة فكيف ألومه ولكن ما لنا وللماركيز الان فأخبريني
بالذي حصل لك في سفرتك .



﴿ الفصل الثامن والاربعون ﴾ *

مقابلة فاطمة لنسيب سليم

المستجير^{عليه السلام} بعمره عند كربته

كالمستجير من الرمضاء بالنار

قالت فاطمة بعد ما فارقتك امام محل ذلك الرجل دخات
الى محله وسألت عنه فقيل لي انه خارج المحل^{عليه السلام} ويأتي بعد
نصف ساعة على الاكثر وقدّم لي احد مستخدميه كرسياً فجلست
انتظر قدومه

ولم يكذب^{عليه السلام} يستب^{عليه السلام} بي المقام حتى تجمر حولي كل عمال
ذلك المحل تقريباً . وكان بعض المارة حينما يروني يدخلون
وهذا يدعي السؤال عن شخص ما وذلك يطلب من رفيقه لفافة
ويقف بالقرب مني يلفها وهو يحاول مسارقتي النظر وغيره يتظاهر
بتفويض الغبار عن الواجهة التي امامي وهو بالحقيقة يتلهى بالنظر
الي . وانا مع كل قلتي واضطراب افكاري لم اقدر على
التغاضي عن حركاتهم هذه فضحكت في سري احتقاراً لهم
وقلت لنفسي . ما اشد لؤم بعض الرجال ! انهم كبنات آوى
الآن وهم يرقصون امام دجاجة لظنهم انها تنزل عندهم

مستجير
عليه السلام
نسيب

ليأكلوها... ولكن ساء فألهم فان من الطيور ما تكون صليبة
المخالب تفقأ العيون

وأخر دور من تمثيل الحفة والطيش واللؤم كأن ان اثنين
وقفا على مقربة مني واخذا بالكلام المبهم مرسلين نظرات
تود المرأة الشريفة ان تكون عمياء فلا تنظرها موجهة اليها وكان
على مقربة منهما كاتب مكب على اوراقه فلما سمع احاديثهما
قال لهما

— ألا تحجلان من هذا الحديث

اجابه احدهما متبهما . لقد ترهب ابو الحسين
فأجابه الكاتب . اقتديا على الاقل بسكري القوم الذين
انتم بينهم فانهم يحترمون المرأة اكثر منكم
وبعد نصف ساعة حسبتها نصف دهر دخل صاحب المحل
وكان طويل القامة جميل الصورة حاد البصر وعليه هيئة الكبرياء
والخيلاء فأخبره احد عماله بأمرى فاقترب مني قائلاً

— ماذا تريد مني ايها السيدة ؟ ولكنه حينما حقق
نظره فيّ تراجع الى الوراء كتراجع الصحيح عن الاجرب فقلت :
— اريد ان تسمح لي بمخاطبتك على حدة

فشى وتبعته الى غرفة خلفية وهناك جلس وقدم لي
كرسيًا فجلست مقابله وقال بشيء من الامر المزوج بالضرر
,, تفضلي ! “ .

قتلت له أتعرفني ياسيدي ؟ وكأن كلامي هذا دفعه الى
قول شيء بفكره لكنه عاد فقال بعبوسة
— نعم اعرفك فإذا تريدني ؟

فسردت له قصة ترك سليم لي وقلت له متوسلة والدمع
يتساقط من عيني :

— انك بدون شك تعرف مقرّ سليم الحاضر فهل لك ان
تدلّني عليه ؟

فأجاب بجماء : انني لا اعرف عنه شيئاً ولكن هي انني
اعرف مقره فليس من واجباتي اظهاره لك

— من واجباتك هداية زوجة الى مقرّ زوجها وولد الى
موضع والده ؟

— (بغضب) : انك لست زوجة شرعية لسليم ولا
ولذلك كذلك فاي حق لك بمعرفة امر رجل قد جلبت عليه
الامار وكسرت قلوب والديه واهله كل تلك السنين فيجب ان
يكون عندك مقدار ذرة من الشرف تمنعك عن اللاحق به اذ
قد كفاه ما قد جرى له بسببك

— أنا كنت سبب اسقاط سليم وعاره ؟ أنا التي
انزعته من بين اهله ؟ ام هو الذي فعل ذلك ؟ هو الذي
انزعني من بين نقاوة الطبيعة وطهارتها ورماني بين امواج
المدنية الفاسدة لأحاربها بكل قوتي . انه كان عالماً وانا جاهلة

وهو الذي اغواني وليس انا التي اغويته فأَيُّ منا هو المذنب ؟
 — ما أنا بقاضٍ لأحكم بينكما . واقول لك الآن انك لن
 تشاهدي سليماً فيما بعد فلا تجدي في طلبه واقنعي بالذي تركه
 لك من المال واطلقيه من اسرعارك مختارة

فهاج الدم العربي في عروقي وقلت له غاضبة :
 — لا يقال لمثلي هذا القول فانني زوجة سليم الشرعية الائمة
 الطاهرة فاما ان تسترجع كلامك واما ان تكون ، انت المجرم ،
 باهاتك امرأة بدون حق
 فقال مقهقها :

— هذا جواب كثيرات من امثالك . شريفة ! نعم .
 نعم ! ان من تساكن رجلاً وتلد له ولداً تكون من اشرف النساء
 واطهرهن قه . قه . قه .

فكان كلامه الاخير وقهقهته كنار اضربت في قلبي
 — انت مصيب . فالمرأة التي تفعل هذه الافعال تكون
 منحطة سافلة لثيمة ولكن انت لا تعنيني بل تعني المرأة التي
 هي تحت سقف بيتك الآن — عشيتك التي تساكنتك — بل
 تعني نفسك لان ذنبك كذنبها وانت مفارق لامراتك واولادك
 في الوطن ومساكن لهذه اما انا فقد اعتقدت انني تزوجت
 برجل زواجاً شرعياً طاهراً دائماً واذا كان هو قد خدعني
 فخداعه لا يؤثر في شرف اعتقادي واماني وطهارتي شيئاً

قلت هذا وخرجت من باب تلك الغرفة وهو يتبعني
قاذفًا اياي بالسباب والشتيمة دلالة على انه يعرف عاره ويفضبه
من ذكر الناس له ولكنه لا ينجبل ان يلصقه بغيره
فقلت آليس هذه حالة اكثر البشرياعزيزتي فان الواحد
منا يكون يعرف الف عيب في نفسه ولكنه يرميها وراء ظهره
ويتنهر الفرصة ليوقع غيره بمثلها او باسفه منها سواء كان صادقاً
ام كاذباً

قالت فاطمة : وبعد ان ذهبت قادتني افكارى الى
حيث لا اعلم في ذلك الشارع فقد لحظت بل تاكدت من كلام
الرجل ان سليماً رجع الى الوطن الى ابيه وامه . واما انا ؟
انا ياسيديتي يحسبني الناس شيئاً لا قدر له . بل اكثر من
ذلك شيئاً يستحق البذ والعذاب والهلاك لانه باعتقادهم ، غير
صالح “ فلا يرحمونه ” فما هو هذا الظلم ؟ وماذا يسمون هذا
الاجحاف بالحقوق ؟ . فان كان الرجل قد جنى بشركتي
عاراً فيجب ان يشاركني بالقصاص كما انه عليّ ان اشاركه في
الشرف اذا عاد عليه فعله بالفخر لان الشريك له حق
الشريك في كل شيء . هو كان القائد وانا المقودة فهل من
العدل ان يعيش هو بعد هجري ،، بريئاً “ واموت انا
،، مذنبه “ ؟

الا تكفي هذه الافكار لان تجنّبي ؟ انني مشيت بحيرة

كالخيرة التي شاهدتني فيها منذ ايام وبينما انا في غيبوبة افكاري
سمعت من ورائي صوتاً يقول : قفني قليلاً ايتها السيدة !

* الفصل التاسع والاربعون *

— اكثر الرجال على هذا المنوال —

فوقفت ونظرت الى جهة الصوت واذا برجل عليه سيماء
التعقل والجمال والكمال حسن الشارة في نحو الاربعين من
العمر قد اقترب مني ورفع قبعته مسلماً فرددت سلامه
وقلت له ، ماذا تريد ؟

— لقد عرفت قصتك من نسيبي نجم بعد ان سمعت
محاورتك واياه وقد حملتني الشفقة ان اساعدك اذا اردت
ذلك .

— وبماذا يمكنك ان تساعدني ؟

— بكشف الحجاب عن مقرّ سليم فاذا اردت ذلك
انتظريني هناك في ذاك النزل وشاربيده الى نزل مقابل . وانا
اتيك بالخبر الشافي بعد بضعة ايام .

وكأن اضطراب افكاري حملي ان اقول له على الفور
، انني افعل ذلك .

فمشى امامي الى النزل حيث استأجرت غرفة وفت

وبقيت هناك على احرق من الجمر انتظر الاخبار من ذلك الرجل
وانا لا اشك في انه صادق فاضل لانني توسمت ذلك من
هيئته وقد فاتني ان اعلم في وقت حزني ذلك القول النفيس
لا تحكم على كتاب لمجرد نظرك الى جلده “ وغفلت عن
قول شاعرنا

مل عن المنام وازجره فما بلغ المكروه الا من قتل
وفي صباح هذا اليوم قرع باب غرفتي فعرفت انه هو
الطارق ففتحت له ولما دخل وجلس علق يتص علي قصتي كما
اعرفها تقريباً . واخبرني بان سليماً رجع الى والديه تاركاً اياي
الى الابد فبرد من هذه الاخبار دمي في جسمي الى ان كاد
يبلغ درجة الجليد ثم اندفع يقذف سليماً ويشتمه فكانت كل
كلمة من كلامه ترجع الى جسمي بعض حرارته حتى اصبح دمي
في درجة الغليان فصرخت في الرجل قائلة :

— ارجوك الوقوف عند هذا الحد فان الرجل زوجي
وحبيبي ووالد ولدي وانا احبه في كل وقت وابغض من يذمه
فابتسم وقال : ان حبك له يعدّ ضعفاً وذللاً الان بعد ان
عاملك تلك المعاملة وهو قد ذهب ليحل غيرك في قلبه
مكانك —

فقاطعت قائلة : اسكت . اسكت ايها الرجل ! فقد عرفت
قصداً الان ويجب ان تعلم بان ذكر زوجي الحبيب الوحيد

تقول
شعر
نفس

يذهب معي الى القبر واسمه لن يستبدل — عندي بسواه لانه
حلى الاسماء الى قلبي

— ان هذا الذكر لا يغني عن احتياجك في هذه الحياة
فتيلاً والرجل الذي خانك لا يستحق هذه الامانة منك
— اذا كان وهو المختبر لا يستحقها فهل يستحقها المجهول
من الرجال ؟ ان المرأة متى خدعت من الرجل تصير تحسب
كل الرجال سواء

ثم نهضت الى الباب ففتحته وقلت له : انني اشكرلك على
معروفك معي ياسيدي ثم خرجت من تلك الغرفة وولدي
على ذراعي وانا اكاد لا اصدق انني خرجت من كل ذلك النزل
فقلت : ، لقد اصبحت كل البيوت حجماً عندي ولا اجد سائلي
في سوى دار سيدتي وصديقتي الكريمة آليس “

فقال لها آليس باخلاص اهلاً وسهلاً يا عزيزتي وصديقتي
فان الدار دارك وصاحبها اخت لك .

— انني خادمتك الى الابد ياسيدي لانني لا اجد حماية
وصيانة وطمانينة الا في بيتك هذا الشريف . فان الناس
تحسبني شجرة مشاع مثمرة يجوز لكل الناس قطف اثمارها
بدون وخز ضمير اما انا فلا احسب نفسي كذلك بل احسب
ان هذه الاثمار هي امنع واعز ما في الدنيا لان نفسي وحريري
وشرفي عظيمة في عيني . ولو بقيت وحدي لكنت اتنقل من

مصابة الى اخرى في هذه الحياة التي تضطر المرأة الجميلة فيها
ان تفعل احد امرين: اما ان تحمل سلاحها بكلتا يديها للمناضلة
الدائمة عن شرفها. واما ان تصرع في ساحة شهوات الرجل
وخداعه واغوائه .

* الفصل الخمسون *

— الحفلة —

بعد مرور شهر على رجوع فاطمة قالت لها آليس وهما
جالستان في الحديقة جنباً لجنب
— ان ليلة غدٍ ستريك العظمة الامريكية بابهي مجاليسها
يا فاطمة

— وكيف ذلك ياسيديتي ؟

— انني سأقيم حفلة حافلة وزعت اوراق الدعوة اليها
منذ خمسة عشر يوماً . وهذه الحفلة تذكاري لمرور عشر سنين على
بناء المتحف او بأصح عبارة هي ١١ يوليو زواج روحي الحشي
— وهل يكون الماركيث حاضراً

— بدون شك ولكن مالي اراك تذكرين هذا الرجل
كثيراً ؟

— لانني أوئمل ان يتم لك معه اتحاد يكون فيه سعادة
— ولماذا تريد ان اخون قلبي في حين اراك امينة
نحو قلبك ؟

— ان امري يختلف عن امرك .

— لا فرق في الامانة على عهود القلوب يا حبيبتي .
فان زواجي روحي ثابت لا شرك فيه . ولكن لنفرض المستحيل
ممكناً فهل تؤملين ان تريني سعيدة مع رجل كالمركز ؟ ان
هذا لا يكون اولاً لتفاوتنا في الاخلاق وثانياً لتفاوتنا في العمر
انا اعيش عيشة روحية محضة وهو يعيش عيشة جسدية محضة
وهو الآن في الخامسة والعشرين بينما انا في الثلاثين وحينما
يكون هو لا يزال شاباً بعد خمسة عشر عاماً من الآن اكون
انا على ابواب الشيخوخة فاية امرأة تجد سلاسل بهذا المقدار
قوية لتربط بها قلب الرجل بحبها وتمنعه عن الانفلات ؟

وهو من طبعه لا يوءسر الا مختاراً . ان الرجل يقدر
ان يقيد المرأة بسلاسل قوية منها الطاعة والشرعية والقوة المتولدة
عن الرأي العام اما هي فليس لها سوى قيدين هما قيد
الجمال والصبا فتى تأكلاً مع السنين انحلّ رباط الرجل من نفسه
انحلالاً طبيعياً

-- ولكن يوجد ظروف لا يقف السن فيها حاجزاً دون

السعادة الزوجية

— نعم متى وجدت المساواة الروحية والأخلاقية ولكن
شأن ما بين من يعيش بحسب سنن الطبيعة ومن يضطر ان
يخالفها .

في اليوم التالي نهضت آليس وفاطمة وكل من في القصر من
الخدم باكراً جداً لاكمال الاستعداد لحفلة تلك الليلة التي ارادت
آليس ان تجعلها اعظم حفلة جرت من نوعها في امريكا لحد
ذلك التاريخ لان حضور الحفلة كانوا لا يقلون عن الف
شخص من اعظم عظماء امريكا ولذلك فقد تفقدت آليس بنفسها
وبمساعدة فاطمة كل غرفة من غرف ذلك القصر وكان اعتناؤها
بالاخص بقاعات الاستقبال والمائدة والرقص وكانت كل هذه
الغرف مزينة باجمل انواع الزهور الطبيعية التي ملأ عبيرها ارجاء
ذلك القصر الفخم الاركان

وبعد ان انتهتا من مهمتهما قالت آليس لفاطمة :
— كل شيء ينتهي حسناً ان شاء الله ولكنني آسفة لغياب
،، شيخنا السُّفري “ وعدم تمكنه من مشاهدة هذه الحفلة .

— ربما قدر على الحضور هذه الليلة
— لا اظن ذلك لانه ذهب الى اتلنتك ستي لتغيير
المناخ واذن انه لو كان حاضراً لما اكرث لمثل هذه الامور
لان همومه تشغله عن السُّرور كما يظهر

— ان نزهة كل انسان في قلبه ياسيدي ومن لم يكن

قلبه مسروراً فان كل سرور العالم قذى في عينه
— صدقت ولكنني اليوم اشعر بسرور لم اشعر به منذ
احدى عشرة سنة ولعلّ مصدره سبب هذه الحفلة . . .

فذهبت فاطمة بدون كلام لتخفي دموعها وهي تقول
لنفسها ،، اما انا فلا سرور لقلبي بشيء بعد الآن “ .

لما دنت الساعة الثامنة ابتدأ توافد المدعوين ففصت
الشوارع المجاورة بسياراتهم حتى كان يظنها الناظر سرباً من
الابالسة ظهر على الارض في تلك الساعة — وكأن السيدات
اردن مساعدة آليس على جعل تلك الحفلة العظمى من نوعها
بكل شيء فكانت كل عتيقة منهن مرتدية بأثمن وانفس الملابس
وابهى الحلي تسطع الجواهر الثمينة في اجيادهن وايديهن
واذانهن وعلى صدورهن وروؤوسهن كالنجوم الزواهر وتنعكس اشعة
تلك الجواهر على جمال تلك الوجوه فيظهر الجمال المزدوج الذي
كادت تباري به يد الانسان يد الخالق في الكيان :

وآخر من دخل هنري نسيب آليس وزوجته والمركز
بورتيه فلاقتهما آليس الى الباب واخذت المركز الى مقعد في
الصدر . ومع ان عملها هذا كان واجباً فانها لم تكثر له فقد
اخذت بين النساء غوغاء فأتلعت لذلك الاعناق وحملت الاعين
وضجت الالسنه ونبضت القلوب بسرعة كآية

لم تكن آليس جميلة اذا اعتبر الجمال الجسدي جمالاً تاماً

أي ان جهاها لم يكن ،، شفافاً “ او ،، برّاقاً ،، بل كان ضمن غلاف كـثيف لا تقدر على اختراقه سوى الابصار العاقلة الحكيمة فهذه الابصار كانت ترى اذ ذاك في تلك المرأة ،، صورة الجبال الروحي السامية “ . وعينا آليس موريسون اللتان كانتا ،، مصباحي قلبها كانتا تضيئان بين ذلك الجمع المزدحم بنور غير اعتيادي يخرق حُجب القلوب الشريفة فيضيئها والشريرة فيحرقها

ثم قامت سوق الرقص فلم تبق سيدة في الجمع الا ورقصت مع المركز لانّه كان ،، ملقّباً حديث القدوم الى امريكا “ والمشهور عن سيدات الامريكان انهن يحمن حول الملقبين والالقاب كما يحوم الفراش حول النور . واكثر الاحيان تكون آخرتهن كآخرته .

كانت آليس ترقص وتسرّ وتضحك مع جمهور ضيوفها ولكن الحقيقة هي ان جسمها وحده كان في تلك الغرفة دون روحها التي كانت ترفّ فوق ذلك الفضاء الضيق تخلصاً منه الى فضاء اوسع وارحب حيث هي منذ عشر سنوات تقف عن شخص واحد ولا تجده

ونحو الساعة الحادية عشرة بلغ منها تعب الفكر والجسم مبلغاً عظيماً فانسلّت من بين الحشد وخرجت الى شرفة مطلة على الحديقة تظللها عالة من الورود والياسمين مشتبكة اغصانها

بعضاً ببعض ومتحدة مع اختلاف اجناسها . فقطفت زهرة
وجلس على مقعد هناك تديرها بيدها تارة وتدنيها من فمها
اخرى ثم اطلقت لدموعها العنان اذ رأت الناس وكل مع الفه
وهي وحدها كطائر شريد لا يطيب له مقام ولا يحيط به
سلام .

* الفصل الواحد والخمسون *

— حب المركيز ونهاية امره —

ومن البلية عذل من لا يرعوي
عن جهله وخطاب من لا يفهم

وكان قصد المركيز من مجيئه من بلاده ١١ ملايين أليس
لأننا لا تقدر ان تقول جمالها . وحب أكثر هؤلاء الملقبين
معروف سببه في ١١ بنات الشعب “ بنات امريكا ومن
ظريف ما يذكر ان احدى الوريثات الامريكيات كان يحبها
نسيب لها حباً عظيماً فطلبها احد الملقبين الاروبيين كتابة فلما
درى بذلك نسيبها اخذ صورة اقمح امرأة وارسلها اليه ضمن
كتاب عن لسان البنت تسأله فيه الحضور وان تلك صورتها

ففضر حالاً على ما رأى من فرط قبح الصورة... ولما شاهدها
بغت لانها كانت جميلة جداً فلما شاهدت بعقته سألته عن
السبب فلم يحرج جواباً فأخبرها نسيبها بجلية الامر فتغلبت عواطف
الحب في قلبها على عواطف الطمع وتزوجت بحبيبها ونسيبها عن
هدى ورشد وعاشت سعيدة فإذا كان تم لها لو تزوجت
بالملقب ؟ ...

وقد اخطأ ظن آليس من انه لم ير خروجها احد فقد
كانت عينا الماركيز الحادّتان تلاحظانها بدقة فانسل وراءها
بهدهوء ايضاً تاركاً وراءه مجالاً للظنون لان كثيرين رأوه ولم
يجدوا آليس فسرت قلوب وحرزت قلوب ...

وبينا كان الماركيز خارجاً من القاعة متجهماً نحو آليس كان
شخصان ينسلان بين اشجار وازهار الحديقة من جهتين مختلفتين
ووجهتهما تلك الشرفة حيث كانت جالسة تلك السيدة ولم يكن
احدهما يرى الآخر فتقدما بهدهوء وجلسا تحت الشرفة ظهراً
لظهر يفصلهما سياج كثيف من الريحان الاخضر اما الواحد
فكان رجلاً قادماً لمهمة يقضيها واما الشخص الآخر فكان
فاطمة التي هربت من اصوات المعازف ونغمات الاصوات
التي قد كانت سبب افراح كثيرين وسبب حزنها هي والتعجب
الى هدهوء الحديقة لتشفي اوام نفسها بالبكاء تحت اشجارها
ولسان حالها ينشد بيت الفارض

ولي بعد اوطاني سكون الى الفلا

وبالوحش أنسي اذ من الانس وحشتي

هناك جاست فاطمة على مقعد والى جانبها ذلك الرجل

الغريت وفوقها آليس وكلّ يجهل ما ستلده الساعات

فلما دنا المركيز من آليس وحياها استوقف صوته اسماع

الثلاثة معاً ونظروا فرأوه واقعاً في النور المنبعث من نوافذ القصر

فردّت آليس عليه التحية وهي تحبس انفاسها انتظاراً لما

سيجيء بعدها ،، واما فاطمة والرجل فقطعا نفسيهما ايضاً

خوفاً من الانفضاح وحباً بالاستطلاع لان الرجل كان له من

ذلك غرض وفاطمة كانت لا تحسب الامر سرّاً لتيقنها معرفته

من آليس في الغد

وكان الماركيز اول من تكلم فقال :

— انا اشعر بما عندك من التعب لأنه قد نالني قسم

وافر منه

فقالت آليس بلطف : تفضل واجلس

جلس بجانبها وهو يقول : لو رأيت أجدادي وهم خارجون

من حفلة في قصر التويلري في أيام عواهل فرنسا لقلت لهم

بافتخار ،، انني كنت في قصر اعظم من هذا القصر وشاهدت

اعظم مما شاهدتم ،، .

— ان هذا ثناء كثير جداً علينا يا حضرة المركيز ولكنه

مدعاة للفخر والسرور ولا سماً ومصدره شريف عظيم
 — لم اقل غير الصحيح ياسيدي وبالحقيقة ان الذي يروم
 المجيء الى بلادكم يجب ان يترك قلبه في بلاده ...
 فابتسمت من كلامه وقالت بدل :

— ومن قال لك اننا تقبله بدون قلب والقلب اشرف
 ما في المرء ؟

فرماها بنظرة معنوية وقد جراه لطفها فقال :
 — اظن ان وجود القلب وعدمه سيان عندك لانك لا
 تشفقين على عواطفه وحياة القلب احياء عواطفه كما تعلمين
 فعرفت قصده وقالت بهدوء : صدقني يا حضرة الميرز انك
 لفي خطأ

— ارجو ان يكون ذلك لأككون سعيداً بل اسعد
 رجل — ولكن معاملتك الباردة لي كل تلك المدة الماضية
 دعنتي الى هذا القول

— اذا كانت قد ظهرت مني برودة فأؤكد لك انها طبيعية
 وانا بالحقيقة آسفة جداً فاني لم ابد لها عمداً
 — انا بكل احترام اشك في قولك هذا اذ من يصدق
 ان برودة قلبك طبيعية وانت في ابان حرارة الحياة ؟ ولكن ربما
 كان هناك سبب يجعلك تضعين ثلج التحذر والحياد على ذلك
 القلب ليزيد عواطفه وهذا ذنب لا يعترف

— ان الثلج هناك يا حضرة الماركيز ولكن اليد التي وضعته
فبردت حرارة قلبي الى الابد ليست يدي بل يد اقوى منها
— لا سلطة للانسان على نفسه من غير نفسه في هذه
الامور

— لقد اخطأت فان اليد العظمى العليا التي هي فوق
يدنا هي التي تدبر احوالنا في مثل هذه الامور ومتى وضعت
علينا ما يسمونه ,, نصيباً “ لا تقدر نحن على رفعه الاّ تظاهراً .
وكان الماركيز الآن قد تناول يد آليس بلبقة وجثا امامها على
ركبة واحدة قائلاً : آليس . آليس . انتي احبك !

فاجابته بسكينة وهي تسحب يدها من بين يديه بلطف
— ان طلبك شرف كبير وسعادة عظيمة يا حضرة الماركيز
لو كنت اقدر على اجابته
— ولم لا ؟
— لا امر لا تعلمه

— يجب ان اعلمه والاّ عددت رفضك طلبي اهانة عظمى
لي (وهو بالحقيقة كان قد وقف على السبب من هنري)
— اذن هاك . فان قلبي تحت عهدة رجل آخر .
وحيي له وحده

فنهض الماركيز غاضباً وقال :
— ان ذلك الشقي اسعد مني خطأ ولمكنني لن ادعه

يتنهأ بهذا القلب

— انك لن تراه يا صديقي . قالت هذا متمرمة ولكن لا يجوز لك ان تهينه وتهدده بحضرتي فاننا امرأة لي ملء الحرية في تسليم قلبي لاي من شئت ما دام تحت مطلق تصرفي .
— ولكن ليس لذلك التلياني المجرم الرديء الصيت فانك لا تعرفينه ولو عرفته لحجلت من ذكر اسمه
فهاج ذلك الدم في اوداجها الى درجة قصوى فقالت
بعد ان انتصبت:

— انه اشرف الرجال عندي واغتيابك له دليل على اللؤم .
وكان المركيز قد ندم على تسرعه في الكلام وعرف ان امرأة كهذه قد يستميلها اللطف حيث لا يوثر فيها العنف فرام ان يأخذ يدها ثانية فابعدتها عنه بنفور . فقال :
— اصفحني عن تسرعني الذي —

ولم يتم كلامه هذا حتى كان الرجل قد وثب من مقعده الى الشرفة وكبح البصر اصبغ بين آليس ودي برتية فواجه هذا وامسك بذراعيه وهزه هزة عنيفة قائلاً :
— انت المركيز فيليب دي بورتية تعرف عن الكونت روميو جيوفاني ما يخجل؟ فهات البرهان حالاً امام هذه السيدة والا قتلتك

وكان خوف آليس من هجوم الرجل الغريب قد امتزج

بحقتها وغيظها فارتعدت فرائصها ولكنها لما سمعت صوت الرجل
صرخت صرخة قوية ووقعت الى الارض مغمى عليها
اما الماركيز فعلا وجهه لون الزعفران وحدق في خصمه
وسأله متلعثماً

— أنت هو؟ بالله عليك استر ياروميو . بشرفك استر!

— انني افعل ذلك بشرط ان تترك نيورك هذه الليلة .

انني اترك منه الساعة ان امكن

— إذن تعال الآن . وأخذه بطوقه الى البوابة الخلفية

ففتحها وأخرجه قائلاً :

— اذا عرفت بوجودك هنا نهار غد فلا تعود تجد مني

رحمة

ولما رجع الكونت الى حيث آيس وجدها على صدر

فاطمة التي لما رأت ما جرى وعلمت بذهاب الرجلين تسلفت

الحاجز طلباً لانهاش صديقتها وحبيبتها .



* الفصل الثاني والخمسون *

— اجتماع الحبيبين بعد عشر سنين —

أخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته
ومدمن القرع للأبواب ان يلجا

جثا امامها وأخذ يدها بين يديه ونادها بصوت رقيق
آليس . آليس . هل ازعجتك ؟ ففتحت عينيها مبغوة ونظرت
فيه ثم اغمضتها قائلة : ,, هل انا في حلم ؟ “

— كلاً يا حبيبة روعي . انها يقظة — انها حقيقة — انا
روميو قد رجعت اليك فهل انا مقبول ؟

— أوّاه انني لا اصدق — انه حلم — حلم مزعج سيوقظني

على ألم جديد

لما سمعت فاطمة ذلك الحديث سرّت لسرور صديقتها
من جهة وحرزت من جهة نفسها من أخرى فانسجبت ببطءٍ
وتركتها لوحدهما وبعد ذهابها بدقيقة كان روميو جالسا مكانها
ورأس آليس على صدره وهو يناديها قائلاً :

— آليس . استيقظي . كليتي . انني لم اتجرا على

هذا العمل الا بعد سماع حديثك فهل ازعجتك ؟

— اذن انت هو حقيقة ؟ انت هو حبيب قلبي روميو
الذي عشت عشر سنوات على ذكر حبه ؟ ثم رفعت رأسها
عن صدره واستوت جالسة ونظرت اليه فلما تحققتة جيداً ارتمت
بين ذراعيه فصمتا عن الكلام ليفسحا مجالاً لتخاطب القلبين
الذين كانا لتدانيهما يهتمان آيات الحب الشريف همساً بلغة
النض

وبعد عدة دقائق رفعت آيس رأسها والدمع ملء غينها
وقلت :

— كيف اتيت الى هنا يا روميو؟ وهل انت حر الآن .
آه ما اعظم سعادتي بقلبك ! ولكن ان كان قد قضي علينا
بالفراق فارجو ان يكون فراق روحينا في هذه الليلة الى العالم
الأعلى حيث لا يمرر اجتماع المحبين فراق
— لن نفترقن فيما بعد يا حبيبتي قبل الوفاة وهذه السعادة
نفسها ان هي الا مبتدأ لحياة خالدة يترجاها كل ابن نعمة .
— ولكن كيف كان مجيئك في هذا الوقت واين كنت
مختبئاً ؟

فضحك وقال

— انني كذبت عليك بقولي انني ذاهب الى اتلنتك ستي
وقد كنت استعد لمثل هذه المباغثة السعيدة .
فبغت آيس من كلامه وقد ظنته يهزىء او انها هي تحلم

فقلت :

— ماذا ؟ انك لم تذهب الى ائلتك ستي ؟ اذن من انت ؟

— انا ,, شيخ المائدة “ يا ليس الذي لم يكن يقدر على اطالة النظر اليك والكلام معك خوفاً من الفضيحة .

— انه كلام مدهش مزعج . فهل تعني ان تقول لي انك انت الكونت روميو قد خدمت في قصري متخفياً ؟ فلائي صلب

— ذلك لانني ظننتك قد سلوت ولم يطاوعني قلبي على ازعاجك بوجودي الى ان اتحقق حقيقة حالك
— آه لو كان يوجد في معجم المحبين كلمة ,, مذنب “
لوصفتك بها فقد مرقت قلبي تمزيقاً وكان من الواجب عليك إنعاشه قبل الآن .

— ولكن ألا تعلمين بان اغلاطاً كثيرة تجري في الحياة وصاحبها يقصد نفع الغير بها فتأتي بالضرر . ان اساس اكثر اضرارنا انما هو جهلنا للامور الموافقة لنا ولسوانا كما ان اساس اعراضنا هو جهلنا امور صحتنا

وكانت الآن قد هدأ روعها فقلت له مدهوشة
ما هذا فاني اراك بالبزة الرسمية وصدرك يسطع بالاسمى
— نعم انني اظهرت حقيقة حالي كما هي في هذه الليلة

لاني سئمت حياتي تحت تلك الثياب المستعارة فأتيت الى هنا
لعلمي انك تخرجين لتنشق الهواء النقي فصار ما صار من خروج
ذلك المركيز في اثرك
واين هو الآن ؟

— انني أخرجته من هذا القصر وهذه المدينة لان قياده

بيدي .

— وكيف ذلك ؟

— انه ذو جرائم كثيرة — انه قاتل . ولكن هذا سر

قد عاهدته على كتمان

— كفى ! كفى ! انني قد رأيت آثار الجرائم في عينيه

— دعينا منه الآن ايتها الحبيبة فان وقتنا اسعد من ان

يصرف في التكلم عن مثله

— ولكن لم اسألك عن سبب رجوعك اليّ بعد ذلك

الغياب الطويل ؟

— انه سبب مؤلم ياملاكي الحارس فقد وجدت بعد رجوعي

ان والديّ توفيّا من الهم وزوجتي لم تزل امينة على عهد

وباقية في بيتي فاستقبلتني بذراعين مفتوحتين وانا بدوري كفرت

عن ذنوبي وضحت اميال قلبي وعواطفي وكل شيء فيّ لاجل

سعادتها

وبعد مدة رزقنا الله ابنة كانت جميلة متممة لسعادة والدتها وسارة

لقلبي بعد ان كنت عزمت على اماتة كل سرور وسعادة فيه
من اجل تلك المرأة الامينة لانني لم احسب ذاتي بعد ان
فارقتك في عالم الاحياء

ومنذ ثماني سنوات ماتت زوجتي فأسفت عليها جدًّا ولكن
ما هو ذنبي بعد ان افرغت غاية جهدي ومرضتها بنفسي فلم
تنجح فيها مهارة الاطباء ؟

وقد يئست بعد موتها من حياتي ولكنني لم اكن جباناً
لاصرم حبليما بيدي فأتيت هذه المدينة ووضعت بنتي في مدرسة
ولبثت اترقب الفرص لمشاهدتك الى ان قرأت طلبك لخدام
للمائدة فكان ما تعرفينه وقد عجبت جدًّا اذ رأيك لم تزال
عزباء وكنت اعزو الامر الى سبب غير حبك لي اذ انني لم ار
ذاتي اهلاً لمثل هذا الوفاء

فتنهلت آليس وقالت — ما انت الا رجل . انك تحسب
قلب المرأة أوهى واضعف من ان يحمل حباً عظيماً . ولكن لقد
ساء فألكم انتم معشر الرجال وانكم في ذلك لمخطئون . اما انا
فانني كنت متزوجة ولم اقدر على الزواج غير مرة ثم مدت
يدها واخرجت من عنبها ذلك الغلاف الذي فيه مکتوبه وقالت
له : افتحه فترى زوجي الروحي —

ولما رآه أخذ يشمه ويبكي فقالت له :
— كيف رأيت وفاء النساء ؟

فجثا امامها وتكتف واحنى رأسه كالطفل التائب وقال :
 — رأيت اني مجرم امام تمثال الطهارة والشرف والوفاء
 وها انا على ابواب السعادة والنور وكلمة واحدة من فيك تدخلني
 او تطردني الى الظلمة الابدية

فقهته من الفرح ووضعت يدها على رأسه قائلة :
 — اني اباركك باسم الحب الطاهر . فادخل الى مكان
 اعد لك من الله وفيه من الحب والسعادة ما يكفل لك الرضى
 التام — ادخل فرح سيدتك

.....

وكان الضيوف الذين دروا بخروج أليس والمركيز ينتظرون
 رجوعهما بشوق فلما دخلت بعد ساعة من الوقت وهي متكئة
 على ذراع الكونت جيو فاني شخصت اليها الابصار مستغربة —
 انهم كانوا ينتظرون دخولها بصحبة ماركيز في شرح الشباب نشيط
 خفيف الحركة فأروا مكانه رجلاً عليه بزة رسمية مرصعة
 بالاوسمة ولكنه غريب لا يعرفونه — فضلاً عن انه في آخر
 عهد الكبولة وان كان يظهر في نشاط الشباب وهو هادئ
 رزين تدل هيئته على انه يبصر بدماعه اكثر مما يبصر بعينه
 وينطق بجزائه اكثر مما ينطق بلسانه .

ورأت أليس استغرابهم فابتسمت وتقدمت الكونت بضع
 خطوات ووقفت في وسط الجمع خطيبة كما فعلت في اول السهرة

ولكن بفرق انها الآن اقل سنًا وأكثر جمالاً — انها وقفت
 بنت عشرين لا بنت ثلاثين لان لقاء الحبيب أرجعها عشر
 سنوات الى الوراء دفعة واحدة وسرورها به ازال — عن وجهها
 ذلك البرقع الكثيف الذي وضعه النوى من الهموم والجود
 فظهر من تحته ذلك الوجه بارقاً بنور السعادة وتأنك العينان
 ينبثق منهما شعاع الفرح ثم مرت قصتها باختصار كلّي
 وختمت بقولها :

— لو قدر لنا الآن الحصول على اجازة الزواج لكنتم كلّم
 شهوداً على زواج حقيقي صادق هو ابن الحب الشريف .

❖ الفصل الثالث والخمسون ❖

— بائع الحرير السوري —

١١ حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك “

وغني عن البيان ان الانسة آليس موريسون اصبحت في
 الليلة التالية اذ كان قد عقد اكيالهما هي والكونت روميو
 جيرالد جيوفاني ١١ جسداً واحداً “ بعد ان نبض قلباهما

كواحد مدة عشر سنوات وقد أصبح ،، اللقب “ اعزّ عزيز
لديها الآن لان روميو كان يحمله . ولكن عينها لم تكن عمياء
حتى في الحب لانها كانت تعتبر اللقب في الملقب الذي
تعتبره اهلاً لتلك الكرامة .

وليس اشرف من لقب يناله المرء مكافأة على عمل مجيد
لانه يكون صورة ذلك العمل انما رآها الناس يقدمون لها
حقوق الاعتبار ولكن لقب آليس الذي كان لها بحق هو
اسمى لقب وهو ،، ملكة ملكات الاحسان “ اطلقته عليها
الانسانية التعيسة وهو اشرف لقب على الارض واحبه في
السماء .

.....

بعد مرور خمس سنوات على ربط هذه العقدة المقدسة
دخل بائع حرير سوري الى تلك الدار فرأى في الحديقة ثلاثة
اولاد بنتاً وصبيين يلعبون فلما رأى الاولاد البائع التفتوا عليه
يسألونه ويداعبونه فقالت البنت :

— ما هو اسمك وماذا تريد ؟

— قال اني احمل بضائع شرقية واورية جميلة جداً لانها
ملبوس الجميلات فسرّ قلبها الصغير بذلك وقالت له :

— ان والدي مشغولة البال قائمة بتمريض صديقة لها على

فراش الموت

ولكن سألح عليها بالسؤال لعلها تسمح لك بالدخول

— ما اسمك ايها الصغيرة ؟

— اسمي يوليدا آليس جيوفاني اما آي وأمي فهما يناديانني

باسم ,, الكونتس الصغيرة “

— وما اسم اخويك ؟

— هذا هو أخي واسمه برناردو جيرالد جيوفاني اما ذاك

(وأشارت بيدها الى الغلام الاكبر) فليس أخي ولكنني

اناديه كذلك واسمه ,, سليم “

ولم تصدق ان جاوبته على اجوبته فركضت الى امها ببطاقته

وتوسلت اليها ان تسمح بدخوله لتشاهد بضاعته فسمحت فلما

دخل سأله الكونتس آليس قائلة :

— هل انت سوري ؟

— نعم ياسيدتي

— اظن ان الله قد ارسلك . فان لي صديقة سورية على

فراش الموت فلعلك تقدر على نفعها بشيء

ولم يدر ذلك البائع ما الذي حرك قلبه من كلامها

فامتقع لونه وقال :

— ما هو اسمها ؟

— ادخل فشاهدها اولاً فلعلها لا تريد اطلاعتك على

حقيقة حالها

— لعل لها تاريخاً قديماً ؟
 — نعم • وهو محزن وعظيم ايضاً •

* الفصل الرابع والخمسون *

— لقاء آخر ساعة —

وكذلك الخطوبُ تعثرُ بالناسِ فخطبُ يأتِي وخطبُ يفترُ

في غرفة قليلة الفرش نفيسته نظيفته مطلقة النوافذ للهواء
 النقي — وعلى سرير ناصع البياض بكل ما عليه كانت فاطمة
 مستلقية على قفاها وصدرها يهبط ويصعد لنبض قلب يحارب
 قوة الموت العظيمة بقليل ما بقي فيه من القوة الواهية وبجانبها
 راهبة ممرضة بشوبها الاسود من فوقه قبعتها البيضاء تحت
 ملائمتها السوداء كأنها رمز عن انبثاق نور الثواب من ظلمة
 العذاب

كانت عيناها شاخصتين في السقف كأنها تبحث عن شيء
 غير موجود • ولم يبق في ذلك الوجه اثر يدل على انه وجه فاطمة
 القديمة “ سوى تينك العينين اللتين كان هزال جسمها قد
 زاد في كبرها واتساع حدقتيهما — تلك الفتاة التي كانت منذ

خمس سنوات مثال الصحة والجمال لامتلاء جسمها ونضارة وجهها
واحمرار خديها وبريق عينيها — قد اصبحت الآن خيالاً
مظالماً لذلك الهيكل الجميل يدل عليه ذاك المصباحان الضئيلان
النور — لم يبقَ عليها سوى عظم نافر وجلد صقيل اذ لم يبقَ
تحت لحم — كان قد ذاب جسمك يا فاطمة التعيسة قد برزت
عظامك منه حتى تكاد تشقّ جلده وتخرج من سجن ذلك
الألم — مع انك انت لم تضجري رغماً عن كل ما اصابك —
لقد غارت عيناك الكبيرتان اللتان سببتا غوء وورق لوب كثيرة طي
الصدور — لقد ذبلت زهرة جمالك التي جعلت لك حسّاداً
كثيرين — ولكن قلبك العظيم بعواطفه لم يزل كما كان
عظيماً لانه كان يستمدّ حتى من الضعف قوة — **و**نفسك
الشريفة هي الآن كما كانت داخل ذلك البيت الشعري تقيّة
طاهرة بفرق انها الآن تحلّق الى ما فوق — جوّ السعادة مع
الحبيب ولا تقدر ان تثبت عليها — مسكينة انت يا فاطمة
ماذا فعلت ؟ ألا أنك أحبيت حباً شريعاً صادقاً **تتركي**
وتهانين ؟ ألا أنك استسلمت بكل نقاوة وبساطة وحسن نية
ترذلين وبالقسوة والذلّ تعاملين . ألا أنك صبرت صبراً جميلاً
هذا مقداره بالموت تكافأين !

اجل يا فاطمة البدوية انك فعلت افعالاً سامية صادرة
عن عواطف طبيعية تقيّة ولكنها فوق ادراك اكثر البشر وضدّ

بعض خرافاتهم وتقاليدهم فكان جزاؤك بدل الخير شرّاً . ومتى عرف الجسدّيون مقام الروحانيين ! — ولكنّه جزاء دنيوي فقط .
جزاء بشري — اما جزاؤك العلوي الاخير فهو ولا شك عظيم لانك من الطبيعة نقيّة طاهرة خرجت وهكذا عشت فما هو ذنبك ؟

في تلك الساعة التي كانت فيها حياة فاطمة كدوحة عظيمة بحبها وفضائلها وفأس الموت تقطع عدّتها من ارض الدنيا — في تلك الساعة اذ لم يبق سوى العدّة الاصلية وقد رفع ملاك الموت فأسه عنها وجلس يستريح قليلاً الى ان يمد الكرة — في تلك الساعة دخل البائع السوري غرفتها كأنه مرسل اليها من الله

فنادتها آليس وعيناها مغرورقتان بالدموع
— أنظري الى هذه الجهة ايها العزيزة فقد آتيت اليك بأحد أبناء وطنك .

فادارت فاطمة وجهها بكل جهد نحو الصوت لترى ابن وطنها ، وياها من نظرة هائلة ! — ياله من موقف مؤلم !
ياها من مدينة مسمومة ! —

— فان فاطمة بعد ان كانت تقول لملاك الموت : عجل .
عجل . بقطع عدّتي من ارض الحياة وأرحني من الآلام وعذاباتها اصبحت بعد ان حولت وجهها نحو ابن وطنها تقول

له بتوسل : ١١ ألا يمكنك ان ترجعها الى شبابها ؟ ألا يمكن
تلك العدة ان تمتد في ارض الحياة ولو لوقت قصير بعد “ —
ولكن وآسفاه ! فان ما مضى قد مضى — فارضي يا فاطمة
بنظرة اخيرة من سليم واحسبها منة عظمى من الله افتقدك بها
في آخر ساعات حياتك — خذها معك زاداً لذيذاً قوياً الى
الابدية حيث يكون اجتماعك به لا يقبل طلاقاً او فراقاً —
انك قد ظلمت في الارض فلن تُظلمي في السماء

فما الذي جعل هذا الفرق العظيم في الحياة يا فاطمة ؟ فانك منذ
دقيقة كنت مسرورة لمفارقتها وها انت الآن حزينة من اجل
ذلك — فلماذا احدثت هذه الدقيقة الواحدة كل هذا الانقلاب ؟
هوذا الشمس لا تزال ترسل اشعتها فتضيء الارض — والارض
لا تزال على دورانها وكل ما فيها باقٍ على حال واحدة —

— فما الذي غيرك انت ؟ هل لك سوى هذا الجواب
وهو : ١١ ان الحياة كانت مظلمة في عيني لعدم وقوع بصري
على زوجي المحبوب فلما ادرت وجهي ورأيتهُ اضاءت لي هذه
الحياة بفتة ورجعت كل الخلاوة الماضية اليها “ ؟

لقد قيل يا أيتها الفتاة الطاهرة ان ١١ النور ينبثق من
الظلمة “ ولكن ما نفع نور قد أتاكَ في آخر العمر وعلى مدخل
القبر وبعد طول ذلك الشقاء والعذاب والصبر ؟

عرفت فاطمة سنيماً حالماً وقع بصرها عليه لانه لم يكن

تغير قط عندها في منظره الجسدي بعد هجره لها كما انه لم
يتغير في مقامه الاجتماعي عند الهيئة الاجتماعية

* الفصل الخامس والخمسون *

— قوة ذلك الصوت —

حاريني يا نائبات الليالي عن يميني وتارة عن شمالي

اما هو فلم يعرفها لان الامراض كانت قد قلبت هيئة وجهها
وشوّهت جماله فلما صرخت : يا سليم حبيبي ! أهذا انت ؟
أرجعه الصوت المألوف الى الوراء فعرف انه واقف امام فاطمة
فركض نحو سريرها كالمجنون ولكنه وجدها وآسفاه مغمياً
عليها من ألم المشاهدة ومن ألم النزاع .

فجثا سليم على الارض امام سرير فاطمة وأخذ يدها
يقبّلها وهو يبكي بكاءً مرّاً وعبثاً حاولت الكونتس والراهبة
ردعه بقولهما ان داهها كان سلاً — وكان يناديها باسماء تفتّت
الأكباد الى ان فتحت عينيها فأبصرته على تلك الحالة فاعترتها
لذلك رعشة خوفاً عليه من العدوى فجذبت تلك اليد الضعيفة
البالية من يده بقوة وقالت :

— أمجنون انت ؟ انك تموت موتاً اذا علق بشفنيك

تقاعيات السل .

فاجابها بصوت خفيف والدمع يهجر من عينيه المطرقين
اذ لا قوة له على رفعهما اليها

— ان الموت أقل ما يقدر ان يكفربه شقي مثلي عن
اعماله الماضية معك .

— آه ياسليم لا تقل هذا ولا تجلس بجانبني فاني اكاد
أنسى اساءتك الماضية بل والخطر على حياتك واعاقتك
فنهض عند سماع كلامها وانطرح على عنقها يقبلها باكياً
قائلاً

— فاطمة ! فاطمة ! بالله لا تموتي . احيمي لي ايها
الحبيبة ولو الى مدة اكفرفيها عن ذنوبي الماضية اليك اذا كان
الموت قصاص المجرمين فهو يجب ان يكون لي لا لك ايها
الحبيبة الطاهرة البريئة . ولكن بما انني مجرم اعيش لأكمل
حياة الشقاء اما انت فتذهبين الى حياة أجمل وأطهر . يقولون
بان الموت ختم من ذهب على المصائب فياليته يأتيني الآن
لأموت سعيداً معك انت التي جازيتها على الحب هجرأ وعلى
الصدق كذباً وعلى الامانة خيانة

ثم رفع رأسه نحو السماء باسطاً ذراعيه وقال بحسرة : يا الهي
هل من صفح عن ذنوبي انا الشقي ؟ ثم نظر الى فاطمة
وقال بجزن وحرقة :

— هل من صفح يافاطمة ؟ هل من صفح ؟

فالصفح عن مذنب قد تاب مكرمة

وفي الوفاء لاخلق الفتى شرف

وكان قبلاته وهبتها قوة جديدة ورواقاً غريباً قسيت موقفها
وعوضاً عن ان تبكي ظهرت على شفتيها ابتسامة ملائكية اذ
قالت :

— ان الصفح ابن الذنب يا حبيبي وانا لم أذنبك من

كل قلبي

وكان هذا الكلام احد سهم في قلب المسكين فصاح

صيحة قوية ووقع الى الارض مغمى عليه ولما استفاق اراد

العود الى معانقتها فأبّت عليه ذلك بقولها :

— اذا كنت تحبني فأطع اوامري واجلس على ذلك

الكرسي وأجب عن أسئلتني . فأحنى عنقه مطيعاً حزيناً وجلس .

اما فاطمة فنظرت الى آليس وقالت :

— لقد طلبت ان تحضري لي كاهناً هذا الصباح فأبيت

فأرجوك ان تحضريه الآن . ليساعدني على شكر الله على

ارساله اليّ سليماً عند ساعة موتي الاخيرة .

ولما خرجت الكونتس من الغرفة حوّلت فاطمة بصرها نحو

سليم وابتسمت له قائلة :

— أخبرني قبل كل شيء لاي سبب تركتني على تلك

الصورة ؟

فاطرق كمن يضطرّ الى استعمال كلام جارح لا بدّ منه
ثم قال :

— هربت لتيقني اني بمكوثي معك كنت افعل امراً منكراً
فاحببت التخلص منه

ذهبت لأن والديّ الحّا عليّ بذلك وقد كنت خائناً
فحببت انك لم تـكـوني زوجة شرعية لي ، فأترك أوي وأمي
واتبعك ، وجباناً فلم أجسر على مقابلتهما ثانية وانت معي .

ولم لم تجعلني زوجة شرعية وقد كنت قادراً على ذلك
هنا وكان الامر واجباً مقدساً عليك ؟

لا اعلم . . .

انا اعلم . ذلك لان جذوة الحب كانت قد اخذت
تبزرد في قلبك فحملتك هذه البرودة على اعتباري حملاً ثقيلاً
على عاتقك يجب ان تخلص منه في اول فرصة

اني مذنب يا فاطمة وانا اعرف ذنبي وقد عرفته حتى
في تلك الساعة التي تركتك فيها اما هجري لك فلم يكن
لابتداء جذوة الحب بالانطفاء بل لان عاطفة جنونية عكست
افكاري وفي ساعة واحدة فعلت ما فعلت وسافرت حلالاً الى
الوطن حيث لاقاني والدي بذراعين مفتوحتين وقال . هوذا ولدي
الذي كان ميتاً فعاش وضالاً فوجد .

وهل سألك والدك عني ؟

نعم سألاني وتوجَّعا على نصيبيك وقال : ،، انما هي ارادة الله ،،

لقد وهما . لان الله لا يريد الظلم والشر والعسف ولكن لماذا استحققت انت ،، الترحُّب ،، وانا التعذُّب ألم نكن شريكين في ما حسبناه نحن سعادة وشرفاً وحسبناه هما مع اكثر الناس ،، جريمة ،، ؟ اكل حديثك

وبالاختصار فقد طلبا ان يزوجاني بفتاة من العشيرة فاقترعت بالخطبة رغماً عني لانني كنت على يقين من ان زواجنا يكون ،، تجارياً ،، من جهتي ومن جهة الفتاة التي كانت تحب الاقتران بآلي وليس بي وكان قلبي لم يزل معك اذ بدافع جنوني حسبت القلب شيئاً حقيراً يضحى لاجل المصالح اذا تركتك وكان العرق يتصبَّب من جسم فاطمة المسكينة وقد دبَّت حرارة الغيرة فيه بعد ان كاد يبرِّده الموت فأحسَّت بان قلبها يكاد يطير من صدرها فوضعت يدها فوقه لتمنعه عن ذلك ثم قالت :

ثم ماذا ؟

اما خطيبي التي كانت ثروتي لا انا غايتها فلم تفرح كثيراً لان والدي كان متقلاً بالديون وقد خسر ماله وافرأ في تجارة الحرير مدة غيابي فلم يلبث ان حجزت ارزاقه وبيعت

ولم يبق عندنا سوى الدار التي هي لوالدي - اذ ذاك رفضت خطيبي الاقتران بي لانها عندئذٍ فقط ذكرت ما سمعته عن عاري^{١١} اما انا فلا تسلي عن سعادي بذلك لانها علمتني بفعلها ان ارى الفرق فيما بين الحب والتجارة في الزواج وعرف والداي ذلك فندما على فعلهما معي ورضيا عن رجوعي وها قد مضى عليّ ثلاث سنوات وانا ابث عنك فلم اجدك بل تشبّثت عبر طهرك واخلاصك من ذلك الرجل الذي طردته من امامك وقد أخبرني كل شيء ولما عجزت عن وجودك افكرت ان اكمل التضحية فابتدأت اكد واجتهد لأرجع لوالدي بعض راحتها السابقة -

فلما وصل الى هذا الحد نسيت فاطمة انه هجرها ظلماً وان والديه سبباً لها ذلك وانه كاد يتزوج غيرها لو لم تصادمه الظروف فخرجت دموعها وقالت له :

- لم أخبرني بمصبتكم ؟ لم لم تدعني اموت مرتاحة اذ افكرت بانك انت مرتاح ؟

- اواه ما أطيب عنصرك ايتها الحبيبة انت لا يهمك سوى راحتي انا الذي سببت لك الشقاء والغناء اللذين اتمنيا بالموت ؟

انا لا أضع عليك لوماً وكل ما حصل لي كان نصيبي من الحياة وقد صبرت عليه ولكن أخبرني ماذا حل بأهلي بعد

هري معك وكيف هم الآن؟

ان والدك عرف بذهابنا في ذلك المساء من احد اولاد القبيلة الذي نظرنا وعرفك فاخبره بالامر وهذا جمع اكثر من عشرين شاباً واتوا بلدتنا في طلبك شاكي السلاح متهددين متوعدين وذلك بعد ان كنا غادرناها الى المقام البطريركي . اما والدي فقد اخبرهم بسخطه علينا وركب معهم لاحقاً بنا فلما وصلوا الى المقام البطريركي ولم يجدونا عرفوا اننا ذهبنا الى بيروت فتبعونا ولكن بعد فوات الوقت اذ وجدوا اننا كنا قد سافرنا .

وانت لا تجهين عوائد قومك وكم هو تعصبهم للعرض شديد فقد هاجروا وماجوا وارغوا وازبدوا وابرقوا وارعدوا وحكموا علينا حكماً غيائياً بالاعدام لكن والدك رجل عاقل فلما عرف ان والدي حقيقة لم يكن راضياً عن الامر صالحه ولكنه كان دائماً يحسبك عاراً عليه فلما رجعت الى هناك أضفت الى جانبتي جبانة فأشعت خبر موتك

وقد بلغني ان والدك لما سمع الخبر بكى بكاءً شديداً وقال :
١١ لقد كانت جوهر حياتي وسعادتها ولكنني سعيد الآن بموتها اكثر مما كنت بحياتها وقد صرت اقدر على لفظ اسمها براحة لان الموت قد معارها “

فاجهشت فاطمة بالبكاء وقالت :

- انك لم تأت جبانة باشاعتك خبر موتي . بل اتيت
حسنة عظيمة لي . ولكن حتى والذي ايضاً يحسبني مجرمة !
ثم رفعت عينيها نحو السماء وقالت بانكسار : وانت يا أبا السماوي
الروءوف أتبرئني أم تدينني ؟

فقال سليم متحسراً : انك كنت وتكونين دائماً بريئة
ياحبيبي ولا مذنب غيري انا الخائن الذي احببتك واحبك
دائماً ومع ذلك فقد عاملتك معاملة مبغض قاس

نعم انت احببتني واحببت الواجب ايضاً وهذا الواجب
الظالم بحسب تأويل البعض فصلك عني يا حبيبي فانا اصفح
عنك واحبك كما كنت دائماً هنا واكون دائماً هناك واصفح
ايضاً عن ذلك الكاهن الذي كان سبب شقائي لانه لو كان
بارك معموديتي واكليتنا لكنت انت والهيئة الاجتماعية تقولان :
، ما جمعه الله لا يفرقه انسان ، ولكن ...



* الفصل السادس والخمسون *

الوداع الاخير

ودعتهما وبودعي لو ،، يودعني “
صفو الحياة واني لا ،، اودعها “

هنا وقفت فاطمة عن تنمة الحديث لتأخذ لنفسها راحة
وتمسح دموعها المتساقطة بغزارة وكانت الراهبة الاخت لويزا
تسمع حديثها باصغاء ولا تفهم منه سوى ما كان من لغة العيون
التي شاركتها فيها بتأسف وتحرق اما سليم فنهض عن كرسيه
بعد اتمام حديثه واتى الى جانب سرير فاطمة وجثا تحت قدميها
قائلاً :

— لقد منعني عن الجثو امام وجهك فلا تقدرين على
منعي عن الجثو تحت قدميك
فساد السكوت على الجميع ونابت الاعين مناب الالسنه
وكان كلامها دموعاً سخينة . الى ان دخلت الكونتس أليس
ووراءها الكاهن فاقرب هذا من فاطمة ورسم فوق رأسها
اشارة الصليب المقدس قائلاً :

— فليباركك الله ويهبك ملكوته السماوي !

ففتحت عينها الذابلتين ورفعت يديها اليه قائلة :

— هل عرفت يا محترم انك تبارك امرأة غير مسيحية ؟

فأجاب الكاهن قائلاً . كلنا أبناء الله يا بنيّتي والمسيح نزل الى الارض لاجل جميع البشر على السواء واقتداهم جميعهم بدمه الكريم

— عمّدي ايها الاب الصالح — ان يد اخيك في الوظيفة

اوصلتني الى هذه الحالة المؤلمة فأرجو ان تتقني يدك منها الى السعادة الابدية

اذ ذاك ، عرّفها "الكاهن وبارك معموديتها ومسحها وذهب ليحضر لها القربان المقدس وفي هذه الفترة كانت قد خارت قواها وملاك الموت يقترب منها بسرعة كآية مادّا اليها ذراعيه ليطوّق بهما عنقها فنظرت الى سليم نظرة لا يعرف تفسيرها الا من يكون قد ذاقها ولا يدعي القلم استطاعة شرح معناها الحقيقي كما هو وقالت :

— لم تسألني عن ولدنا ياسليم فهل هو مردّول من الناس

كأمة ؟ ومنك ايضاً ؟ انه ابنك وابني وهو مثلك تماماً

فاجاب هذا المسكين وضعفه القلبي يضاهي ضعفها الجسدي .

— ليس هذا ما قصدت . بل لتأوك شغفتي عن العالم

كله وامرك مبدأً عندي على كل امر ولكن كيف هو ؟

— هو في صحة تامّة — وانت اسعد مني بتريته —
ولكن ياسليم استحلفك ، بأول نظرة “ ان تذكرني بالحسن
امامه دائماً — لقد أرضعته لبن الشرف والطهر والامانة
والحب فعلمه انت هذه الامور على محبة أمه — علمه ان يعتبرها
شريفة ولو حسبها كل البشر مجرمة — ان ينظر الى داخل نفسها
ومبادئها بعين الحقيقة وليس بعين الغرض كما ينظر اليهما بعض
الناس — ان عظامي تراح في قبرها ونفسي في مقرّها الاخير متى
علمت بانّه يجنني ويحترم ذكري ويكرمني وانك انت تذكرني .
مسكين سليم ! ان كل كلمة من كلامها كانت كدّية ماضية تمرّق
قلبه تمزيقاً فلما سمع منها هذا الكلام صرخ بأعلى صوته
قائلاً .

انك اشرف النساء يا فاطمة ومن يقول في حقك كلمة اما
ان اقتله واما ان يقتلني ولا كونن في المستقبل شجاعاً فأريه
الناس صورة نفسك الحقيقية وان احببت الحياة بعدك فما ذلك
الا ريثاً انشر اريج فضائلك وانا دي ببشارة طهرك وشرفك
واماتك يا شهيدة الامانة

وعرفت فاطمة حرقه قلبه وصدق لهجته فتسلّت وهان
لديها الموت اذ عرفت انها تموت محبوبة ومكرّمة ممّن كان
كلّ العالم “ عندها ولما رأت اضطرابه وشعرت بأسى قلبه
الشديد ارادت تحويل الحديث فقالت :

-- لم أسألك عن سيدتي عمّتك .
 انها تسلم عليك كثيراً وهي تحبك جداً وقد كانت دائماً
 تتوجع من اجلك

— انها هي المرأة الوحيدة التي ابتسمت لي ابتسامة
 الوداد بعد ان هربت معك والكوتس أليس الوحيدة التي
 قبّلتني قبلة الحب بعد ان تركتني .
 وكان الكاهن قد وصل الآن بالقربان المقدس فكان
 المشهد مهيباً جميلاً جليلاً محزوناً
 فتقدّم سليم الى الكاهن وقال :

— ارجوك ياسيدي ان تبارك اكليلنا قبل ان تناولها
 القربان المقدس . فتفرّست فاطمة فيه كأنها لم تكن تفكر في
 الامر وظهرت للحال هيئة السرور والغبطة على وجهها الهزيل
 وكانت والكاهن يقرأ صلاة الاكليل فوق رأسيها ويدها بيد
 سليم تشعر كأنها واقفة وياه امام المذبح بصحتها وجمالها الاولين
 وهي مقبلة على حياة طويلة سعيدة مملوءة من الحب الرضي
 والحنو واللطف — وما هو الفرق انهما سوف يعيشان في
 حياة اجمل واشرف بالروح دون الجسد

وبعد انتهاء الكاهن من صلاة الاكليل اقترب العريس
 من العروس قبّلتها قبلة انتهت باغناء الاثنين على ذلك السرير
 الذي ثبت ثبوت الجبارة تحت قوات الحب والفضائل والصبر

والآلام التي كانت تعالوه

وبعد عدة دقائق رفع الكاهن القربان المقدس فوق رأس فاطمة فكانت هذه مستلقية على ظهرها مغمضة العينين مفتوحة الفم متكئة اليدين. شبه صليب على صدرها وعلى شفثيها ابتسامة سماوية وعلى جسمها هيئة ملائكية — وكان سليم جاثياً مكانه عند قدميها متكئاً ايضاً ومثله آليس والراهبة والجميع يستقون الارض بدموعهم

ولما انهى الكاهن عمله فتحت فاطمة عينيها وقالت لسليم

” ادع لي ولدي “

❖ الفصل السابع والخمسون ❖

— اقتراق العروسين الوقتي —

” لا يضرّ تنائي الاشباح . إذا تقاربت الارواح “

نجي بالغلام عند والدته وياله من منظر يفتت الاكباد حيناً راها وراثه ! وبعد ان غسل وجهها وفمها بالمطهرات سمح لها بتقبيله فلما تنشقت رياه وغسلته بدموعها قالت له :

— هذا ابوك يا اني فاذهب وقبله وكن ولداً مطيعاً له

لانه يحبك كما احبك وسيكون لك ابا واماً معاً بعد ان افارقك

فصرخ الولد قائلاً: والى اين تذهبين يا ماما؟
— الى بلاد اجمل واحسن من هذه يا حبيب قلب والدتك
حيث لا اتعذب ابداً بل ابقى بانتظار حضورك عندي سعيدة
مرتاحة

وكان هذا الكلام طمأن قلبه الصغير فحول وجهه نحو والده وقال :

— انني لم اعرف ان لي ابا — فما اجلك يا أبي !
قال هذا وارتمى بين ذراعيه فحنقت الوالدة والوالد العبرات
وبكى الولد لبكائهما بدون ان يدرك المعنى .
اذ ذاك طلبت فاطمة ان يخرجوه قائلة :

— انني لا احب ان تطعم في مخيلته هذه التذكارات
المؤلمة فبالله أخرجوه من هنا لانني احب ان يتذكرني ولدي
بجالة الصحة والجمال واحب ان يذكرني بنفسه وجسمي كل
شيء قويّ وحلو وجميل

وكان قد اتى دور أليس فاقتربت من صديقتها تودّعها
بعبارات لطيفة محزنة ودموع سخينة وآخر كلامها كان اذهبي
بسلام ايتها الحبيبة وانتظرينا هناك بالسعادة الدائمة — لا تقلقي
على زوجك وولدك فهما اخي وولدي “

فقلت فاطمة بقلب يتفتت اني هنا لا اقدر على مكافأتك
وسأجرب ذلك هناك — وانتي ياسيدي وصديقتي وحببتي
تحت عنايتك وضعت السليمين

فخرجت الكونتس من الغرفة لأنها لم تعد تقوى على الاحتمال
فمدت فاطمة يدها لسليم واغمضت عينها قائلة :

— لقد نلت امنيتي الوحيدة وسعادتني العظمى — انني
مت زوجتك الشرعية وان لم اعش كذاك — فهوذا حسن بحلة
بيضاء على الشاطئ الآخر من النهر يدي اليه قائلًا :
ان اوائل الحب فرقتنا واواخره جمعتنا — فاهلاً وسهلاً بك يا فاطمة
الاخت الرفيعة والحبيبة

وكانت يدها الاخرى على قلبها فقالت : الوداع الوداع
يا زوجي وحببي • الوداع الى الملتقى في دار السعادة — انت
هنا — فلا تحف على فاطمة لأنك ترافقها في الموت والحياة —
لا تنزعج لاجلها لانها ذاهبة الى الذي قال ، تعالوا اليّ يا جميع
المتعبين والثقيلي الاحمال وانا اريحكم “

الوداع يا بني ويا أليس ويا لطيفة ويا كاهن الله
وخادمته الاخت لوزا وياسيدي الكونت ويا ايها العزيزان
برناردو ويوليدا ! هؤلاء كانوا كل اصدقائي في الحياة وها قد
تركتهما وتركتهم

.....

في صباح اليوم التالي نقلت فاطمة الى قاعة فسيحة ملاءى
بالزهور مضاة بالشموع الكثيرة وكان الناس يتوافدون لتوديعها
بعد ان وقفوا على قصتها من الجرائد وفي ايديهم اكاليل
الزهور الجميلة

وكانوا كلهم سيكون لذكر قصتها ونظرهم اليها وهي غير
آخذة الى السماء سوى نظافة النفس وتقواتها والى القبر غير
نظافة الجسد — ويرون سليماً جاثياً عند قدميها وهو ساجد
امام تمثال الحب والطهر والامانة فيقولون

— رحم الله من بات عاشقاً شريفاً مثلك يا فاطمة فان
حسن جزائك من الله سيكون عظيماً وان كان قد رذلك البشر
في حياتك فسوف يكرمونك بعد مماتك لان بذرة المباديء
الشريفة لا تنبت في وطنك ما لم تمت في ارض العذاب
والاضطهاد

وعند ظهر اليوم الثالث بعد موتها سير بجثتها الى المدفن
وكان سليم يتبع النعش ماشياً على الاقدام مع ولده ولسان
حالهما ينشد .

ولو كان النساءُ كمن فقدنا لفضلت النساءُ على الرجال
وكان كل من ينظر الى صف المركبات وخامة الموكب
يظن المتوفى من اغنياء المدينة العظام .

هذه آخره فاطمة البدوية فريسة الجهل والمدنية التي

عاشت كما ماتت طاهرة شريفة نقية

* الفصل الثامن والخمسون *

— الخاتمة —

ومكّلفُ الأيامِ ضدَّ طباعِها
متطلبٌ في الماءِ جذوة نارٍ

اما سليم فرجع من المدفن الى بيت الكونتس كما خرج منه — بالغاً منه الحزن حدّ الجنون وهو يلين نفسه لانه جرّها وجرّ فاطمة الى وهدة الشقاء مختاراً وكانت الكونتس تجتهد في تسليته وهي ذاتها تحتاج الى التسلية وكان كل يوم يذهب مع ولده الى قبر فاطمة ينثرن عليه الزهور الطريّة وهو يقول ، لقد كانت نضارة حبك وطهرتك تتجدد كل يوم ايّتها الحبيبة وها انا الآن اجندد زهور قبرك يومياً الى ان ارتاح فيه معك فينتقل هذا الواجب مني الى ولدنا "

وفي احد الايام جاءته الكونتس بورقة مطوية فلما فتحها وجد انها حجة في بناية جميلة في بعض شوارع تلك المدينة تسوى مئات الوف الدولارات وهي باسم سليم الاصغر فلم يعد يعرف كيف يشكرها اما هي فقالت :

- لا شكر على الواجب يا عزيزي فان سليماً ولد لي وقد
كان سلوتي الوحيدة قبل ان صار لي اولاد
ولما رجع الكونت من اوربا وعرف بموت فاطمة بكى بكاء
شديداً وقال :

- ان النفوس الكبيرة بفضئلها لا تعيش كثيراً في هذا
العالم لان السماء اكثر احتياجاً اليها من الارض فرحمة الله على
روحك السامية يا فاطمة

قلنا سابقاً ان فاطمة خافت على سليم من تقاضيات السل .
فاين هي الآن ترى انبوية الحزن تقرض اصول قلبه على فقد
شريكة حياته ! اين هي تراه مسرعاً مسروراً نحو اللقاء
الاخير لها ؟

وهل يقدر ان يتصور القارئ ندامة رجل محب قد زرع
ييد حبه تلك الشجرة ثم تمكّن ييد تدمرعه وجنونه من قلعها ؟
انه بكل قساوة اقتلعها حينما بدأت تثمر فأمات وكاد يموت .

ولكنه قد كفر عن جرمه بانالة زوجته امنية قلبها العظمى
وهي ,, زواجهما الديني ,, فذهبت تتلذذ باشرف لقب عند
المرأة المحبة الفاضلة اي لقب ,, الزوجة ,, وبندامته الصادقة
وباطهاره خطاه للملا اجمع بكل شجاعة واخلاص . وباليته
صحا قبل ذبول زهرة الشباب

ليت وهل تنفع شيئاً ليت ليت شاباً بيع فاشترت

.....

وبعد هذا ببضعة اشهر وصل الى والدي سليم كتاب من
ابنها التمسيس ومما جاء فيه ، انني قد قتلتها بتركي لها وتركها
لي يكاد يقتلني — لقد هجرتها اطاعة لكما وكان يجب ان
اترككما واتبعها لانها امرأتى — اما الآن فواجبي ان ألحق بها
عاجلاً الى حيث لا خرافات ولا تقاليد ولا استبداد ولا ظلم
تفصلنا — انني سعيد جداً لانني مائت وعن قريب اكون بين
عروس روجي فاطمة وبين محافل الملائكة — صلياً لاجلي
واجعلها مأتمى عرساً لانه كذلك اما ابني فهو تحت عناية امير
واميرة وهو سيشب عظيماً سعيداً غنياً لانه اكبر حظاً من
والديه لوجوده في غير الوسط الذي عشنا نحن فيه “

وبعد اسبوع من كتابة هذا الكتاب افاق سليم ذات صباح
فلدعا ولده اليه وضمه الى صدره فقبّله وضمه مدة نصف ساعة
ثم أمسك رأسه الصغير الجميل بين يديه وقل له والدمع ملء
عينيه : ان امك الحبيبة تنتظر والدك ياسليم وهي احق به
من كل الناس حتى منك انت فبعد ساعات معدودة اكون
عندها في السماء فكُن انت كما ربّتك هي وعلمتك انا حرّاً شريفاً
في القول والفعل لانك اذا لم تكن كذلك لا تقدر ان نجتمع
بك في الآخرة “

وبعد ان تَمَّ واجباته الدينية مات ودفن باكرام بجانب
 رمس فاطمة وبكى عليه ولده كثيراً ولم ينسَ في كل حياته
 ان واجباته الاولى هي حفظ تعاليم والديه والافتخار بسيرة امه
 ووضع الزهور الجميلة على قبرهما

١١ فلا تركنْ الى الدنيا ففيها

من الاحزان ما يخفي السرَّه

.....

وهكذا اتقلبت الاحوال . فان الله سمع طلبات سليم
 الذي سئم معيشته بعد موت فاطمة فأخذه عندها — وبات
 ذلك الرجل الذي رأى مرّة في البعد عنها شرفاً يرى نفس
 هذا الشرف في القرب منها كل مرّة — فسبحان من يغير
 ولا يتغير.



☆ فاطمة البدوية ☆

رواية وطنية

تأليف

عفيفه كرم



طبع في مطبعة جريدة الهدى اليومية في نيويورك

Press of AL-HODA,

81 WEST STREET,

NEW YORK.